شبهات حول الإعجاز القرآني..

عرض وتقويم

الرد على أحمد القبانجي وكتابه

(سر الإعجاز القرآني)

اسم الكتاب: شبهات حول الاعجاز الاقراني عرض وتقويم.

المؤلف: الشيخ محمد الحميداوي.

عدد النسخ: ١٠٠٠

المطبعة: دار الوارث للطباعة والنشر.

سنة الطبع: ٢٠١٥م - ١٤٣٦هـ.

الإخراج الفني: الشيخ باسم العلي.

من إصدارات شعبة البحوث والدراسات

تقديم[١]

(١)

لم تكن التحديات التي واجهها القرآن الكريم وليدة اليوم أو الأمس القريب، وإنما انبثقت منذ اليوم الأول لنزول القرآن في لسانه العربي المبين، فلقد واجه مشركو مكة القرآن بجملة إشكاليات أرادوا من خلالها النيل من مكانته وزعزعة ثقة المؤمنين به، بعد أن عجزوا عن مجاراته والإتيان بمثله.

إنّ مطالعة سريعة لنص القرآن تعطينا بيبلوغرافيا الاتهامات التي سيقت ضده، فقد وصفوه بالسحر تارة، وأنه من بنات أفكار النبي أخرى، وثالثة بأنه مما خلّفه الأولون من أساطير، ورابعة بأنه أفكار أهل الكتاب تلقّفها على الرغم من لحن قولهم. وخامسة بأنه كلام مجنون، وغيرها من الإثارات التي جاءت في سياق تبرير عجزهم وذهولهم أمام اعجاز القرآن.

لقد فات أولئك أن القرآن لو كان كما يزعمون فما معنى أن يتحدى قومه بالإتيان بعشر سور مثله: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاه قُل

---

(١) كلمة قيمة تفضل بها علينا الفاضل الشيخ مازن المطوري الاستاذ في الحوزة العلمية النجفية.

بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين}[١]، بل تنزل إليهم وطالبهم بسورة واحدة مثله: {أم افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن صادقين}[٢]. فالمفروض أنه جهد بشري، جهد شاعر، والشعراء كثيرون. ولم نسمع أن شاعراً تحدى قومه طوال حياته الشعرية وأعجزهم أن يأتوا بمثل قصائده إلى يوم القيامة؟!. بل الواقع والتاريخ يشهدان على عكس ذلك، فكم من شاعر بذّ سابقيه.

ومن إعجاز القرآن الكريم أن هذه الإثارات تتكرر في هذا العصر، فترى بعض الكتّاب يصنّف الوحي على أنه شعر أو افتراء على الله تعالى. وكأن القرآن الكريم يستشرف المستقبل، وناظر لما سيقوله الناس بعد أربعة عشر قرناً من الزمان، فتعرض لأقوالهم قبل قرون متمادية من خلقهم!

نعم لم يكن تعرض القرآن للتحديات والإثارات المشككة مقتصراً على تلك الصادرة من مشركي مكة، وإنما شملت القرآنَ سهام أهل الكتاب الذين وجدوا فيه تهديداً لكيانهم وثقافتهم. فقد شمر يوحنا

---

(١) سورة هود: الآية ١٣.

(٢) سورة يونس: الآية ٣٨.

الدمشقي في منتصف القرن الأول الهجري عن ساعد الانتقاد للقرآن ونسقه العام، وتبعه أثيميوس زيجابينوس في كتاب (العقيدة الشاملة).

ويؤكد الراحل الدكتور عبد الرحمن بدوي أن أول هجوم مفصل على القرآن كان في أعمال نيكيتاس البيزنطي في مقدمة كتاب (نقد الأكاذيب الموجودة في كتاب العرب المحمديين).. أما أكبر هجوم جدلي جدلي على القرآن والإسلام فهو ما قام به امبراطور بيزنطة جان كنتاكوزين في كتابيه (ضد تمجيد الملة المحمدية وضد الصلوات والتراتيل المحمدية)[1].

وهكذا توالت هجمات الآخر ضد القرآن بهدف زعزعة الإيمان به وبأصالته السماوية لأجل إبطال شموليته وخاتميته، مروراً بالعصور الوسطى، وحتى يوم الناس هذا.

والملاحظ لتلك الهجمات التي تقدم الحديث عنها أنها لم تكن ذات إطار نظري محدد أو تراتيبية موضوعية، وإنما كانت تتلخص في تسجيل ملاحظات جزئية هنا أو هناك تتمحور حول إشكال تاريخي أو تشريعي أو اعجازي أو عقدي. أو أنها كانت بهدف التبشير لا غير.

---

(١) دفاع عن القرآن ضد منتقديه، د. عبد الرحمن بدوي: ٥، ترجمة: كمال جاد الله، الدار العالمية للكتب والنشر.

ولكن الذي حدث في الأعصار الأخيرة وخصوصاً مع بداية القرن التاسع عشر، هو بروز ظاهرة جديدة وإطار جديد في انتقاد القرآن الكريم والتشكيك فيه وفي مصدره وصلاحيته وشموله، حيث حاول أصحاب هذه التشكيكات جعلها في إطار نظري محدد وواضح سواء ما يرتبط بالمنهج والمفردات، وإبراز الموضوعية والجدية في كتاباتهم، والتدقيق في المنهج اللغوي والبياني، وتوظيف فروع وعلوم مختلفة إنسانية وغيرها بدءاً بعلوم اللغة والألسنيات مروراً بالاجتماع والنفس وليس انتهاء بعلوم اللاهوت والهرمنيوطيقا. حتى أصبحنا أمام دين جديد (الدين التجريبي).

لقد برزت تحديات جديدة أمام القرآن الكريم تحت مسميات مختلفة ومتعددة، فتارة باسم تعدد القراءات والهرمنيوطيقا، وأخرى تحت عنوان التعارض مع حقوق الإنسان، وثالثة مع التعددية الدينية (المعرفية)، وتارة نقد الإعجاز العلمي والبلاغي وما شاكل.

وبالرغم من كل تلك الطنطنات وفق الأسلوب الجديد، إلا أن المضمون كان واحداً والمفردات متكررة مجترة من الماضي السحيق، إذ أن أغلب ما يلهج به الحداثويون والتأويليون من إشكاليات ضد القرآن وخصوصاً ما يتعلق بمصدره وإعجازه، ليست سوى إشكاليات عتيقة بالية عفى و(غفى) عليها الدهر. غاية الأمر أنها ارتَدَت لبوس الحداثة وتنميقات العصر، وتزويقات اصطلاحات الفنون، فالمحتوى

واحد والأسلوب مختلف. نعم الفارق بينهما أن العربي الجاهلي في عصر الرسالة لبساطته كان يطلق الشبهة عارية صريحة، في حين أن "المتنورين" يمنحونها صبغة علمية ويقدمون السراب بوصفه ماء.

والغرابة أنه بعد مضي أربعة عشر قرناً من الزمان على نزول القرآن بين العرب الفصحاء، يبرز إلينا في هذه الأيام – بعدما اعوج اللسان وفَسد الذوق– من يشكك في الإعجاز البلاغي والبياني للقرآن الكريم!

تمخضت صيرورة المعرفة في عالم الغرب بعد خروجها عن جبة الكنيسة إلى سيادة النزعة التجريبية. ولم تكن هذه النزعة لتقف عند حد معين، وإنّما تخطّت كل الحدود لتغدو مقياساً عاماً وأداة فعالة في جميع المعارف.

لقد عمل الفيلسوف الاسكتلندي ديفيد هيوم (١٧١١–١٧٧٦م) إبان القرن الثامن عشر الميلادي على نقد أسس المعرفة العقلية التي شَيد عليها المذهب العقلي الأرسطي وورثه فيما بعد الإسلاميون. نقد نظرية القياس الأرسطي، وعطّل دورها في إنتاج المعرفة، إذ لم يكن القياس بنظره إلا تحصيلاً للحاصل، وأفسد على أداة المعرفة الطبيعية قانونها الأساس أعني قانون العلية والعلاقات الضرورية بين الأسباب والمسببات، فكانت نتيجة ذلك أن تداعى الاستقراء –

الدليل الثاني من أدلة منطق أرسطو- إذ دون مبدأ العلية والإقرار ببداهته يصبح الاستقراء عقيماً، لا يوصل إلى معرفة.

أضحت المنظومة الأرسطية محل تشكيك بفعل ضربات هيوم. وجاءت بعده تيارات مختلفة انتصرت للعلم وتنكرت للقبليات البديهية، واعتبرت التجربة والحس ميزان صدق المعرفة ومعيار الحقيقة أي حقيقة. ولكن المتأخرين من مفكري الغرب مع ايمانهم بالتجربة أكدوا على أن القبليات لا مفر منها ولكنها تخضع للتأويل وتقرأ تبعاً لمنطلقات الباحث وفروضه مسلماته القبلية.

وليس بعيداً عن هذا السياق كان الفيلسوف الألماني عمانوئيل كانط (١٧٢٤- ١٨٠٤م) يعمل على الموائمة بين النزعتين العقلية والتجريبية، حيث عملت ضربات هيوم للمعرفة على ايقاظه من سباته اليقيني الدوغمائي. ولكنه - أي كانط- أورث المعرفة تركةً خطيرة حين أسلمها إلى النسبية المطلقة من خلال تفرقته بين الشيء في ذاته والشيء كما يظهر لنا، فلقد رأى أننا لا نستطيع بالحواس أن نعرف الأشياء كما هي في ذاتها، وهذا ليس بمعنى إنكار للواقع الموضوعي الذي هو موضوع التجربة، بل الواقع الموضوعي الخارجي موجود غاية الأمر أننا لا نعرف عنه غير الظواهر التي تبدو لنا وتظهر لنا على وفق شكل وقوالب موجودة في عقولنا، ومن ثم فقد ميز كانت بين الظاهرة والمظهر.

ونتيجة ذلك كلّه: أن المعرفة لا محالة تكون نسبية، إذ لا يستطيع الإنسان أن يتعرف على الأشياء في ذاتها وإنما يعرف منها فقط الظواهر، أي الأشياء كما تظهر لعقولنا من خلال تلك الأشكال والقوالب الذهنية القبلية التي تمثل شروط المعرفة الممكنة.

في مجال اللاهوت وفلسفة الدين برز مجموعة من الفلاسفة حاولوا إقامة المنظومة العقدية على أسس تجريبية وذوقية غير متنكّرة لنتائج كل من ديفيد هيوم وعمانوئيل كنط. فقدموا تفسيراتهم الخاصة للوحي والمعجزة واللاهوت بشكل عام يتناسب مع العلوم وتطوراتها والميدان الطبيعي التجريبي، وبما يتناسب مع العلوم الاجتماعية وتطور الألسنيات واللغويات. فكانت النتيجة أن تمخضت مجموعة أصول فلسفية ولاهوتية شكّلت ديناً جديداً (الدين التجريبي). وهذا ما يمكن ملاحظة في كتابات الفيلسوف الأمريكي ولتر ستيس (١٨٨٦-١٩٦٧م) واللاهوتي والفيلسوف الإنكليزي جون هيك (١٩٢٢-٢٠١٢م).

وقد شكّل هذان الفيلسوفان مصدر إلهام لكثير من كتاب الشرق من دعاة الحداثة والتأويلية، فقد تلقّف (هيك) مقولات (كانط) لأجل الفرز بين الحقيقة الإلهية المستقرة الثابتة المتعالية بغض النظر عن أي تجربة روحية ومعرفة، وبين الحقيقة الإلهية القابلة للتجارب الروحية

الواقعة ضمن مجال الإدراك والتوصيف البشري، وكانت هذه الفكرة بهذا التطبيق – الخاطئ– ملهمة لأصحاب الصراطات المستقيمة.

ولو أردنا تلخيص الأصول العامة التي يقوم عليها الدين التجريبي في نقاط ستكون كالتالي:

١) المعرفة البشرية لا تعرف الثبات بل هي متغيرة متحولة من حيث الكم والكيف.

٢) المعرفة الدينية باعتبارها مترابطة مع منظومة المعرفة البشرية فهي الأخرى لا تعرف الثبات بل تتغير وتتحول كماً وكيفاً.

٣) بناء على ذلك فللدين والشريعة قراءات وأفهام متعددة.

٤) إن المعرفة نسبية ولا توجد معرفة مطلقة.

٥) إن إدراك الحقائق إدراك نسبي بفعل مجموعة عوامل ترتبط بالجهاز الادراكي والمقطع التاريخي وقابلية الوعي وبفعل تفرقة كانط المتقدمة.

٦) في ضوء ذلك كله تمخضت لنا الهرمنيوطيقا.

والهرمنيوطيقا كمصطلح برز في اليونان وتم تداوله بشكل مختلف ومتعدد، ومر بتاريخ طويل من التعاريف حيث عرفها كل باحث بما

ينسجم مع وظائف المعرفة المطلوبة والعلم المقصود. إلا أن الأصل الأولي للكلمة يشير إلى التفسير والشرح للنصوص، وخصوصاً النصوص المقدسة[١].

وقد اجتمعت الهرمنيوطيقا في القرن العشرين مع مجموعة أصول عقل التنوير، حيث أضحت مع المفكر المثير للجدل مارتن هيدغر (١٨٨٩- ١٩٧٦م) نظرية واطاراً يضم مجموعة أصول، وانتقلت من عالم اللاهوت وانعكست على الفلسفة والأدب. وهكذا اجتمعت مع اسهامات أمثال هانس غادامار (١٩٠٠- ٢٠٠٢م) تلميذ هيدغر، وكذا مع بول ريكور (١٩١٣- ٢٠٠٥م) وآخرين.

وبوجود ريكور وأمثاله لم تكن الهرمنيوطيقا بعيدة عن اللاهوت المسيحي، بل شقّت طريقها إلى داخل دائرة الدراسات اللاهوتية بوصفها قاعدة ومعياراً يجب اتباعه لفهم النص الديني (الكتاب المقدس).

بفعل عوامل متعددة جنح المثقفون في بلاد المسلمين إلى تبني تلك المقولات والأفكار التي ولدت من رحم الصيرورة الغربية. وأصبحت

---

(١) تفاصيل أوفى عن الموضوع يمكن مراجعة: مقدمة في الهرمنيوطيقا، دايفيد چاسبر: ١٥ فما بعدها، ترجمة: د. وجيه قانصو، الدار العربية للعلوم- ناشرون، منشورات الاختلاف- الجزائر العاصمة، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ ..

مقــولات التعدديــة الدينيــة (المعرفيــة) والهرمنيوطيقــا ونســبية الحقيقــة والمعرفة، اللباس الرسمي لأهل التحديث في الشرق.

عـلاوة علـى ذلـك فقـد سـعت النخبـة مـن أهـل التحـديث إلى اخضـاع الـدين والشـريعة للمعـايير الـتي ولـدت في منـاخ الغـرب في ظـل وضـع وظـروف خاصـة، محـاولين اعطـاء المقـولات الدينيـة تفسـيرات تتـوائم مـع مفـاهيم الحداثـة ومـا بعـد الحداثـة. وقـد ارتكبـوا في سـبيل ذلـك جنايـات كـبرى بحـق الـدين والمعرفـة، جنايـات توزعـت بـين المنطقيـة واللاهوتيـة. وقـد أشـرت في دراسـة منشـورة إلى أن هـؤلاء قـاموا بلَـي عنـق كثـير مـن الحقـائق الدينيـة في سـبيل اخضـاعها لمنطـق التجريـب ومقـولات عصـر الأنوار والاستعانة بمقولات هي موضع جدل بالأساس[1].

شـهدت السـاحة الثقافيـة في الشـرق صـدور العديـد مـن المطبوعـات والإصـدارات المبشـرة بتيـار الحداثـة بمـا يحملـه مـن مفـاهيم وتصـورات عـن الفكـر والكـون والحيـاة. بـل تجـاوز هـذا التيـار في تلـك الاصـدارات، أفكـار الحداثـة إلى تبـني أفكـار مـا بعـد الحداثـة، بمـا تحملـه مـن انحـدار ثقـافي يؤكـد علـى انكسـار المقـولات الجوهريـة، الـتي تمكـن الإنسـان مـن الوصـول إلى جوهر الشيء والحديث عن ذات الأشياء.

---

(١) انظر: دراسة تحليلية نقدية في كتاب التعددية الدينية في فلسفة جون هيك تأليف د. وجيه قانصو، مجلة البرهان، العدد الثامن والتاسع، ربيع وصيف ١٤٣٤هـ ..

في منطق ما بعد الحداثة لم يعد بالإمكان التكلم عن أي شيء لذاته، بل لازمت ما بعد الحداثة خصائص النسبية والشك المحير، الشك المحير المحير في معرفة الوجود وفي معرفة المعرفة، فقد نبذت ما بعد الحداثة بشكل نهائي المنطق والتعليل العقلي سواء في تفسير النصوص واللغة أو في إدراك ومعرفة الكون والوجود، حتى أن المفكر الفرنسي جاك دريدا (١٩٣٠- ٢٠٠٨م) صاحب نظرية التفكيك قد عبر عن ما بعد الحداثة بأنها لعبة! لعبة مليئة بالمرح والخداع والأزقة المظلمة[1].

وهكذا غدت ما بعد الحداثة تساوي الفوضى من القيم العائمة في بحر النسبيات وقراءات وتأويلات يكون فيها كل شيء صحيحاً ومقبولاً، وفوق كل ذلك فهي تعني -أي ما بعد الحداثة- الفكرةَ التي أعلن عنها الفيلسوف الألماني المتشائم فردريك نيتشة (١٨٤٤- ١٩٠٠م) في كتاب العلم الجذل وهي موت الله!

فإذا كان إدراك الحقيقة نسبياً وكل القراءات نسبية فكيف نفضل واحدة على غيرها؟ ومن يكون الحكم الحاسم في تحديد ما هو صحيح وخاطئ، وما هو جيد ورديء؟ وهكذا تجلّت كتابات ما بعد الحداثة في أنها ثرثرة لا تنتهي من الادعاء والادعاء المضاد بحسب الناقد الأمريكي

---

(١) مقدمة في الهرمينوطيقا: ١٥٨.

ستانلي فيش، لأنه ووفق سياقات (الميتاحداثة) لا يمكننا الوثوق بأي شيء.

إن مطالعة كثير من الإصدارات التي تبشر بتيار الحداثة والتأويلية وكذا الكتب التي جاءت في هذا السياق وتناولت مسائل الدين والشريعة والفكر، توقف الإنسان على أنها لا تعدو أن تكون سرداً أجوفاً وإنشاء غير مستدل خال من البرهنة، بل لا تتخطى أن تكون دعاوى متراكمة بعضها على بعض. ففضلاً عن اتكاءها على التجربة – والتجربة يدها قصيرة قاصرة عن كثير من المسائل– تجدها مملوءة بالحشو الزائد غير المستدل وغير المبرهن. وما ذلك إلا بسبب أنها تخطت الحدود الفيزيائية واللغوية وأغرقت في الخيالات والأوهام الصوفية.

توظيف ما بعد الحداثة المعبر عن صفة النقد مشروع وضروري، ولكن أن توظف بطريقة ضبابية كما هو حاصل فعلاً في مجالات عديدة تتخطى كل الأطر والحدود فحينئذ لا تعدو أن تكون انحداراً ثقافياً غارقاً في النسبية المطلقة التي تستحيل معها المعرفة، والكينونة في ظلمات بحر الشك المطلق. ولذا نجد كثيراً من مفكري الغرب وقفوا موقفاً رافضاً لما بعد الحداثة لما وجدوه ولمسوه فيها من إغراق وفوضى في المعرفة والسير نحو تهديد اللاحدود. ولكن المشكلة أن كثيراً من كتّاب الشرق ومثقّفيه يمارسون انتقائية فريدة، فتراهم يتلقّفون

ويترجمون ما يكتبه أنصار ما بعد الحداثة ورواد التشكيك والنسبية دون الإلماح أو التعاطي مع الفريق الغربي الرافض لما بعد الحداثة ولو بطريقة نقدية التي هي سمة ما بعد الحداثة المزعومة!

ما ينبغي لنا هو أن نكون على وعي في تعاملنا مع الأفكار الغربية وغيرها بأننا في حالة حوار جدلي، وأننا يجب ألا نكتفي بالاستيراد والتبني والتلقي كما يفعل كثير من الكتاب. والحوار الجدلي ليس صيغة تلفيقية بين ضدين بل هو الأساس الفلسفي لأي معرفة، نتعامل لنختار الأوفر حظاً من الحقيقة والأقرب رحماً من الواقع وتراثنا المقدس.

كان نصيب الوحي والقرآن بوصفه معجزاً سهماً وافراً في دراسات الحداثويين الذين تبنوا مقولات الصيرورة الغربية بقضها وقضيضها من التعددية الدينية والتفتت الوجودي والنسبية والهرمنيوطيقا. ففي ضوء المقولات التي استعارها الحداثويون من سياقات مختلفة تم التشكيك بالوحي النبوي بوصفه حلقة وصل وارتباط ما بين عالم الغيب (الميتافيزيقا) وعالم الشهادة (الفيزيقيا). وحاولوا اعطاءه مقاربات مختلفة تنسجم مع منطق التجريب، وفي ضوئها غدى الوحي أشبه باللعبة السياسية منه بالوحي النبوي!

أما النص القرآني بوصفه معجزة النبوة فهو الآخر لم يسلم من التشكيك بتبع تلك التفسيرات للوحي. فهذا النص من إنشاء الرسول

محمد صلى الله عليه وآله قد ابتدعه من بنات أفكاره وتجربته الصوفية في في الارتباط بالمطلق، الذي هو ارتباط محكوم لمجموعة عوامل سيكولوجية وفسلجية وقابلية الوعي ومحكوم لمقولة عمانوئيل كانط المتقدمة. فالوحي والنبوة عبارة عن تجربة يخوضها الإنسان في الارتباط بالله تعالى. أو أن النص القرآني لم يكن من الله مطلقاً بل كان شركة وعملاً تساهمياً بين الله والرسول، حيث تعطى المضامين للرسول فيقوم بسبكها وصياغتها في قوالب الألفاظ، فاللفظ من محمد والمعنى من الله!

وأخذوا ينسجون بخيوط العنكبوت ما كان ردده أسلافهم من قبل: {بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ} [سورة الأنبياء، الآية: ٥]. إذ في منطق هؤلاء لا فرق بين الوحيَ وبين إلهام الشعر فكلاهما من مبدأ واحد، فالقرآن شعر من أشعار الرسول مصدره عبقريته ونبوغه الفذ!

وأما جوانب إعجاز القرآن البلاغية والعلمية والتشريعية فهي الأخرى نالتها سهام التشكيك، حتى شاهدنا فرقعات مضحكة يكررها قوم لا يفقهون العربية وقوانينها.

إن القرآن الكريم وهو يتحدى المتخصصين في الفصاحة والبارعين في البلاغة، وأصحاب الصولة في حلبة الأدب الرفيع، قد رضي منهم أن يأتوا بسورة واحدة مثله لكي يرفع الرسول صلى الله عليه وآله اليد اليد عن دعواه. ولكنهم وقفوا عاجزين، وعجزوا، وعرضوا سلطانهم

للاضمحلال ولم يستطيعوا أن يأتوا بسورة واحدة تحفظ لهم وجودهم وسلطانهم ونفوذهم. فكان ذلك العجز والحيرةُ أوضح برهان على إثبات إعجاز القرآن ونبوة الرسول صلى الله عليه وآله.

نعم كان العرب عصر نزول القرآن أهل اللسان والخبرة الأدبية، ولذا فهموا وعرفوا أن فصاحة القرآن وبلاغته خارجة عن حد القدرة البشرية فلم يقدموا على المناجزة، ولم يكونوا مثل بعض المستعربين الذين لا يفقهون الفصاحة والبلاغة إلا تزويقاً في الكلام وتنميقاً، ومع ذلك يعترضون على بلاغة القرآن واعجازه البياني! وكأنهم كما يقول الشعر الفارسي ما معناه:

ليس من العجيب أن لم يكن نصيبه من القرآن سوى حرف

فإن الأعمى لا يأخذ من الشمس غير الحرارة!

أجل فهؤلاء المشككون في بلاغة القرآن وإعجازه البياني وهم يعيشون القرن الخامس عشر الهجري، وبعد مضي تلك القرون المتمادية على تحدي القرآن لأهل اللسان، هؤلاء كالأعمى الذي لا ينال من الشمس سوى الحرارة. لقد علم فرسان حلبة الفصاحة والبلاغة أن نظم القرآن ليس من قبيل الغزل والحماسة والنسيب والمديح والتشبيب مما كانت تخيلاتهم تصل إليه، بل هو أمر خارج

حدود البشر، ولذا وقفوا موقف الحيرة والدهشة، ومن شدة دهشتهم وصفوه بالسحر.

إن الهدف من وراء التشكيك الذي صدر بناء على مقولات متهافتة، ونفي اعجازه في اُسلوبه البلاغي والتشريعي والعلمي، هو اسقاط الدليل الذي يثبت سماويته وخلوده وشموليته، واسقاط نبوة النبي الكريم وإرساله رحمة للعالمين، وبذلك يفقد القرآن والنبي قداستهما، ويصبح شأن القرآن شأن أي كتاب بشري يطاله التغيير والتعديل أو الإهمال. وتتعدد الرؤى والآراء بشأنه ويمكن مخالفته وما شاكل.

أمام هذا السيل من التشكيكات والإثارات التي استهدفت الوحي والقرآن وإعجازه، كانت المواقف المشكورة والجبارة التي بذلها علماء الإسلام وأهل البيان والقلم في الدفاع عن القرآن وسر أصالته واعجازه. ففي كل مقطع زمني كان العلماء بالمرصاد لكل الإثارات والتشكيكات التي تتعرض للقرآن، فكتبوا الموسوعات والمدونات التي استعرضت وجوه الاعجاز القرآني والاجابة عن الشبهات المثارة.

وتأتي هذه المحاولة التي نكتب التقديم لها في سياق مواجهة التشكيكات التي استهدفت سر الإعجاز القرآني، حيث بذل المؤلّف الأخ المفضال الشيخ محمد الحميداوي دام توفيقه الوسع في ضبط

إثارات بعض الكتاب المشككة في الإعجاز البلاغي والعلمي للقرآن والإجابة عنها. فجزاه الله عن القرآن خير الجزاء وأخذ بيده للمزيد من التوفيق والسداد.

ولا يفوتني في ختام هذا التقديم أن أشير إلى أننا لسنا ضد التحديث حينما تتوفر شروطه الموضوعية ويكون متوفراً على العقلية النقدية الواعية. ولكن ليس على حساب الأخلاق وتعاليم الدين والأصول والأسس العقلية البديهية. عصمنا الله من الزلل ووفقنا للعلم والعمل الصالح.

والحمد لله أولاً وآخراً.

مازن المطوري

النجف الأشرف

الجمعة ٢٥ محرم الحرام ١٤٣٥ هـ.

المقدمة

بسم‌الله الرحمن الرحيم

الإسلام دين يشتمل على أكمل المناهج العقدية والعملية للحياة الإنسانية بما تضمن من معارف اعتقادية وأصول أخلاقية واحكام عملية تَعرف أسسها ومنطلقاتها من خلال القرآن الكريم، ذلك الكتاب الكريم الذي يرى لنفسه القيمومة على الحياة البشرية في جوانبها العقدية والتشريعية والعملية، والكتاب العزيز في ادعائه هذا يرتقي مرتقى صعباً لا أقل على ذوي الإفهام العادية وبالتالي لابد أن يكون هذا الادعاء مدللاً بشكل لا يشوبه شك أو ريبة.

لقد كان الإعجاز القرآني طريقاً وحيداً ومسلكاً فريداً عول عليه القرآن الكريم في إثبات ربانيته وانتمائه لعالم الغيب، الأمر الذي جعله محلاً للأخذ والرد والنقض والإبرام بين أنصار القرآن الكريم وخصومه، ادراكاً من الجميع (موالفين ومختلفين) إنه وبدون إثبات هذا الأصل الذي تتكئ عليه ربانية القرآن الكريم فإنه لا يثبت حجر على حجر في بناء المنظومة الإسلامية على اختلاف مفرداتها ومقولاتها.

وجه أحمد القبانجي – الشخصية المثيرة للجدل – في كتابه: (سر الإعجاز) سهام نقده للوجوه الإعجازية التقليدية التي دأب علماء الإسلام على ذكرها في صدد إثبات استقاء القرآن الكريم وجوده من

عالم الغيب مفنداً لها بما أوتي من قوة حجاجية محاولاً إشادة وجه جديد اعتبره طريقاً وحيداً للتدليل على حقانية القرآن ولسان حاله، في ذلك يقول:

وإني وإن كنت الأخير زمانه لآتٍ بما لم تَسْتَطِعْهُ الأوائل!

حاولت في هذا الكتاب أن أسلط الضوء على مؤاخذاته وبيان نقاط القصور والتقصير فيها مرمماً ما أراد تهديمه ومقوياً ما رغب في تحطيمه وناقداً لوجدانه واستحسانه، متوخياً في ذلك الأمانة والموضوعية قدر الوسع والطاقة.

والله تعالى من وراء القصد.

محمد الحميداوي

الفصل الأول

الإعجاز البلاغي

نقل أحمد القبانجي[1] تحت عنوان: (الإعجاز البلاغي للقرآن) فقرتين؛ أولاهما عن العلامة الطباطبائي، والثانية عن محمد رشيد رضا في تفسيريهما، وجاء في الفقرتين بحسب نقل القبانجي:

يقول الطباطبائي صاحب الميزان في تصوير التحدي القرآني للبشر:

«وقد تحدّى القرآن بالبلاغة كقوله تعالى: (أَم يَقُولُونَ افْتَراه ۖ قُل فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ (١٣) فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ(١٤))، والآية مكية.. وفيها التحدي بالنظم والبلاغة فإن ذلك هو الشأن الظاهر من شؤون العرب المخاطبين بالآيات يومئذ، فالتاريخ لا يرتاب أن العرب العرباء بلغت من البلاغة في الكلام مبلغاً لم يذكره التاريخ لواحدة من الأمم المتقدمة عليهم والمتأخرة عنهم..».

ويقول صاحب تفسير «المنار» في بيان المعجزة البلاغية للقرآن:

---

(١) سر الإعجاز القرآني: الفصل الثاني، ص٤٥.

«الوجه الثاني: بلاغته التي تقاصرت عنها بلاغة سائر البلغاء قبله وفي عصر تنزيله وفيما بعده، ولم يختلف أحد من أهل البيان في هذا، وإنما أورد بعض المخالفين بعض الشبه على كون بلاغة كل سورة من قصار سوره بلغت حدّ الإعجاز فيه. والقائلون به لا يحصرون إعجاز كل سورة فيه، ويتحقق التحدي عندهم بإعجاز بعض السور القصيرة بغيره، كأخبار الغيب في سورة الكوثر التي هي أقصر سورة، على أن مسيلمة تصدى لمعارضتها بمحاكاة فواصلها، فجاء بخزي كان حجة على عجزه وصحة إعجازها...».

بعد ذلك علّق أحمد القبانجي على هاتين الفقرتين بجملة مناقشات نوردها تفصيلاً محاولين تسجيل نقاط القصور الموضوعي التي نراها عليها:

قال: (إن الآية محل الشاهد لا إشارة فيها للتحدّي البلاغي كما يدعى، وإنما هو مجرد تحدّ لأن يأتوا بعشر سور مثله، ولا دليل على أنّها مثله في خصوص البلاغَة والفصاحة، وقول العلامة أنّه هو الشأن الظاهر من شؤون العرب المخاطبين بالآيات يومئذ هو أول الكلام، فحتى على فرض أن العرب يومئذ كانوا قد بلغوا من البلاغة مبلغاً، إلاّ أنّه مجرد شأن ظاهر كما يقول، وهو مبني على خلفية ذهنية ومسبوقات فكرية على أن العرب مهروا في البلاغة والفصاحة، في حين أن هذا المعنى مجرد ادعاء، فلكل لغة وقوم بلاغتهم وفصاحتهم وشعراؤهم

وأدباؤهم، فمن قال بأن العرب وشعراءهم أبلغ من الفرس أو الفرنسيين في لغتهم وأدبهم وشعرهم؟

فنحن أمام قضية يستحيل الحكم فيها لصالح أحد الأقوام والثقافات البشرية، لأن مقاييس بلاغة كل لغة وثقافة مختصة بتلك اللغة لا تتعداها إلى غيرها، فالأدباء العرب يرجحون الأدب العربي الجاهلي من حيث البلاغة والفصاحة، والأدباء الفرس يرون في شعر حافظ وسعدي وبهار (ملك الشعراء) أنّه أبلغ من جميع الأشعار، وهكذا ترى كل أمة في أدبائها وشعرائها ذلك)[1].

أقول: هذا الكلام لا يخلو من غرابة، لأن:

١- التحدي بالإتيان بمثله ليس مخصصاً ابتداء في خصوص الفصاحة والبلاغة كيف وحذف المتعلق يدل على العموم؟، ذلك العموم الشامل للفصاحة والبلاغة لا محالة، والسيد العلاّمة نفسه يرى عموم التحدّي لجميع المعارف التي جاء بها القرآن الكريم كما سيأتي تفصيله، نعم هو - قد - يرى أن التحدي لخصوص مشركي العرب كان واضحاً بالفصاحة والبلاغة لأن الضرورة التاريخية قائمة على أنهم امتازوا امتيازاً بيناً فيهما أولاً، ولأن القرآن الكريم كان في أعلى

---

(١) المصدر السابق: ص٤٧.

درجات الفصاحة والبلاغة، وهذا يجعل من المنطقي جداً أن يكون التحدي في هذين الأمرين اللذين عرفوا بهما واشتهروا بسببهما بين الأمم ثانياً. ولأن تحديهم لو لم يكن بالفصاحة والبلاغة لأجابوا وقالوا إننا لا نعرف جهة التحدي التي أعلنتها علينا وطالبتنا بمماثلتها أو لا نجيدها، لأن أصولها ليست بأيدينا ولاتخذوا ذلك ذريعة لإسقاط القرآن الكريم. وهذا على أي حال أمر أبلغ بكثير من ترهاتهم وسخافاتهم التي قابلوا بها القرآن وحامله (صلى الله عليه وآله)، ولو فعلوا لأجابهم القرآن واهتم بأشكالهم هذا أشد من اهتمامه بإجابة إشكالياتهم الساذجة التي حاولوا بها تبرير إتيان النبي (صلى الله عليه وآله) بالقرآن الكريم، ولا مناص حينئذ من وصول كل هذا لنا بعد كثرة دواعي نقله، لكنهم سكتوا عن كل ذلك، وهو أمر يشعر بأن جهة الإعجاز كانت واضحة في أذهانهم وضوحاً لا لبس فيه ثالثاً، على أن التحدي لو لم يكن فيهما لكان يمكن لهم أن يأتوا بسورة أو سور في التاريخ والقصص أو التشريع والأخلاق أو غيرها مضاهية للقرآن الكريم بلاغة وفصاحة ويتخذوها ذريعة لتبكيت القرآن وأنصاره فان فعلهم هذا بالنهاية يصدق عليه المعارضة والتحدي لاسيما وأنهم قدموا لذلك مقدمة وهي وصفهم القرآن الكريم بأنه نتاجات شاعر (أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون، قل تربصوا فإني معكم من المتربصين)[1]

---

(١) سورة الطور: آية ٣٠.

وهو عمل لو قاموا به لكان وقعه في النفس عظيماً وأثره في المجتمع كبيراً ولكانت مقبوليته أبلغ بما لا يقاس من اتهام صاحب القرآن (صلى الله عليه وآله) بالجنون والكاهنية والشاعرية والتعلم...الخ رابعاً.

رابعاً.

٢- سؤاله القائل: (فمن قال بأن العرب وشعراءهم أبلغ من الفرس أو الفرنسيين في لغتهم وأدبهم وشعرهم؟) فجوابه:

أ- هذا الأمر لا ربط له بالمسألة المبحوث عنها وهي تحدي القرآن مشركي قريش بلاغياً، لأن إثبات هذا المطلب متوقف على مسلّمة وحيدة وهي إجادة العرب للفنون الأدبية بصورة واضحة وجلية، ولو تم ما ذكره القبانجي فإنما يتم في خصوص رد كلام العلاّمة القائل بأن أمة العرب تجاوزت الأمم الأخرى بالبلاغة والفصاحة بفواصل كبيرة جداً.

ب-إن إدراك تفوق العرب في البلاغة أمر تثبته المقتضيات والبواعث التي تكاد تنعدم من حيث مجموعها عند أمة من الأمم، وربما يرجع ذلك إلى أكثر من سبب:

الأول: إن من سبر غور النقل والموروث الأدبي يجد شدة اهتمام العرب بالمخرجات الأدبية بما لم يحدثنا التاريخ عن نظير له عند الأمم السابقة واللاحقة بحيث صارت أرضهم منبتاً للأدب ومزرعة للبلاغة

والفصاحة، وقد انعقدت سيرة كبرائهم وعظماؤهم منذ القدم على تقريب أهل الأدب وصلتهم والخلع عليهم وتخصيصهم بالجوائز الثمينة والاعطيات العظيمة، وهو أمر لم يحدثنا التاريخ عن وجوده في أي مجتمع آخر.

ولم يكن الأمر مقتصراً على العظماء والزعماء والأمراء بل تعداه إلى آحاد الناس وسوقتهم والشاهد على ذلك المنتديات الأدبية وأسواق الشعر والخطابة والمهرجانات السنوية التي يعقدونها لهذا الغرض حتى قيل: (... وأما العرب فقد برعت في البلاغة، وامتازت بالفصاحة، وبلغت الذروة في فنون الأدب، حتى عقدت النوادي وأقامت الأسواق للمباراة في الشعر والخطابة. فكان المرء يقدر على ما يحسنه من الكلام، وبلغ من تقديرهم للشعر أن عمدوا لسبع قصائد من خيرة الشعر القديم، وكتبوها بماء الذهب في القباطي، وعلقت على الكعبة، فكان يقال هذه مذهبة فلان إذا كانت أجود شعره.

واهتمت بشأن الأدب رجال العرب ونساؤهم، وكان النابغة الذبياني هو الحكم في شعر الشعراء. يأتي سوق عكاظ في الموسم

فتضرب له قبة حمراء من الادم، فتأتيه الشعراء تعرض عليه أشعارها ليحكم فيها.[١]

أما بواعث ذلك وأسبابه فنجده واضحاً في كلمات أرباب الفن وأساتذة الصناعة فأبو عمرو بن العلاء يصور فرط حاجة العرب إلى الشعر باعتباره هو (الذي يقيد عليهم مآثرهم، ويضخم شأنهم، ويهول على عدوهم ومن غزاهم، ويهيب من فرسانهم، ويخوف من كثرة عددهم، ويهابهم شاعر غيره فيراقب غيرهم). ويزيد النهشلي في بيان هذا الدور الذي يؤديه الشعراء، قائلاً: (ذبهم عن الأحساب، وانتصارهم به على الأعداء وقد ذكر ابن رشيق في العمدة نماذج من الشعر الذي قيل في الدفاع عن القبيلة، والانتصار لها من الخصوم تحت عنوان (باب احتماء القبائل بشعرائها).

يقول ابن قتيبة: (وللعرب الشعر الذي أقامه الله تعالى مقام الكتاب لغيرها، وجعله لعلومها مستودعاً، ولآدابها حافظاً، ولأنسابها مقيداً، ولأخبارها ديواناً، لا يرِثّ على الدهر، ولا يبيد على مر الزّمان...

وأثنى ابن سلام على لبيد فقال: (كان في الجاهلية خير شاعر لقومه، يمدحهم، ويرثيهم، ويعدّ أيامهم ووقائعه) وهكذا العلوي حيث يبين

---

(١) البيان في تفسير القرآن للسيد الخوئي: ص٣٨.

باعثاً آخر في اهتمام العرب بالأدب قائلا: (إن الشعراء يحضّون على الأفعال الجميلة، وينهون عن الخلائق الذميمة، وإنهم سنّوا سبيل المكارم لطلابها، ودلّوا بناة المحامد على أبوابها).

ومن هنا صار نبوغ شاعر في قبيلة ما مدعاة للفخر والاعتزاز وحادثا نادراً يوجب الاحتفال به على وزان الأحداث العظيمة والأعياد الجليلة، قال النهشلي: (وكان الشاعر في الجاهلية إذا نبغ في قبيلة ركبت العرب إليها فهنأتها به، لذبّهم عن الأحساب، وانتصارهم به على الأعداء. وكانت العرب لا تهنئ إلا بفرس منْتج، أو مولود ولد، أو شاعر نبغ).

وقال ابن رشيق: (كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها، وصنعت الأطعمة، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعون في الأعراس، ويتباشر الرجال والولدان؛ لأنه حماية لأعراضهم، وذب عن أحسابهم، وتخليد لمآثرهم، وإشادة بذكرهم. وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد، أو شاعر ينبغ فيهم، أو فرس تنتج...).

ويستطرد النهشلي في حديثه عن منزلة الشعر عند العرب ومقامه الرفيع، مبينا سبب كل ذلك بالقول: كانت العرب لا تعدل بالشعر كلاماً، لما يفخم من شأنهم، وينْهي من ذكرهم.

وأبو عمرو يبين مكانة الشعراء عند العرب، بقوله: كانت الشعراء عند العرب في الجاهلية بمنزلة الأنبياء في الأمم.

ولهذه المنزلة رفع الشعر ووضع، وخيفت ألسنة الشعراء، وكان لهم أسنان وأقدار، تُقبل شفاعتهم، وتكرم وفادتهم، وينزل عند قضائهم.

وبسبب التصاقه بوجدان الجماهير، وتجنّده في خدمة قضاياهم، وتحريه الصدق، علا شأنه في العرب، وسمت منزلته، ونُظر إلى الشاعر على أنه مصدر الحكمة والحق، حتى قال قائلهم:

(كل حكمة لم ينزل فيها كتاب، ولم يبعث بها نبي، ذخرها الله حتى تنطق بها ألسن الشعراء).

واحتكم العرب إلى الشعر في أمور حياتهم، فكان مسموع الكلمة، نافذ الرأي، قال ابن سلام:

(كان الشعر في الجاهلية عند العرب ديوان علمهم، ومنتهى حكمهم، به يأخذون، وإليه يصيرون).

ولقد آمن العرب بالذات أن شعرهم هو وعاء تجاربهم، ومستودع حكمتهم، وهو ديوان معارفهم وعلومهم. وتتردد على ألسنة نقاد كثيرين عبارة: (الشعر ديوان العرب) التي تعني ما يمكن أن نطلق عليه بمصطلح العصر (دائرة معارفهم).

قال ابن فارس: (الشعر . شعر العرب . ديوانهم، وحافظ آثارهم، ومقيد أحسابهم).

وقال الثعالبي: (كان يقال: الشعر ديوان العرب، ومعدن حكمتها، وكنز أدبها).

وقال التبريزي عن الشعر: (أفضل الأمم من كان به أمهر، وحظّه فيه أوفر، وهم العرب الذين جعلوه ديوانهم الذي به يحفظون المكارم والمناسب، ويقيدون به الأيام والمناقب، ويخلدون به معالم الثناء، ويبقون به مواسم الهجاء، ويضمنونه ذكر وقائعهم في أعدائهم، ويستودعونه حفظ صنائعهم إلى أوليائهم..).

وقرن أبو عمرو بن العلاء الشعر بالعلم، فقال: (ما انتهى إليكم ممّا قالت العرب إلا أقلّه، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير..).

وعبر ابن قتيبة عن احتواء الشعر العربي على كم هائل من المعرفة والخبرة والحكمة بقوله: (الشعر معدن علم العرب، وسفر حكمتها، ومستودع أيامها، والسور المضروب على مآثرها، والخندق المحجوز على مفاخرها، والشاهد العدْل يوم النّفار، والحجة القاطعة عند الخصام، ومن لم يقم عندهم على شرفه، وما يدّعيه لسلفهن من المناقب الكريمة، والفعال الحميد بيتَ منه؛ شذّت مساعيه وإن كانت مشهورة، ودرست على مرور الأيام وإن كانت جساماً. ومن قيدها بقوافي

الشعر، وأوثقها بأوزانه، وأشهرها بالبيت النادر، والمثل السائر، والمعنى اللطيف، أخلدها على الدهر، وأخلصها من الجحد، ورفع عنها كيد العدو، وغض عين الحسود.

وعلى نحو ما أوضحت أقوال النقاد العرب التي ذكرنا طائفة منها وظيفة الشعر في حفظ المآثر والأحداث، وتسجيل الوقائع والأيام، بين النهشلي كذلك هذه الوظيفة، فذكر أنه لولا الشعر لجهل تاريخ بعض القبائل، وضاعت مآثر وأفعال ولم يقم لها أبداً منار. يقول:

(فلولا الشعر لم يقم لهذه الأفعال علم، ولا رفع لها منار، ولدرست آثارها، كما درس كثير لم يقيده الشعر، كالذي نسي من أفعال بني حنيفة وعجل، إذ لم يكن فيهم شعر، فدخلوا في جملة الخاملين)[1].

الثاني: تعد اللغة العربية من أغنى لغات الدنيا ثروة وأكثرها أصواتاً وأغناها مقاطعاً وحروفاً وتعابيراً حقيقية ومجازية واستعارات وكنايات بنحو ينعدم وجود مثله عند اللغات الاخرى وهذا ما يفسر عدم وقوف اي لغة في وجهها والتفوق عليها أو مجاراتها رغم ان هذه اللغة وباعتبارها أداة المعارف الدينية قد انفتحت على عشرات الأمم واللغات والثقافات الا ان الجميع بخع إلى قدرتها البلاغية الفائقة بحيث

---

(١) تلاحظ النقولات السالفة في: وظيفة الشعر في النقد العربي القديم – د وليد ابراهيم قصاب ص١٤-١٨.

لم يحدثنا التاريخ عمن شكك في ذلك حتى اشد خصومها واصلف مناؤيها.

وبالالتفات إلى هذين العاملين يظهر سر ذهاب العرب في العلوم الأدبية شَأْواً بعيداً جعلتهم يحوزون قصب السبق في ميدان البلاغة.

ج- على اننا في غنى عن تكلف إثبات ما مر ويمكن للقبانجي أن يأتينا بنصوص أدبية مقارنة من نتاجات فحول الأدب العربي وغيرهم من أدباء اللغات الأخرى لينظر ذوو الذوق والوجدان ومن كان صاحب مسكة في الفنون البلاغية والأدبية، أي الفريقين أقصر باعاً وأضعف جنداً، أو يزودنا بشهادات خريتي الصناعة الأدبية في الثقافات الأخرى تشهد بتفوق منتوجهم الثقافي على الأدب العربي، وهذان أمران اقرب للموضوعية من استبعاداته التي لا دليل عليها سوى الادعاء، على أن شهادات المنصفين من غير المسلمين تثبت أن القرآن الكريم يقع في سنام العلوم الأدبية الإنسانية بنحو لا يقاربه أي نص أدبي آخر وستأتي الإشارة إلى ذلك بعد قليل.

٣-قوله: (فنحن أمام قضية يستحيل الحكم فيها لصالح أحد الأقوام والثقافات البشرية، لأن مقاييس بلاغة كل لغة وثقافة مختصة بتلك اللغة لا تتعداها إلى غيرها، فالأدباء العرب يرجحون الأدب العربي الجاهلي من حيث البلاغة والفصاحة، والأدباء الفرس يرون في شعر

حافظ وسعدي وبهار (ملك الشعراء) أنّه أبلغ من جميع الأشعار، وهكذا ترى كل أمة في أدبائها وشعرائها ذلك).

أقول:

أ- لو أكمل القبانجي كلام العلامة الطباطبائي (قده) لاتضح مراده من تقدم العرب على غيرهم في صنوف البلاغة لكن الرجل اقتطع قطعة ناقصة من كلامه (قده) ورتب عليها لوازمه الباطلة!!

يقول العلاّمة الطباطبائي - في بحثه حول الإعجاز -[1]: وقد تحدى القرآن بالبلاغة؛ كقوله تعالى:

(أَم يقولُونَ افْتَراه ۖ قُل فَأْتُوا بعَشْر سُور مّثْله مُفْتَريات وادعُوا مَن اسْتَطَعْتُم مّن دُون اللَّه إن كُنتُم صَادقينَ(١٣) فَإلَّمْ يَسْتَجيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزلَ بعلْم اللَّه وَأَن لَّا إلَه إلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلمُونَ(١٤)). وَالآية مكية، وقوله تعالى: (أَم يقولُونَ افْتَراهُ ۖ قُل فَأْتُوا بسُورة مّثْله وادعُوا مَن اسْتَطَعْتُم مّن دُون اللَّه إن كُنتُم صَادقينَ (٣٨) بل كَذَّبُوا بمَا لَمْ يُحيطُوا بعلْمه وَلَمَّا يَأْتهم تَأْويلُهُۚ). والآية أَيضاً مكية أيضاً مكية وفيهَا التحَدي بَالنظَم والبلاغَة فإن ذلك هو الشأن الظاهر

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج١، ص٥٩.

من شؤون العرب المخاطبين بالآيات يومئذ، فالتاريخ لا يرتاب أن العرب العرباء بلغت من البلاغة في الكلام مبلغاً لم يذكره التاريخ لواحدة من الأمم المتقدمة عليهم والمتأخرة عنهم ووطئوا موطئاً لم تطأه أقدام غيرهم في كمال البيان وجزالة النظم ووفاء اللفظ ورعاية المقام وسهولة المنطق....الخ).

وأنت خبير إن حديث العلامة (قده) ناظر إلى كمال البيان وجزالة النظم ووفاء اللفظ ورعاية المقام وسهولة المنطق وغيرها من مفردات بلاغية يمكن لأي أحد أن يجزم بتفوق العرب فيها على سائر الأمم، وهو أمر لا دخالة لاختلاف مقاييس البلاغة بين اللغات كما يتبنى القبانجي فإن اختلاف المقاييس شيء وكمال البيان ووفاء اللفظ ورعاية المقام وسهولة المنطق شيء آخر، وحديثنا في الثاني لا الأول.

وبكلمة أخرى إن المفردات التي نتحاكم إليها هي الكمال والبيان والرعاية والسهولة المتقدمة سواء كانت ثمة مقاييس بلاغية متفق عليها بين لغات الدنيا أم لا، واخال أن القبانجي يعي جيداً أن السيد العلاّمة مفسر خبير ومطلع على أكثر من لغة بحيث يتمكن من محاكمة اللغة العربية إليها، على أن النوبة لم تصل إلى ادعاء إن هذه اللغة أبلغ من تلك حتى يعترض عليه بأن مقاييس تحديد البلاغة متفاوتة بين لغة وأخرى، بل كل ما قاله العلاّمة إن العرب في خصوص هذه المفردات بلغوا مبلغاً لم يصله أحد قبلهم ولا بعدهم، بل حتى لو قلنا إن العرب

أبلغ أمة عرفها التأريخ فإن إشكال القبانجي لا يتم، لأن من يدعي الخلاف مطالب بإقامة الاثباتات اللازمة، ويكفينا عدم وجود هكذا دعوة رغم كثرة دواعي طرحها على مرور الأجيال، فما بالك والدعوة على خلاف هذا تماماً كما يجدها بوضوح من راجع كلمات المنصفين من المستشرقين الذين قضوا ردحاً طويلاً من أعمارهم في دراسة علوم العربية والمبادئ الإسلامية؟

يقول المستشرق (بلاشير)[1]:

لا جرم في أنه إذا كان ثمة شيء تعجز الترجمة عن أدائه فإنما هو الإعجاز البياني واللفظي والجرس الإيقاعي في الآيات المنزلة في ذلك العهد.. إن خصوم محمد [عليه الصلاة والسلام] قد أخطئوا عندما لم يشاؤوا أن يروا في هذا إلا أغاني سحرية وتعويذية، وبالرغم من أننا على علم – استقرائياً فقط – بتنبؤات الكهان، فمن الجائز لنا الاعتقاد مع ذلك بخطل هذا الحكم وتهافته، فإن للآيات التي أعاد الرسول [عليه الصلاة والسلام] ذكرها في هذه السور اندفاعاً وألقاً وجلالة تخلّف وراءها بعيداً أقوال فصحاء البشر، كما يمكن استحضارها من خلال النصوص الموضوعة التي وصلتنا.

---

(١) تاريخ الأدب العربي: ٢/٣١ بتوسط (قالوا في القرآن الكريم ، ص٥).

ويضيف هذا الأستاذ المتمرس في الأدب العربي كما في القرآن الكريم: (... إن القرآن ليس معجزة بمحتواه وتعليمه فقط، إنه أيضاً ويمكنه أن يكون قبل أي شيء آخر تحفة أدبية رائعة تسمو على جميع ما أقرته الإنسانية وبجَّلته من التحف...)[١].

وعلى غرار كلام (بلاشير) يقول الدكتور (فليب حتي) أستاذ التأريخ الإسلامي ورئيس قسم اللغات والآداب الشرقية في جامعة برنستو، في الإسلام منهج حياة، ص ٦٢: (إن الأسلوب القرآني مختلف عن غيره، ثم إنه لا يقبل المقارنة بأسلوب آخر، ولا يمكن أن يقلّد. وهذا في أساسه، هو إعجاز القرآن.. فمن جميع المعجزات كان القرآن المعجزة الكبرى...)[٢].

وهكذا غير هذين العلمين كثير من غير المسلمين المنصفين تجد تفصيل ذلك في (قالوا في القران الكريم) للدكتور عماد الدين خليل.

وإن كان أحمد القبانجي يرى خلاف هذا فليأتنا بإثباتات معللة مغايرة لما قلناه إن استطاع إلى ذلك سبيلاً.

---

(١) القران الكريم: ص١٠٢-١٠٣ بتوسط المصدر السابق.

(٢) قالوا في القرآن الكريم - د عماد الدين خليل: ص١٠.

ب- يمكن القول: إننا لسنا في وارد الحكم لصالح أحد الأقوام والثقافات البشرية بقدر ما نريد القول إن العرب الأوائل وصلوا القمة من حيث الاهتمام بالشؤون البلاغية، ذلك الاهتمام الذي لم يحدثنا التاريخ عن أمة من الأمم إنها بذلت شطرا منه تجاه الأدب وفنونه وهو أمر يكفي لتقرير أصل المطلب الذي يدور الكلام حوله وهو تحديهم بالبلاغة والفصاحة، وقد قلنا إن إشكال القبانجي لو تم إنما يتم في خصوص رفض فكرة أرجحية البلاغة العربية على سائر اللغات الاخرى وهو أمر لسنا حريصين على إبطاله لأنه لا يمس التحدي الثابت للقرآن الكريم للعارفين بالأساليب العربية سواء كان التحدي حقيقة كما يراه غالب علماء الإسلام أو ادعاء منهم كما يتبنى أحمد القبانجي، ومعلوم أن البلاغة لا تختص بقوم دون قوم ولا لغة دون أخرى وعلى هذا الأساس يطال التحدي القرآني جميع لغات الدنيا فتأمل.

قال القبانجي: (إن القرآن نفسه يكذّب هذا الادعاء بالتحدي البلاغي، لأنه يتحدى الانس والجن قاطبة ويقول:

(قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً).

ومعلوم أن الأقوام البشرية لا تتكلم العربية بأجمعها، بل أن العرب لا يشكلون إلاّ جماعة صغيرة ونسبة قليلة جداً من الذين يتكلمون باللغات غير العربية، فاذا أضفنا الجن إليهم ازدادت نسبة الطرف المقابل كثيراً، ولا يعقل أن يتحدى الله سبحانه كل هؤلاء بأن يأتوا بمثل هذا الكتاب العربي في بلاغته وهم لا يفهمون من بلاغته شيئاً، ولو طلب منهم الإتيان بكتاب مثله بلغتهم لأمكن أن يدّعوا بأن كتابهم أفصح وأبلغ، ولا معيار في البين يمكن التحاكم إليه لتشخيص الفائز في هذه المسابقة.

فالمفروض في المقام أن يتحدى القبائل العربية فقط لا الإنس والجن[1].

أقول:

١- ليس بين تحدي القرآن الكريم لعرب الجاهلية في البلاغة والفصاحة وبين شمولية التحدي للجن والإنس اي تهافت أو تناقض حتى يصار إلى جعل تحدي القرآن الكريم الإنس والجن قرينة على كذب دعوى تحديه البلاغي لعرب الجاهلية لأن:

---

(١) سر الإعجاز القرآني: ص٥٥-٥٦.

أ- نفس شمولية التحدي وعموميته يستبطن التحدي البلاغي، لأن البلاغة إحدى الصناعات البشرية التي قد لا تخلو منها لغة، والمفروض إن التحدي جاء للإنس والجن فيما يتقنونه ويحسنونه والبلاغة أحد مصاديق ذلك، ومن البين إن إحدى أهم مميزات بيئة النص القرآني هي فصاحة أهله وبلاغتهم.

وغير خفي على القبانجي ان السيد العلاّمة (قده) يرى عموم التحدي وشموليته لجميع المفردات التي تناظر مساحته المعرفية، ولا ندري لماذا أغمض القبانجي الطرف عن كلامه (قده) وحمل كلامه ما لا يحتمله رغم ان رأيه (رحمه الله) مطروح وبوضوح تام لا لبس فيه في نفس موضوع التحدي الذي نقل القبانجي عنه!!

يقول الطباطبائي (قده)[1]: (... فلو كان التحدي ببلاغة بيان القرآن وجزالة أسلوبه فقط لم يتعد التحدي قوماً خاصاً، وهم العرب العرباء من الجاهليين والمخضرمين قبل اختلاط اللسان وفساده، وقد قرع بالآية أسماع الإنس والجن.

وكذا غير البلاغة والجزالة من كل صفة خاصة اشتمل عليها القرآن كالمعارف الحقيقية والأخلاق الفاضلة والأحكام التشريعية والأخبار

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج١، ص٦٢.

المغيبة ومعارف أُخرى لم يكشف البشر حين النزول عن وجهها النقاب إلى غير ذلك، كل واحد منها مما يعرفه بعض الثقلين دون جميعهم، فإطلاق التحدي على الثقلين ليس إلاَّ في جميع ما يمكن فيه التفاضل في الصفات.

فالقرآن آية للبليغ في بلاغته وفصاحته، وللحكيم في حكمته، وللعالم في علمه، وللاجتماعي في اجتماعه، وللمقننين في تقنينهم، وللسياسيين في سياستهم، وللحكام في حكومتهم، ولجميع العالمين فيما لا ينالونه جميعاً كالغيب والاختلاف في الحكم والعلم والبيان.

ومن هنا يظهر أن القرآن يدعي عموم إعجازه من جميع الجهات من حيث كونه إعجازاً لكل فرد من الإنس والجن من عامة أو خاصة أو عالم أو جاهل أو رجل أو امرأة أو فاضل بارع في فضله أو مفضول إذا كان ذا لب يشعر بالقول...).

ب- كلامه أعلاه فيه خلط بين القشرة الخارجية للنص وشكله وبين مضمونه ومحتواه فصحيح إن المطلوب هو الإتيان بمضمون يضاهي المضمون القرآني في أي مفردة طرحها تاريخية أو أخلاقية أو قصصية أو غيرها بيد إن ذلك لا يعني الإتيان بها خلوا من قشرة بليغة تشكل بجمعها مع المحتوى ما يمكن عده -مثله-، يبقى الأمر الواضح من التحدي أن القشرة البلاغية المطلوبة لا ينبغي أن تكون عربية

بالضرورة بعد أن قلنا إن البلاغة والفصاحة لا اختصاص لها بلغة العرب أولاً وبصدق المماثلة العرفية بين نصين أدبيين حتى إن كانا متغايرين لغة، نعم ربما تكون البيئة العربية التي نزل بها القرآن الكريم قد ألقت بظلالها على التحدي المطلوب بحيث جعلته وكأنه مقصور على لغة تلك البيئة فقط، إلا إن هذا أمر يدفعه تصريح القرآن الكريم بالتحدي لجميع الناس (إن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين)[1]، بل بل لجميع الإنس والجن كما هو صريح الآية التي سجلها القبانجي نفسه، ونزعم إن هذا كان واضحاً حتى في أذهان معاصري القرآن الكريم لوضوح إن أحداً – لا من العرب ولا من غيرهم – لم يعترض على تحديه الإنس والجن وكل ما سوى الله تعالى قائلاً: إن هذه القضية مختصة بمن يعرف اللسان العربي ولا يتعداه إلى غيره فلم شمولية التحدي إلى غيرهم؟

ج- أما قوله: (بكتاب مثله بلغتهم لأمكن أن يدّعوا بأن كتابهم أفصح وأبلغ....الخ) ففيه:

إن الادعاء شيء والواقع شيء آخر، فليأتوا أولاً بكتاب مماثل للقرآن الكريم ثم بعدها ننظر في صدقية دعواهم أفصحيته وأبلغيته

---

(١) سورة البقرة:الآية ٢٣.

والحكم في ذلك المتخصصون في أدب اللغات المقارن أو من يمكنه تحديد أي الكتابين أوفى بكمال البيان وجزالة النظم ووفاء اللفظ ورعاية المقام وسهولة المنطق وغيرها، على إن دعواه هذه لم تكن خافية ولا بعيدة المنال عن الأمم والشعوب التي وصلها صوت القرآن المتحدي عبر أجيال متمادية ولم نسمع أن أحداً اعتذر بما اعتذر به أحمد القبانجي بعد ألف وأربعمائة وتزيد من عمر التحدي!

٣ – قال القبانجي: (.... إذا كان معنى المعجز كون العرب لا يستطيعون الإتيان بمثله في البلاغة، فنهج البلاغة للإمام علي (عليه السلام) كذلك، فالعلماء وأهل الأدب والبلاغة يصفون هذا الكتاب أنّه: «فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق» ومحل الشاهد هو الجملة الأولى، فلو فرضنا أن كلام الإمام علي (عليه السلام) فوق كلام البشر من جهة البلاغة، فيصح تسميته بالمعجزة على التعريف المذكور، ولم يبق فرق حينئذ بينه وبين القرآن من هذه الجهة إلاّ من حيث التحدي، أي أن الإمام لو كان قد تحدّى العرب على أن يأتوا بمثله لما استطاعوا، فثبت أن مجرد الإتيان بكتاب بليغ لا يستطيع الآخرون على الإتيان بمثله يمكن أن يصدر من البشر ولا يختص ذلك بالله تعالى. فاذا استطاع الإمام علي أن يأتي بكتاب أعجز جميع العرب أن يأتوا بمثله، فالنبي الذي هو أبلغ وأفصح من الإمام علي بإمكانه أن يأتي أيضاً بكتاب تعجز العرب جميعاً عن الإتيان بمثله. وبعبارة أخرى: أنّه كما

عجزت العرب عن الإتيان بمثل نهج البلاغة وهو كلام بشري، فكذلك عجزوا أيضاً عن الإتيان بكتاب مثل القرآن الذي جاء به محمد (صلى الله عليه وآله)، وعليه فما المانع من أن يكون هذا الكتاب، وهو القرآن، القرآن، كلام بشري أيضاً؟)[1].

أقول:

١- لا يوجد محذور من عد النهج الشريف معجزة عند التوسع في إطلاق اسم المعجزة شأنه شأن العديد من الوقائع الإعجازية التي حفظها لنا التأريخ عنهم (صلوات الله وسلامه عليهم) لاسيما وأنهم – والامام (عليه السلام) في مقدمتهم – كانوا امتداداً طبيعياً لمقام النبوة ومصداقاً واضحاً للسفارة الربانية. ومن هنا ليكن نهج البلاغة شاهداً إعجازياً على هذا المقام الكريم، وأين المحذور في ذلك؟

٢- ربما يقال: إن المحذور هو ما ذكره القبانجي في ذيل فقرته المتقدمة من عد النهج كلاماً بشرياً، فهو وإن كان بهذه الصفة إلا إنه معجز بالنهاية لاسيما مع توصيفه بأنه: (فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق)، إلا إن هذا أول الكلام فمن قال إن النهج كلام بشري بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة؟

---

(١) سر الإعجاز القرآني: – مصدر سابق.

إنه يمكننا القول إن كلماتهم (عليهم السلام) وأفعالهم العجيبة هي نتاج الإقدار الإلهي والتفضل الرباني تبعاً لمتطلبات الموقع الإلهي الذي هم (عليهم السلام) فيه بعد كون ذلك الاقدار والتفضل ضرورة لا مناص منها، إما لتحقيق مبدأ الأفضلية المطلوب لإكمال قاعدة: (قبح تقديم المفضول على الفاضل) و(قبح ترجيح أحد الطرفين المتساويين على الآخر، لأنه ترجيح بلا مرجح)، ومعلوم أن الأفضلية تعدّ شرطاً لازماً عند الإمامية. ومن هنا قيل: (كلام الإمام إمام الكلام)، إما لهذا أو لاحتياج مقام الإمامة له على مستوى إثبات أصل تحققها فيهم (عليهم السلام) والقيام بوظائفها وأداء مهماتها، وهذا كله يستلزم الاستعانة بالإمداد الالهي بشكل وآخر،تماماً كما هو الامر في معاجز الانبياء الراجعة إلى نفوسهم المقدسة بعد الاقدار الالهي والامداد الرباني ،وعلى ذلك ظاهر القرآن الكريم وفي آيات متعددة[1].

٣- سؤاله الأخير: (فما المانع من أن يكون هذا الكتاب، وهو القرآن، كلام بشري أيضاً؟) جوابه:

---

(١) ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ الرعد ٣٨، ﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ آل عمران ٤٩، ﴿فَأَوْحَينَا إِلَى موسى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ الشعراء ٦٣، ﴿و لسليمان الرِّيح عَاصِفَة تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا و كُنَّا بِكُلِّ شيء عَالِمِينَ﴾ الانبياء ٨١، وغير ذلك كثير.

الفرق بين عد النهج كلاماً بشرياً – إن قبلنا حرفية هذه الفكرة – وبين عد القرآن الكريم كلاماً إلهياً رغم اشتراكهما في تعجيز الآخرين عن الإتيان بمثلهما راجع إلى كون العجز المأخوذ في القرآن الكريم هو غيره في نهج البلاغة، ربما لكون بلاغة القرآن وفصاحته وأسلوبه الفريد قد تصاغر إلى جنبها كل كلام مهما كان بليغاً وفصيحاً، حتى حكم المنصفون من أهل الفن وسجلت التجربة عجز البشرية مهما أوتيت من قوة وقدرة على الإتيان بما ماثله أو قاربه، وهذا غير موجود في نهج البلاغة وكلمات الأئمة (عليهم السلام)، إذ إنها وبالرغم من فصاحتها وبلاغتها لم تبلغ حداً تصير معه معجزاً يشابه تماماً المعجز القرآني فصاحة وبلاغة وأسلوباً وتركيباً، وبالتالي لا يمكن عدها إلا تطوراً كمياً كمياً للكلام العربي بخلاف القرآن المجيد الذي يعد من هذه الناحية طفرة كيفية جعلته متميزاً عما سواه من فنون القول وأدب الكلام فلا هو بالشعر ولا هو بالنثر ولأي شيء آخر مألوف في الذاكرة العربية، بل هو قرآن وحسب، مضافاً إلى إن كثرة استماع كلماتهم (عليهم السلام) وتكرار مراودتها يجعل من تقليدها ومحاكاتها بنحو يقاربها أمراً ممكناً جداً، (قال عبد الحميد بن يحيى حفظت سبعين خطبة من خطب الأصلع فغاضت ثم فاضت وقال ابن نباتة حفظت من الخطابة كنزاً لا يزيده الإنفاق إلا سعة ،كثرة حفظت مائة فصل من مواعظ علي بن

أبي طالب)[١]، في تسجيل واضح لمديونية فصاحتهم لفصاحة أمير المؤمنين (عليه السلام)، وهذا كله لم يحدث للقرآن الكريم ولن يحدث، لذا ترى البحث السندي قائماً على أشده بين أعلام المدرسة الإمامية حتى في نفس خطب النهج الشريف مما يوحي بإمكانية اشتباه كلامهم (عليهم السلام) مع كلام غيرهم نحو تشابه ولو كان معجزاً بينا بما تحمله هذه الكلمة من معنى لكان التأمل في المتون الروائية يكفي للاطمئنان بصدورها عنهم (عليهم السلام) من عدمه، وهو غير موجود ألبتة.

ويمضي القبانجي قائلاً: (على فرض أن القرآن تحدى العرب بالبلاغة، إلاّ أن نظرة تاريخية سريعة للموقف في ذلك الزمان يشير إلى عدم تحقق الفرصة للمشركين للموافقة على هذا التحدي وقبوله، وحينئذ يبقى التحدي القرآني البلاغي مجرد شعار وأطروحة تفتقد الميدان العملي لترجمتها على أرض الواقع، المشركون عاشوا لمدة عشر سنوات (فترة وجودة النبي في مكة منذ الإعلان عن الدعوة إلى زمان الهجرة) لا يتصورون أن هذا الدين الجديد قد يبلغ به الخطر إلى أن يهدد وجودهم وكيانهم بين القبائل، فما هو إلاّ انحراف جزئي عن مسيرة قريش في عبادة الأوثان وسلوك شاذ لدى فئة قليلة من الفقراء

---

(١) شرح نهج البلاغة – ابن أبي الحديد: ج١، ص٢٤.

والعبيد يمكن معالجته بأدوات الارعاب والقهر والتعذيب. فلم يشعروا بالخطر الجدّي على دينهم وكيانهم حتى يهتموا للإتيان بكتاب نظير القرآن في البلاغة، وخاصة إذا علمنا أنّ أول آيات التحدّي نزلت في سورة الإسراء وهي من السور المكّية التي نزلت قبل الهجرة بسنة أو سنتين، وسائر آيات التحدّي نزلت في المدينة، ولما أحس المشركون بالخطر وهاجر النبي إلى المدينة انشغلوا بالحروب والقتال مع أنصار هذا الدين الجديد وكانت المواجهة بينهما قد أخذت طابعاً عسكرياً وميدانياً، والغلبة لمن يغلب خصمه في ميدان القتال لا في البلاغة، واستمر الحال على هذا المنوال عشر سنوات أخرى تقريباً حتى دخل المشركون وعلى رأسهم قريش في الإسلام جميعاً، وحينئذ أغلق باب التحدي عملياً، لأن أحد المسلمين مهما كان بليغاً لا يتجرأ على منازلة القرآن وقبول تحديه بل ولا يفكر في مثل هذا الأمر لأن مصالحه ستتعرض حتماً إلى الخطر، وأهون ما يصير إليه أن تضرب عنقه بتهمة الارتداد وتكذيب القرآن)[1].

أقول: كلامه هذا سطحي إلى حد بعيد ومخالف لضرورة النقل التاريخي والحدث القرآني وطبائع الأشياء لأن:

---

(١) سر الإعجاز القرآني: ص٦٢.

١- القرآن الكريم يتحدى بالإعجاز تصريحاً أو تلميحاً في آيات كثيرة مكية ومدنية بيد أن أوضحها:

(قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أنْ يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً)(١).

(أم يقولون افتراه قل فأْتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إنْ كنتم صادقين)(٢).

(أَم يَقُولُونَ تَقَوَّلَه ۚ بل لَّا يُؤْمنُونَ ، فَلْيَأْتُوا بحَديث مِّثْله إِن كَانُوا صَادقينَ)(٣).

(وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدنَا فَأْتُوا بسُورَةٍ مِّن مِّثْله وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادقينَ)(٤).

(فَإِن لم تفْعلُواْ ولَن تفْعلُواْ فَٱتقُواْ ٱلنَّار ٱلَّتِي وقُودهَا ٱلنَّاس وٱلْحجَارَةُ أُعدَّتْ للْكَفرِينَ)(١).

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٨٨.

(٢) سورة هود: الآية ١٣.

(٣) سورة الطور: الآية ٣٤.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٣.

واللافت أن جميع هذه الآيات مكية باستثناء الأخيرة لا كما عكس أخونا القبانجي!!

نعم قال ابن كثير في تفسير الآية الأولى: (... وقد روى محمد بن إسحاق عن محمد بن أبي محمد، عن سعيد بن جبير أو عكرمة، عن ابن عباس: إن هذه الآية نزلت في نفر من اليهود، جاءوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقالوا له: إنا نأتيك بمثل ما جئتنا به، فأنزلالله هذه الآية).

وعقب على ذلك قائلاً: (... وفي هذا نظر؛ لأن هذه السورة مكية، وسياقها كله مع قريش، واليهود إنما اجتمعوا به في المدينة...)[٢].

وينبغي الالتفات إلى إن الرواية الأخرى عن ابن عباس تؤكد نزولها في مكة شأنها شأن هود والطور كما عليه الجمهور

على إنه يمكن الجمع بين القولين بأحد وجهين:

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٣-٢٤ / يقول القطب الراوندي: (وأما الذي يدل على أنه صلى الله عليه وآله تحدى بالقرآن فهو أن معنى قولنا إنه تحدى: أنه كان يدعي أنالله تعالى خصه بهذا بهذا القرآن وإنبائه به، وأن جبرئيل عليه السلام أتاه به، وذلك معلوم ضرورة لا يمكن لاحد دفعه، وهذا غاية التحدي في المعنى (بحار الأنوار ج ٨٩، ص١٢٣).

(٢) تفسير ابن كثير: ج٣، ص٦٦.

أ- القول بتكرار نزولها في المدينة بعد أن نزلت ابتداء في مكة وكم لهذا نظير في القرآن الكريم.

ب- إن رواية ابن عباس ليس فيها إلا إن نفراً من اليهود جاءوا رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقالوا ما قالوا لكن لا دلالة في ذلك على إن مجيئهم كان في المدينة بل ربما كان لقاؤهم به (صلى الله عليه وآله) في مكة بعد أن كانت مبررات هذا اللقاء معقولة جداً لاسيما وإن حدث ظهور نبي جديد يدعي ختم النبوة ويقيم الشواهد والأدلة على عالمية رسالته يعد أمراً محفزاً لكل مهتم، لأن يبحث في حقيقة دعواه والوقوف على صدق مدعاه فضلاً عن أن كل الدلائل عندهم كانت تشير إلى قرب مجيئ نبي موعود والقرآن الكريم نفسه أعلن ذلك واحتج عليهم في آيات كثيرة.

٢- إن طبائع الأشياء تقتضي أن يكون التحدي صادر منذ أوائل الدعوة الشريفة، لأن الأمر المقطوع هو إن اول سؤال سيواجهه النبي (صلى الله عليه وآله) هو ما هو دليلك على ارتباطك بالسماء؟

لذا فإن تأخير إعلان التحدي القرآني كل هذه السنين غير منطقي تماماً أولاً وسيفتح الباب على مصراعيه ثانياً للتشكيك والطعن في حقانية الدين الجديد، لأن تأخره سيعني الهزيمة عملياً في ميدان مباراة الخصوم لا لشيء إلا لأن صاحب دعوة النبوة تأخر – بلا مبرر

موضوعي- سنين عدداً في إعلان دليل نبوته القوي ولما أعلنه لم يدع لنا مجالاً كافياً للرد عليه بل فر من بلدتنا تحت جنح ظلام الليل فتحول من المحاججة الفكرية إلى القوة العسكرية فهل يسلكن أحد المسلك الذي ابتدعه أخونا القبانجي ويقول بتأخر التحدي إلى ما يقارب سنة أو سنتين قبل الهجرة وأمام ناظريه عشرات السور المكية التي تشكل غالبية القرآن الكريم؟ وأن النبي (صلى الله عليه وآله) تأخر كل هذه الفترة، ثم فجأة أعلن التحدي ولم يترك لمناوئيه مساحة زمنية من أجل الرد؟

كل هذا على تقدير حدوثه يعني في ما يعنيه ضعف الحجة وخواء البرهان عند من يدعي الارتباط بغيب السماء، ولا يحتمل عاقل أن محمداً (صلى الله عليه وآله) النابه الذكي غابت عنه كل هذه الآثار الباطلة، أو أن الأمر مر من دون أن يثير حفيظة أحد صديقاً كان أو عدواً فيشكل ويستفهم عن سبب تأخر التحدي كل هذه السنين - رغم إنه رأس مال الرسالة وحجر زاوية النبوة - وعن ادعاء الكفار إنهم لم يعطوا المجال الكافي للمجابهة والرد ولو أعطوا لفعلوا، ومن الطبيعي إن هذه الملابسات لو وقعت لوصلت الينا قطعاً لكثرة دواعي نقلها بين الأصدقاء والأعداء وهو واضح بأدنى تأمل (لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد).

٣- أمر التحدي لم يكن مقصوراً على عرب مكة حتى يعتذر القبانجي لهم بما اعتذر به، بل هو شامل ابتداء وبدرجة أساسية جميع سكان الجزيرة العربية ممن يعرف للعربية لوناً أو طعماً أو رائحة فما مبرر سكوت هؤلاء عن رد التحدي غير العجز؟

وقد كان بإمكانهم التنصل عن الظهور بمظهر العجز هذا بالقول إننا لا نجد في أنفسنا مقومات الإتيان بمثل القرآن الكريم لو كانوا فعلاً غير واجدين لشرائط البلاغة والفصاحة.

٤- لو كان الأمر كما صوره القبانجي لاعترضوا على النبي (صلى الله عليه وآله) وقالوا: إنك لم تعطنا مساحة زمنية معتد بها للرد، ولا تخذوا ذلك ذريعة ما بعدها ذريعة لإسقاط القرآن الكريم من الاعتبار، ولأوجب ذلك تشويش ذهنية القواعد المؤمنة بربانية الرسالة الإسلامية، مما يعني لابدية السؤال والاستفهام حول حقيقة الحال ولو كان هذا لسجله القرآن ولرد عليهم مقولتهم هذه تماماً كما فعل مع مقولاتهم الأخرى التي لا تقاس أهميتها بهذه الشبه المفترضة ولتواتر الأمر لكثرة دواعي نقله.

٥- معلوم أن النبي (صلى الله عليه وآله) انتقل إلى المدينة وأصبح على تماس مباشر مع أهل الكتاب وهم مشمولون بالتحدي حالهم حال غيرهم وإحدى آيات التحدي قد نزلت في المدينة وهي قوله تعالى:

(وإن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ، فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ)[1].

والثابت تاريخياً وسجله القرآن أيضاً، أنهم كانوا شديدي الخصومة للإسلام وكثيراً ما كانوا يطرحون الإشكالات التي تطال صميم القضايا الإسلامية الأساسية وهذا واضح من تتبع السلوك اليهودي مع الدين الجديد وبعض حوادث نصارى نجران وقد كان بوسعهم طرح ما يماثل القرآن الكريم – وفيهم الفصحاء والخطباء والشعراء – لو كانوا يقدرون ولو بصيغة سؤال أو استفهام على النبي (صلى الله عليه وآله) نفسه أو على أحد أتباعه كما جرت عادتهم على ذلك أو إعلان المماثل المزعوم من دون نسبة لأحد، شأنه شأن الإشعار التي كانت تنال من طواغيت السلطة وحكامها من دون أن تنسب لأحد على وجه التحديد لو كانوا يخشون التبعات المزعومة.

ولو أصر مشكك على عدم إمكان طرحهم هذا الأمر خوفاً من ردة الفعل غير المحمودة – رغم إن التأريخ يشهد أنهم كانوا يشككون في مسلّمات الدين ومتبنياته وكثيراً ما دخلوا في محاججات دينية مع النبي

---

(١) سورة البقرة: الآية ص٢٣-٢٤.

(صلى الله عليه وآله) وأتباعه – فيمكن القول: كان بمقدورهم فعل ذلك ذلك في مجاميعهم الخاصة وأوساطهم المغلقة لاسيما وأنهم معنيون بهذا الأمر، لا أقل من جهة تحصين أتباعهم ودفع الشبه عن ضعافهم والإجابة عن مستشكلهم وهي أمور تكثر وتشدد في أجواء مشابهة لأجواء الدعوة الإسلامية.

وغني عن البيان أنهم لو فعلوا ذلك لتحفظوا عليه تحفظ المنتصر على حجته والمدعي على بينته ولتناقلوه جيلاً بعد جيل، على أن بعضهم كاليهود حكم النبي (صلى الله عليه وآله) عليهم بالجلاء فحلوا أماكن لا يد للنبي (صلى الله عليه وآله) فيها ولا سلطة له عليها، وكان بإمكانهم إظهار الرد لو وجد أو انشاؤه لو استطاعوا أو تسليمه لأعدائه الألدّاء على أضعف الإيمان، كل ذلك انتقاماً ممن يرونه فعل بهم ما فعل بدلا من الاكتفاء بهجاء النبي (صلى الله عليه وآله) وندبة الحظ العاثر الذي جر عليهم ما جر.

٦- إن المتتبع لحال العرب في الجزيرة خصوصاً سيجد أنهم أشد الناس تفاخراً بالأحساب والأنساب، وتمسكا بمآثر الآباء والأجداد، معروفين بالأنفة والحمية، محكومين بالعصبية، يأبون الخضوع والانقياد، والرضا بالذل والهوان، وهذا كله يشكل دافعاً رئيسياً وباعثاً قوياً لهم للردّ على تحدي المدعي وإسقاط حجته وهو الذي تحداهم في أبرع كمالاتهم، وأظهر ميزاتهم، فما بالهم غضوا الطرف عن إجابة تحديه

وهم يعلمون أن في الإجابة خلود الذكر وعلو الصيت وارتفاع الشأن شَأْواً بعيداً؟!

فإذا أضفنا إلى ذلك التعصب الطبيعي المحكوم به أتباع الأديان وحميتهم في الذود عن حياضه على امتداد الأجيال عرفنا أن السعي لمجابهة المتجاهر بتنقيص الآلهة وتسفيه الدين والاصحار بمعاداة افكاره، ورد دعواه أمر طبيعي جداً تقتضيه طبائع الأشياء والأحداث المشابهة.

وهكذا يصبح الأمر أكثر وضوحاً حين نعرف أن هذا الدين قد فرق فرق بين المرء وزوجه والأب وابنه والأخ وأخيه وبقي يشكل تحدياً لأعدائه من العرب وهاجساً مؤرقاً لهم على طول الخط، وهم يرونه يزداد اتساعاً وانتشاراً وقوة واستحكاماً، حتى دخل بيوتهم وأفسد عليهم أهلهم وذويهم حتى بعد هجرة النبي (صلى الله عليه وآله) وانتقاله وانتقاله إلى محله الجديد، وغني عن البيان بل لو لم يكن في البين إلا أن نلحظ التنافس التاريخي بين أحياء قريش وبطونها والذي كان على أشده ولأجيال متواصلة فقد علم كل من سبر غور التواريخ بأن فرع هاشم كانوا متميزين على البقية غاية التمييز فكراً وسلوكاً مما جعلهم محل احترام القبائل والملوك وهذا كله أوجب أن تحسدهم غالبية الفروع الأخرى وهو أمر يكاد يكون في مصاف البديهيات في ظل مجتمع قبلي رأس ماله التفاخر وحب التميز والجاه والسمعة في فكرهم وسلوكهم .

وقد سأل «الأخنس بن شريق» - وهو من أعداء رسول الله - أبا جهل يوماً: (يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من «محمد»؟

فقال: ماذا سمعت، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا حتى إذا تجاذبنا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منّا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى تدركُ مثل هذه، والله لا نؤمن به أبداً ولا تصدّقه)[1].

أقول: لو لم يكن إلا هذا العامل لكان بحد ذاته باعثاً لهم للتصدي لهذا الدين ومحاولة تفنيده وتحجيمه من أول لحظة ممكنة وبأي وسيلة متاحة.

٧- كيف يفسر أحمد القبانجي حصار شعب أبي طالب؟ وملاحقة الهاربين بدينهم إلى الحبشة والسعي لاسترجاعهم بشتى الوسائل والحيل؟

والإغراءات التي عرضوها على النبي (صلى الله عليه وآله) لحثه على ترك دعواه؟

---

(١) سيرة ابن إسحاق: ج٤، ص١٧٠.

(ودُّوا لَو تُدْهِنُ فيُدْهِنُونَ)[١].

قالوا (...كان «عتبة بن ربيعة» من كبراء قريش وأشرافها، ويوم أسلم «حمزة» وأصبح أصحاب رسول الله يزيدون ويكثرون اغتمت قريش كلّها، وخشي زعماء المشركين أن ينتشر الإسلام أكثر من هذا فقال عتبة وهو جالس في نادي قريش يوماً، ورسول الله (صلّى الله عليه وآله) جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى «محمد» فأكلّمه وأعرض عليه أُموراً لعلّه يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟

فقالوا: بلى يا أبا الوليد قم إليه فكلّمه.

فقام إليه «عتبة» حتى جلس إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله)، فقال: يا ابن أخي إنك منّا حيث ما قد علمت من الشرف في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم، ودينهم، وكفّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أُعرض عليك أُموراً تنظر فيها لعلّك تقبل منها بعضها، فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله): قل يا أبا الوليد اسمع.

---

(١) سورة القلم: الآية ٩.

قال: يا ابن أخي إن كنت إنّما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريدَ به ملكاً ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً (وهو ما يتراءى للناس من الجن) تراه لا تستطيع ردَه عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذَلنا فيه أموالنا حتى نَبرئك منه فإنه ربّما غلب التابع على الرجل حتى يداوي منه، حتى إذا فرغ «عتبة»، ورسول الله (صلّى الله عليه وآله) يستمع منه قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم قال: فاسمع مني، قال: أفعل، قال:

(بسم الله الرحمنِ الرحيم. حم. تنزيل من الرحمنِ الرحيم. كتاب فُصّلت آياتَه قرآناً عربياً لقوم يعلمون. بشيراً ونذيراً فأعرض اكثرهم فهَم لا يسمعون. وقالُوا قُلُوبنا في أكنّة ممّا تدعونا إليه).

ثم مضى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه «عتبة» أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه وبقي على هذا مدة من الزمن صامتاً وكأنه قد سُلب قدرة النطق، ثم انتهى رسول الله (صلّى الله عليه وآله) إلى السجدة فَسجد ثم قال:

«قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك فقام «عتبة» إلى أصحابه وقد تغيرت ملامحه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به!! فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟

قال: ورائي إني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله هذا الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبهُ العرب فقد كفيتموه بغيركم، وأن يظهر على العرب فملكه ملكُكُم، وعزه عزّكم، وكنتم أسعد الناس به.

فانزعجت قريش من مقالة «عتبة» هذا وسخرت به وقالت: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه!!

قال: هذا رأيي، فاصنعوا ما بدا لكم)[1].

ولما فشلت تلك المحاولات قرروا تصفيته (صلى الله عليه وآله) جسدياً؟

---

(١) سيد المرسلين – الشيخ جعفر سبحاني: ج١، ص٤٣٠.

(وإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أو يقْتلُوكَ أو يُخْرِجُوكَ ويَمْكُرُونَ ويَمْكُرُ اللَّهُ واللَّهُ خَيرُ الْماكِرِينَ)[١].

وماذا عن سفراتهم – الدينية – المتكررة تارة إلى يهود المدينة وأخرى إلى نصارى نجران وثالثة إلى الحيرة ورابعة إلى فارس طلباً لتعلّم أساطير رستم واسفنديار سعيا لمحاولة الرد على ما جاء به النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله)؟

وبماذا يجيب عن جدالاتهم المستمرة ومطاليبهم المستحيلة واستفهاماتهم المتكررة ومحاججاتهم العقيمة التي سجلها القرآن الكريم نفسه عن أكابرهم وطلائع مجتمعهم؟؟

(سيقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَو شَاء اللَّهُ ما أَشْرَكْنَا ولَا آباؤُنَا ولَا حرَّمنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حتَّى ذَاقُوا بأْسنَا قُل هَل عِنْدَكُم مِّنْ عِلْمٍ فتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وإِنْ أَنتُم إِلَّا تَخْرصونَ}[٢]، وقوله تعالى: {وقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حياتنَا الدُّنيا نَمُوت ونَحْيا ونَحْيا وما يهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْر وما لَهُم بِذَلِكَ مِن عِلْمٍ إِنْ هُم إِلَّا يظُنُّونَ،

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٣٠.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٤٨.

وَإِذَا تتلَى عَلَيْهِمْ آيَاتنَا بيِّنَات مَّا كَانَ حُجَّتهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا ائتُوا بآبَائنَا إِن كُنتُمْ صَادقِينَ}[١].

(وقَالُوا لَن نؤْمنَ لَكَ حتَّى تفْجر لَنَا منَ الْأَرْضِ ينْبوعاً ، أَو تَكُونَ لَكَ جنَّةٌ منْ نَخيلٍ وعنَبٍ فَتفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خلَالَهَا تفْجيراً ، أَو تُسْقطَ السَّماءَ كَمَا زعمتَ علَينَا كسفاً أَو تَأْتي باللَّه والْملَائكَة قَبيلًا ، أَو يكُونَ يكُونَ لَكَ بيتٌ منْ زخْرُفٍ أو ترقَى في السَّماءِ ولَن نؤْمنَ لرقيكَ حتَّى تنزِّلَ علَينَا كتَاباً نَقْرؤه قُلْ سبحانَ ربِّي هل كُنْتُ إِلَّا بشَراً رسُولًا }[٢].

(ولَو أَننَا نزَّلْنَا إِلَيْهمُ الْملَائكَةَ وكَلَّمهمُ الْموتَى وحشَرنَا علَيْهمْ كُلَّ شَيْءٍ قبلاً مَّا كَانُوا ليؤْمنُوا إلا أَن يشَاء الله ولَكنَّ أَكْثرهم يجْهلُونَ}[٣]، يَجهلُونَ}[٣]، وقوله: (ومَا منعنَا أَن نرْسلَ بالآيَات إلا أَن كَذَّبَ بهَا الأولُونَ وءاتينَا ثَمُود النَّاقَةَ مُبْصرَةً فَظَلَمُوا بهَا ومَا نرْسلُ بالآيَات إِلا تَخْويفاً)[٤].

---

(١) سورة الجاثية: الآية ٢٥.

(٢) سورة الإسراء: الآيات ٩٠-٩٢.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١١١.

(٤) سورة الإسراء: الآية ٥٩.

(وَعَجِبُوا أَن جاءهم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ، أَجعل الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيء عجاب ، وانطَلَق الْمَلأُ مِنهُمْ أَن أَن امشوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيء يراد ، ما سَمِعْنَا بِهَذَا فِي فِي الْمِلَّة الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ)[1].

لاحظ مبلغ اهتمام – الملأ – بشؤون الدعوة والتصدي لها.

وبماذا يعلّق على حيرتهم في تحديد مصدر استقاء النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) كلامه؟؟

فتارة معلم مجنون وتارة شاعر وثالثة كاهن ورابعة ساحر وووووالخ.

(كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً، سَأُرْهِقُهُ صعوداً، إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّر،فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّر، ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّر، ثُمَّ نَظَر، ثُمَّ عَبَس وبسر، ثُمَّ أَدْبَرَ واستَكْبر،فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يؤثر، إِنْ هذَا إِلَّا قولُ الْبشَر)[2].

{وَعَجِبُوا أَنْ جَاءهم مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ}[3].

---

(١) سورة ص: الآيات ٤-٦.

(٢) سورة المدثر: الآيات ١٦- ٢٥.

(٣) سورة ص: الآية ٤.

{وقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءهم إِنْ هذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ}[١].

ذكروا إن الوليد بن المغيرة أتى إلى الحجر حيث كان يجلس النبيُّ، ويتلو القرآن، فقال: يا محمد أنشدني شعرك.

فقال النبيُّ (صلّى الله عليه وآله): ما هو بشعر، ولكنّه كلام الله الذي به بعث أنبياءه ورسله.

فقال: اُتل علي منه، فقرأ عليه رسول الله: (بسم الله الرحمن الرحيم) فلما سمع: الرحمن، استهزأ فقال: تدعو إلى رجل باليمامة يسمى بالرحمان؟ قال. لا، ولكني أدعو إلى الله وهو الرحمن الرحيم ثم افتتح سورة «حم السجدة» فلما بلغ إلى قوله تعالى: (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ)، وسمعه الوليد، فاقشعر جلده، وقامت كل شَعرةَ في رأسهَ وَلحيتهً، ثم قام ومضى إلى بيته ولم يرجع إلى قريش.

فقالت قريش: يا ابا الحكم صبا ابو عبد شمس إلى دين محمد، أما تراه لم يرجع إلينا وقد قبل قوله، ومضى إلى منزله.

---

(١) سورة سبأ: الآية ٤٣.

فاغتمت قريش من ذلك غماً شديداً وغدا عليه أبو جهل فقال: يا عم نكّست رؤوسنا وفضحتنا.

قال: وما ذاك يا ابن أخي؟

قال: صبوت إلى دين محمد.

قال: ما صبوت وإني على دين قومي وآبائي، ولكني سمعت كلاماً صعباً.

تقشعر منه الجلود فقال أبو جهل: أشعر هو؟

قال: ما هو بشعر.

قال: فخطب هي؟

قال: لا وإن الخطب كلام متصل، وهذا كلام منثور، لا يشبه بعضه بعضاً، له طلاوة.

قال: فكأنه هي؟

قال: لا.

قال: فما هو؟

قال: دعني أفكر فيه.

فلما كان من الغد، قالوا: يا أبا عبد شمس ما تقول؟ قال: قولوا: هو سحر فانه أخذ بقلوب الناس فأنزل الله سبحانه فيه: (ذرني ومن خلقت خلقت وحيداً. وجعلت له مالاً ممدوداً. وبنين شهوداً... إنّهُ فَكّر وقَدّر * فقُتل كَيف قَدّر * ثُمّ قُتل كَيف قَدّر * ثُمّ نظَر * ثُمّ عبَس وبسر * ثُمّ أَدبرَ واستَكْبر * فقَالَ إِنْ هـذَآ إِلاّ سِحْرٌ يـؤثر * إِنْ هـذَآ إِلاّ قـولُ الْبشَرِ)[1].

لاحظ إن هذا الرجل وهو هو في البلاغة والفصاحة يصف القرآن الكريم بالسحر في إشارة صارخة إلى كونه خارجاً عن المألوف خروج السحر عن الفعل الطبيعي وأخونا أحمد القبانجي يقول: (على فرض أن تكون الآيات أقوى على مستوى البلاغة والفصاحة، فإن هذا الامتياز للآيات لا يكون بشكل فاضح وسافر بحيث يمكن أن يعدّ معجزة، ومن مقومات الإعجاز أن يكون بشكل سافر إلى درجة لا يمكن قياسه ومقارنته بفعل البشر)!!!

---

(١) التفسير الصافي: ج٧، ص٣٣٦- مناقب آل أبي طالب: ج١، ص٥٣.

وكيف يجد لنا تفسيراً معقولاً لمحاولات قريش المحمومة للحيلولة دون وصول صوت القرآن الكريم إلى وفود القبائل القادمة إلى مكة للحج وغيره وتأثرهم به؟

والشواهد كثيرة يطول المقام بسردها وفي ما مر كفاية.

٨- المعروف إن المشركين اتهموا النبي (صلى الله عليه وآله) بتعاطي الشعر ووصفوا ما يأتي به بأنه لا يعدو أن يكون شعراً والقرآن الكريم نفسه سجل هذا الاتهام في آيات متعددة:

(بل قَالُوٓاْ أَضۡغَاثُ أَحۡلَامِۭ بلِ ٱفۡتَرَاهُ بل هو شَاعِرٞ فلۡيَأۡتنَا بآيَة كَمَآ أُرۡسلَ ٱلۡأَوَّلُونَ)[1].

(ويقَولُونَ أَئنَّا لَتَارِكُوٓاْ آلهَتنَا لشَاعِرٖ مَّجۡنُونٖ)[2].

(أَمۡ يقَولُونَ شَاعِرٞ نَّتَربَّص به ريب ٱلۡمَنُونِ)[3].

(وما هو بقَوۡلِ شَاعِرٖ قَليلاً مَّا تؤۡمنُونَ)[1].

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٥.

(٢) سورة الصافات: الآية ٣٦.

(٣) سورة الطور: الآية ٣٠.

وقد سجل القرآن أيضاً ادعائهم القدرة على الإتيان بمثله:

(وَإِذَا تتلَى عَلَيْهِمْ آياتنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَو نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هذَا إِنْ هذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَولِين)[٢].

وهذا يثبت أمرين:

الأول: إنهم قادرون على الإتيان بمثل القرآن الكريم، لأنه بزعمهم ينتمي إلى الصناعة الشعرية ربما تعويلاً على تضمن القرآن الكريم نتفاً من الكلام الموزون الذي يمكن أن يطابق البحور الشعرية المعروفة.

الثاني: إن المساحة الزمنية للإتيان به كافية وهم لا يشكون من ضيقها، لأنهم لم يدعوا ذلك لا تصريحاً ولا تلميحاً أولاً، ولأن الأمر مادام متعلقاً بالشعر فهو مقدور لهم ولا يحتاج الأمر إلا فترة زمنية قصيرة نسبية للقيام بهذه المهمة لاسيما وأن المطلوب منهم ما يضاهي سورة قصيرة تعدل سطراً واحداً أو بضع أسطر على أبعد تقدير

ومن البين إن الحكاية القرآنية هذه حجة حتى على من لم يؤمن بربانية القرآن الكريم بعد كون تلك الاتهامات سجلها النص القرآني

---

(١) سورة الحاقة: الآية ٤١.

(٢) سورة الأنفال: الآية ١٣.

وأعلنها نبي الإسلام (صلى الله عليه وآله) عليهم ولم يتصد أحد إلى رده رده أو تكذيبه، وبذا يظهر لك رصيد القول: (أن نظرة تاريخية سريعة للموقف في ذلك الزمان يشير إلى عدم تحقق الفرصة للمشركين للموافقة على هذا التحدي وقبوله)[١] في سوق الواقع والموضوعية فإنه مخالف لمعطيات التاريخ ومجاري الأمور فضلاً عن أن نفس سكوتهم عن التعليق على التحدي مع وجود الداعي للرد لا يبرر إلا بالعجز عنه، ولا نعرف لِمَ يرفض المشركون هذا العرض الذي يعود عليهم بفوائد جمة رغم سَهولة المطلب وهم المعروفون بطول الممارسة للخطب والأشعار، وكثرة المزاولة لأساليب النظم والنثر، والمبالغة في حفظ الوقائع والأيام؛ ولا ريب في أن القدرة على الشيء من موجبات الإتيان به ودواعي الأمر بذلك؟![٢]

٩- كان القرآن الكريم يمثل هاجساً مرعباً لفراعنة قريش وصناديد الشرك حتى بعد الهجرة الشريفة لأنه لازال يؤثر أثره الكبير في نفوس أهل مكة وغيرها ومن مختلف الطبقات فيقود الكثير منهم إلى الهجرة والدخول في الإسلام، ومعلوم أن دعوة الإسلام بمجموعها تتكأ على إعجاز القرآن ولو استطاع أحد مجاراته وإجابة تحديه لضرب الإسلام

---

(١) سر الإعجاز القرآني: ص٦٢.

(٢) تفسير الآلوسي: مجلد ٢٧، ص٣٧.

في مقتل ولأدخل الشبهة على اتباعه لاسيما ضعاف الإيمان، وهكذا مرضى القلوب ومن مردوا على النفاق، وهذا كله يؤدي لا محالة إلى تشويش بالغ الأثر وسط المجتمع الإسلامي الفتي، ولا يظن عاقل أن كفار العرب ومردة أهل الكتاب ومتعاطي النفاق غابت عنهم هذه الأفكار الشيطانية فلم يعملوا على تأجيجها وتفعيلها اكتفاء منهم بحرب عسكرية تؤكد جميع المعطيات الموضوعية أن نصيبهم منها الخسارة لا محالة.

١٠- إن من كانت له أدنى إلمامة بالمعارف الإسلامية والقيم الدينية التي جاء بها النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) وتذوق الجاذبية القرآنية القرآنية التي حيرت الألباب وادهشت العقول، ثم رمى ببصره تلقاء البيئة العربية الجدباء من كل ما يتصل بالدين والعلم، المبتلاة بفوضى الشرك وتعدد الديانات، غير المحكومة بأي نظام سياسي ذي قيمة يقطع يقطع أن الدعوة الإسلامية سيكون لها شأن عظيم يهتز لها واقع تلك البيئة اهتزازا عنيفا، وهو ما كان يحدسه الكثير من مشركي قريش وغيرهم وقد تقدم قول بعضهم مخاطباً قومه: (قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله هذا الذي سمعت منه نبأ عظيم، فان

تصبهُ العرب فقد كفيتموه بغيركم، وأن يظهر على العرب فملكه ملَكُكُم، وعزه عزّكم، وكنتم أسعد الناس به...).

وفحوى هذه النقطة سجلها القرآن الكريم في بعض آياته.

(وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرماً آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون)[1].

وهذا يوحي بأنهم كانوا يستشعرون عظمة ما أتى به النبي الكريم (صلى الله عليه وآله) وثقله على قبائل العرب الأمر الذي يؤدي إلى أن (نتخطف من أرضنا)، وهذا وحده كاف لأن يكون داعياً لهم للاهتمام بدعوة النبي (صلى الله عليه وآله) ومحاولة إخمادها بأي وسيلة كانت وأسهلها عليهم معارضة القرآن الكريم ففيه إسقاط حجة من أتى به والقضاء على مدعاه ولو فعلوا لتفرق عنه الكثير من أصحابه وأتباعه، ومن هنا تعرف قيمة قول القبانجي: (فلم يشعروا بالخطر الجدّي على دينهم وكيانهم حتى يهتموا للإتيان بكتاب نظير القرآن في البلاغة)![2].

---

(١) سورة القصص: الآية ٥٧.

(٢) سر الإعجاز القرآني: – مصدر سابق.

١١- وكان الكثير من الأشراف قد أسلموا وعلى رأسهم جملة من بني هاشم والمطلب وهكذا (.. سلمة بن هشام بن المغيرة، والوليد بن الوليد بن المغيرة، وعياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص السهمي، وخالد بن سعيد بن العاص، ومصعب بن عمير.....الخ) [(١)]، نعم بعضهم فتنته قريش بأساليبها المتنوعة فارتد عن دينه إلا إن الكلام ليس في هذا بل في كون أثر الدعوة طال البيوتات الشريفة ولم يكن مقتصراً على (فئة قليلة من الفقراء والعبيد) كما يحاول القبانجي أن يصوره.

١٢- أما تقيم الدين الجديد عند المشركين على أساس إنهم: (لا يتصورون أن هذا الدين الجديد قد يبلغ به الخطر إلى أن يهدد وجودهم وكيانهم بين القبائل فما هو إلاّ انحراف جزئي عن مسيرة قريش في عبادة الأوثان وسلوك شاذ لدى فئة قليلة من الفقراء والعبيد يمكن معالجته بأدوات الإرعاب والقهر والتعذيب...الخ).

فهو ليس دقيقاً وقد تقدمت أجوبة كثيرة له أحدها أن القرآن الكريم - وهو أصدق وثيقة تاريخية حتى لو جردناها عن ربانيتها - قد حكى تقيمهم لطبيعة هذا الدين ومردوداته عليهم أن هم تبنوه بالقول: ((وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرماً

---

(١) لاحظ على سبيل المثال: المعجم الكبير للطبراني باب السين - من اسمه سلمه.

آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون)[١].

والقول إن المشركين كانوا ينظرون إلى هذا الدين على أساس أنه انحراف جزئي عن مسيرة قريش في عبادة الأوثان محض ادعاء لا شاهد عليه، وتكذبه نظرة واحدة إلى طبيعة المفاهيم القرآنية وتناقضها مع مفاهيمهم الدينية والعملية بما لا يقاس أصلاً، بحيث يشعر كل مقارن أن الدين الجديد يمثل طفرة عظيمة في مختلف المجالات، ولا يحتمل عاقل غياب هذا الأمر عن المشركين، وكيف يغيب عنهم وثلاثة أرباع القرآن نزل بين ظهرانيهم في مكة؟

١٣- إننا اتفقنا مع أحمد القبانجي في شيء واختلفنا في شيء آخر، فقد اتفقنا في أصل التحدي القرآني واختلفنا في نوعه، وهل هو الوجوه الإعجازية المتعارفة أو خصوص الإعجاز الوجداني الذي يتبناه القبانجي؟

ومن هنا فما حاول أحمد القباجي إثارته على الوجوه الإعجازية التقليدية يأتي على إعجازه الوجداني، لأنه يصدق وبحسب ادعاءه (على فرض أن القرآن تحدى العرب...، إلاّ أن نظرة تاريخية سريعة للموقف في ذلك الزمان يشير إلى عدم تحقق الفرصة للمشركين للموافقة على

---

(١) سورة القصص: الآية ٥٧.

هـذا التحـدي وقبولـه، وحينئـذ يبقـى التحـدي القـرآني... مجـرد شـعار وأطروحة تفتقد الميدان العملي لترجمتها على أرض الواقع...الخ).

فكيف يتخلص من هذا الإشكال؟

يقول أحمد القبانجي[1]: (... لماذا لا يمكن القول – مع تفريغ الذهن من المسبوقات العقائدية – أن نهج البلاغة في بعض موارده أبلغ من بعض آيات القرآن، فمع مقارنة بسيطة بين بعض الآيات من القرآن الكريم وفقرات من نهج البلاغة يتضح هذا المعنى جلياً وعلى سبيل المثال نختار من «نهج البلاغة».....الخ).

ثم اختار ثلاث فقرات من نهج البلاغة يتعلق أحدها بالخلافة من خطبة الأمير (عليه السلام) المعروفة بالشقشقية وثانيها بالموعظة وثالثها من دعاء الصباح وجعلها في قبال سورتي الإيلاف والنصر وعقب بعدها وبلغة فتوائية جازمة:

(... فمع مقارنة سريعة بين الطائفتين من المقاطع الأدبية والبلاغية يتضح لنا جلّي الحال وأن الإعجاز البلاغي للقرآن ليس سوى ادعاء فارغ يتشبث به من لم يعِ حقيقته ويتحركون في إثبات أرجحية الآيات

---

(١) سر الإعجاز القرآني: ص٤٩.

المذكورة على مقاطع نهج البلاغة من موقع التعصب والحساسية المذهبية، ولكن لو تقدمنا في مسألة التحكيم بين هذه النصوص إلى غير المسلمين من الأدباء العرب مثل: جرجي زيدان، جورج جرداق، جبران خليل جبران (رحمهم الله) والذين لا يخفى على كل باحث فضلهم فضلهم وأثرهم المشكور على الثقافة العربية والإسلامية، فماذا تتصورون نتيجة التحكيم؟) ص٥٠- ٥١.

ويضيف في ص٥٢ قائلاً: (... على فرض أن عبارات نهج البلاغة وكلمات النبي(صلى الله عليه وآله) وأهل بيته المعصومين (عليهم السلام) لا تناظر القرآن الكريم في بلاغته، ولكننا نفتقد إلى الميزان الذي نزن بلاغة الكتب والقصائد الأدبية المعاصرة للقرآن، ومن ثم إجراء مقايسة بينها وبين القرآن، لأن الأدباء الذين يفترض كونهم حكماً في مثل هذه المقارنة الأدبية إن كانوا من غير المسلمين لم تسمع حجتهم فيما لو حكموا لصالح تلك الكتب والقصائد الشعرية، وإن كانوا من المسلمين فعقيدتهم تفترض عليهم التحيز لصالح القرآن وتبرير كل ما يوهم ضعفاً بلاغياً بتخريجات وذرائع مختلفة ليحفظوا للقرآن تفوقه البلاغي كما هو المشاهد في منهج العلماء والمفسرين في عملية المقارنة بين القرآن وبين غيره من الكتب،...

وعلى أية حال نحن أمام اشكالية معيارية خاصة في هذه المقارنة، لأن هؤلاء المحكّمين يعتبرون القرآن معجزة في البلاغة في مرحلة سابقة بل

هو الميزان للفصاحة والبلاغة، وحينئذ لا يوجد ميزان ومعيار خارج دائرة المتسابقين ليقاس به درجة كل واحد من أفراد حلبة السباق... الخ).

أقول: هذا الكلام أشبه بالادعاءات الخالية من مثبتات موضوعية ولعل الأمر يتضح أكثر من خلال النقاط التالية:

١- كلام أحمد القبانجي غير مدلل بشيء وهو إلى الخطابيات أقرب منه إلى الدليل البرهاني الرصين، وقد كانت الصناعة الأدبية تقتضي منه تسليط الضوء على فقرات القوة والضعف البلاغية في النصوص التي زعم أرجحية بعضها على بعض معززة بالأدلة التي تتقاطع عندها اراء أهل الفن، وألا يسارع إلى إصدار الحكم الجازم البات مستدعياً في ذلك الكلمات الطنانة والعبائر الرنانة من قبيل: (المقارنة السريعة والبسيطة وجلي الحال، وعدم فهمهم حقيقة الإعجاز، والعرف والعقل المنصف والوجدان المحايد ووو الخ)، ولا ندري ما دخل العقل كوسيلة معيارية في تحديد التفاضل بين النصوص الأدبية من عدمه مع ان تلك النصوص تنتمي إلى عالم الوضع والاعتبارات المعلوم عند اهل الاختصاص تغاير دائرتها مع دائرة الأحكام العقلية!

كان ينبغي على القبانجي أن يبتعد عن استحضار مقولات الحساسية المذهبية والتعصب الأعمى في محاولة محمومة منه لإفراغ شهادات

أرباب الصناعة من قيمتها الإثباتية، وكأن الرجل في استحضاره لهذه المقولات يجعل نفسه في منأى عن داء التعصب الوبيل رغم إنه قد يقال له: إنك وبالالتفات إلى ترجيحك نصوص النهج الشريف على القرآن الكريم الخال من أي دليل تنطلق في هذا الترجيح من خلفيات فكرية وتعصب مقيت لرأيك الشخصي. بل كان المتعين عليه أن يميم وجهه شطر الأدوات الأدبية ليستجلي من خلالها حال أقوائية بعض النصوص على بعض إن كان يجد إلى ذلك سبيلاً، لكن القبانجي وبدلاً من هذا كله راح يلقي الأمر على ذهن القارئ الكريم ويوكل الحكم إليه معتمداً في تحويله هذا على (العرف والوجدان وووالخ)، وكأن قارئه من خريتي البلاغة ومتعاطي الفصاحة، وكأن عرفنا متخم حد النخاع بالنفس الأدبي ومطبوع بالأثر البلاغي رغم إنه يعي جيداً أن هذا التقييم لا يناله إلا ذو حظ عظيم ممن كثرة مراودته لعلم المعاني والبيان وطالت خدمته لهما.

٢- من المعروف أن ما تقتضيه المقارنة بين نصين أدبيين هو ضرورة تمحورهما حول موضوع واحد ومحل فارد، لا أن يكون أحدهما مختصاً بموضوع والآخر بموضوع مغاير، وينبغي أن يكون هذا من أبجديات العلوم الأدبية بعد انعقاد سيرة أساتذة الفن وأرباب الأدب على أساسه عند مقارنتهم بين النصوص الأدبية، ومن هنا فمن غير المنطقي أن تتم المقارنة بين نص شعري مثلاً في الهجاء وآخر في الرثاء وثالث في المديح

ورابع في الوصف وهكذا، ومن البين إن أحمد القبانجي لم يراع هذه المسألة عند مقارنته السالفة فعمد إلى طرح نصوص علوية تتحدث عن الخلافة والموعظة والعقيدة وقابلها بنصوص قرآنية مضمونها تاريخي أو استجلاء حدوث أمر مستقبلي!

فاذا اضفت إلى هذا حساسية بعض الموضوعات التي ساقها القبانجي وارتباطها بعاطفة الإنسان وفطرته مهما كانت منظومته الفكرية وخلفيته المعرفية وانجذابه إليها عاطفياً عرفت قيمة المقارنة القبانجية، فإن الإنسان بطبعه ميال – عاطفياً – إلى مقولات (الموت، الإله، الظلم، الدنيا، الآخرة....الخ) أكثر من ميله إلى قضية تاريخية أو حكاية مستقبلية، وهو أمر كان ينبغي على القبانجي ألا يقع فيه كي لا تكون مقارنته بلا قيمة علمية.

٣- أحمد القبانجي يشطب على كل آراء أئمة البلاغة والفصاحة لا لشيء إلا لأن الجميع يتحرك من وحي تعصبه مع القرآن الكريم أو ضده وكأن الحيادية انعدمت بالمرة، وكأن تقييماتهم النصية مجرد فتاوى غير مسندة إلى دليل موضوعي ولا متكأة على مدرك علمي، والرجل في كلامه هذا ينسى أو يتناسى وجود العلوم الأدبية وأدواتها التخصصية التي لا تسمح لأي أحد أن يرسل الكلام على عواهنه من دون بناء أدبي يكتسب مشروعيته من العلوم الأدبية نفسها، ومعلوم أن هذه العلوم لم تعتمد في تقييماتها على الذوق الأدبي الشخصي وحده

ولا جعلت النص القرآني فقط أساساً لها، بل الأمر تعداه إلى كل مورث نصي عربي متلقى من فحول الأدب وأرباب البلاغة والفصاحة والممتد إلى ما قبل وبعد عصر القرآن والإسلام.

إن القول بأن شهادة كل أحد سواء كان منتمياً إلى مدرسة القرآن أو خارج عنها محلها التشكيك والتجريح أمر تأباه الموضوعية، لأسباب كثيرة منها:

أ- إنه يفترض أن كل واحد من المنتمين تاريخياً أو جغرافياً إلى الإسلام لابد أن يتعصب لدينه ويدافع عنه، وهو أمر لا يمكن التسليم بضرورته إذ ما أكثر الشعراء والأدباء الذين تركوا الدين خلفهم ظهرياً، وما أكثر من وجه منهم سهام النقد إلى كتاب الله العزيز وعلى طول التاريخ محاولاً الحط من كرامته والتنقيص من شأنه وبأساليب مختلفة، ويكفي أن نتدبر التصانيف العقدية والمصادر التفسيرية لنشاهد الركام الهائل من الشبهات التي طالت أغلب مزايا القرآن الكريم.

ب- إن الشهادة لا يكتفى بها في مقامنا من دون إرجاعها إلى مسلمات تخصصية وشواهد أدبية يمكن التحاكم وفقاً لها، وحينئذ فليأتي فليأتي مدع أرجحية أي نص أدبي على القرآن الكريم وليطرح حججه وبراهينه وسينظر فيها على أساس تلك المسلمات والشواهد لينظر بالتالي مدى سلامة شهادته من عدمها، ولا يحتمل أن يسد الباب رأساً

من دون حتى النظر في تلك الدعوة بحجة خصومة صاحبها للقرآن الكريم إذ ما أكثر الشبهات التي يطرحها الخصوم وتأخذ طريقها إلى المحاورة والمجادلة دعماً وتأييداً أو رداً وتفنيداً.

ج- أحمد القبانجي يصنف نفسه خارج الفريقين الذين ذكرهما وهو في ادعائه إن بعض فقرات نهج البلاغة أكثر بلاغة وفصاحة من بعض آيات القرآن الكريم يعطي نفسه قدرة نقدية تؤهله لمهمة المقارنة التي يتحدث عنها، والزمان لا يعدمنا من هم على شاكلته وعليه فليتفضل علينا هو وأشياعه وليتلطفوا بممارسة دور المقيم للنصوص الشعرية والنثرية ويقارنها بالقرآن الكريم وسنقبل منه النتيجة التي يتم التوصل إليها شريطة أن تكون نتيجة معللة ومعززة بأدلة يقبلها أهل الاختصاص من مسلمين وغيرهم لا أن يسوق هذا الادعاء مساق الفتوى الخالية من دليلها كما قدمنا.

ء- إن أحمد القبانجي نفسه ينقل عمن قال بـ-الصرفة- عدم تبنيهم الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم ذاتياً، أي إن القرآن في ذاته ليس معجزاً وكان يمكن للعرب أن يأتوا بمثله إلا أن الله صرفهم عن ذلك، على خلاف في معنى الصرفة.

ولسنا الآن في وارد تقييم دعوى — الصرفة – أو نقدها بيد إننا نريد القول إن نفس إيراد القبانجي لهذه الدعوى ينقض مضمون ادعائه

القائل: (وإن كانوا من المسلمين فعقيدتهم تفترض عليهم التحيز لصالح القرآن وتبرير كل ما يوهم ضعفاً بلاغياً بتخريجات وذرائع مختلفة ليحفظوا للقرآن تفوقه البلاغي كما هو المشاهد في منهج العلماء والمفسرين في عملية المقارنة بين القرآن وبين غيره من الكتب....الخ)، والنقض هنا يظهر عبر وجود جملة من علماء الإسلام المنافحين عن ربانية القرآن الكريم رفضوا المعجزة البلاغية وخالفوا جمهور العلماء وابتدعوا وجها جديداً لإثبات الإعجاز لا ينتمي إلى البلاغة والفصاحة بصلة، وقد كان بإمكانهم استحضار النصوص الأدبية التي يتراءى منها أرجحيتها على النص القرآني سواء كان نصاً علوياً أو غيره مما سيوفر لهم دليلاً ملموساً لا نظير له على صحة دعوى الصرفة، بيد إنهم لم يفعلوا إيماناً منهم بتفوق القرآن الكريم على سائر النصوص المألوفة.

٤- يطرح أحمد القبانجي سؤالاً عن حيادية التقييم النصي قائلاً فيه: (ولكن لو تقدمنا في مسألة التحكيم بين هذه النصوص إلى غير المسلمين من الأدباء العرب مثل: جرجي زيدان، جورج جرداق، جبران خليل جبران (رحمهم الله) والذين لا يخفى على كل باحث فضلهم وأثرهم المشكور على الثقافة العربية والإسلامية، فماذا تتصورون نتيجة التحكيم؟).

ونحن أيضاً نسأل عن نتيجة الحكم كيف ستكون؟

وحتى نخرج عن تخمينات أحمد القبانجي وأحلامه الوردية ورجمه بالغيب وبعده عن نتاجات الأدباء الذين ذكرهم، نورد لك أيها القارئ الكريم-كما فعلنا سابقاً - شهادات غير المسلمين من أدباء العرب الذين ذكرهم أخونا القبانجي وغيرهم:

١- الأديب الشهير جورج جرداق أشار في أكثر من موضع من كتابه الخالد(الإمام علي صوت العدالة الإنسانية) إلى تفوق القرآن الكريم وحامله (صلى الله عليه وآله) على كل ما عداهما، فمن ذلك ما ورد في ص ٥٢٩:

(إن شروط البلاغة، التي هي موافقة الكلام لمقتضى الحال، لم تجتمع لأديب عربي كما اجتمعت لعلي بن أبي طالب. فإنشاؤه مثل أعلى لهذه البلاغة، بعد القرآن. فهو موجز على وضوح، قوي جياش، تام الانسجام لمَا بين ألفاظه ومعانيه وأغراضه من ائتلاف، حلو الرنة في الأذن موسَيقي الوقع. وهو يرفق ويلين في المواقف التي لا تستدعي الشدة. ويشتدّ ويعنف في غيرها من المواقف، ولا سيما ساعةَ يكون القول في المنافقين والمراوغين وطلاّب الدنيا على حساب الفقراء والمستضعفين وأصحاب الحقوق المهدورة. فأسلوب علي صريح كقلبه وذهنه، صادق كطويته، فلا عجب أن يكون نهجاً للبلاغة).

وهكذا ما ورد في ص٥٣٢:

(والخطباء العرب كثيرون، والخطابة من الأشكال الأدبية التي عرفوها في الجاهلية والإسلام ولاسيما في عصر النبي والخلفاء الراشدين لما كان لهم بها من حاجة. أما خطيب العهد النبوي الأكبر فالنبي لا خلافَ في ذلك. أما في العهد الراشدي، وفي ما تلاه من العصور العربية قاطبةً، فإنّ أحداً لم يبلغ ما بلغ إليه علي بن أبي طالب في هذا النحو..... الخ).

وهكذا ما قاله في روائع نهج البلاغة ص ٩- ١٠:

(.....هذه الحقيقة تتركز جلية واضحة في شخصية علي بن أبي طالب فإذا هو الإمام في الأدب، كما هو الإمام في ما أثبت من حقوق وفي ما علم وهدى، وآيته في ذلك (نهج البلاغة) الذي يقوم في أسس البلاغة العربية في ما يلي القرآن من أسس، وتتصل به أساليب العرب في نحو ثلاثة عشر قرنا فتبني على بنائه وتقتبس منه ويحيا جيدها في نطاق من بيانه الساحر).

٢- الأديب الكبير ميخائيل نعيمة:

اشتهر عنه إعجابه بلغة القرآن واقتباسه منها، وقد جاء في كتاب (مخائيل نعيمه -أحاديثه مع الصحافة)[١] إن مجلة الرحمة الصادرة في

---

(١) أحاديثه مع الصحافة: ص٢٢٩.

بيروت سألته في حوار مؤرخ - أيلول ١٩٦٧ قائلة: (ما هو أجمل كتاب قرأته؟) فأجاب قائلاً:

(الإنجيل وبهاغفادغتا في سموها الروحي والقرآن في بلاغته.)

٣-الأديب والأستاذ المعروف حنا فاخوري:

يقول في كتابه - الجامع في تاريخ الأدب - ص٣٣٣:

(... أما بلاغته — القرآن - فروعة فن ومتحف بيان، يهزك ما فيه من موسيقى ترافق الكلام وتتصل بأغوار النفس البشرية فتحرك أوتارها، وإذا هنالك نغمات تلو نغمات، تارة في فيض من الإشعاع والنور، وطوراً في انقضاض صاعقي يفيض على الحياة ويوجهها شطر الروح والعالم الذي لا يزول)[1].

وعن أثره في علم الأدب يقول: (كان للقرآن الكريم أثر كبير في العالم الأدبي والعلمي، فقد وحد اللغة العربية وحفظها ووسع نطاقها، وعمل على تلينيها وتهذيبها، ثم إنه كان أساس العلوم اللغوية والبيانية عند العرب، وهو أبدا المثال الأعلى في البلاغة والفصاحة).

---

(١) الجامع في تأريخ الأدب: ص٣٣٣.

٤- جرجي زيدان:

يقول في تاريخ آداب اللغة العربية: (خرج العرب من جزيرتهم إلى العالم في صدر الإسلام، وليس في أيديهم من الكتب غير القرآن الكريم يقرؤونه ويتعظون به ويتحاكمون إليه، وقد أعجبوا بأسلوبه ودهشوا لبلاغته، لأنه ليس من قبيل ما كانوا يعرفونه من نثر الكهان المسجع ولانظم الشعراء المقفى الموزون، وقد خالف كليهما وهو منثور مقفى على مخارج الأشعار والاسجاع، فلا هو شعر ولا هو نثر ولا هو سجع، وفيه من البلاغة وأساليب التعبير ما لم يكن له شبيه في لسانهم، فسحروا بأسلوبه وبما حواه من الشرائع والأحكام وقصص الأنبياء....الخ)[1].

وللتذكير فإن جرجي زيدان كما هو حنا فاخوري لا يريان صحة نسبة النهج الشريف بجميع ما فيه إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) رغم أنهما يجعلان مضامينه في طليعة النصوص العربية - بعد القرآن الكريم - بلاغة وفصاحة!

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية: ج٢، ص١١.

٥- الطبيب والمفكر المادي والشاعر (شبلي شميل) الذي يقول في أبيات بعثها إلى صديقه (محمد رشيد رضا) صاحب المنار (ذكرها رشيد رضا في المنار ج١١ص١١) مادحاً النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله):

إنّي وإن أَكُ قَد كَفرت بدينه هل أَكفرنّ بمُحكم الآيات
أَو ما حوت في ناصعِ الألفاظ من حكم روادعَ للهوى وعظات
وشرائعٍ لَو أَنّهم عقلوا بها ما قيدوا العَمرانَ بالعادات
نعمَ المدير والحكيم وإنّه رب الفَصاحة مصطفى الكلمات
رَجل الحجا رجل السياسة والدها بطل حليَف النصرِ في الغارات
ببلاغة القرآن قَد خلَبَ النهى وبسيفه أَنحى على الهامات
من دونه الأَبطالُ في كلِ الورى من سَابق أو لاحق أو آت

وغير هؤلاء كثر ضربنا عن إيراد شهاداتهم صفحاً خوف الإطالة.

يقول القبانجي: (المفروض أن تكون المعجزة الإلهية متماشية مع ما هو سائد في ذلك المجتمع وأن يكون التحدي في الأمور التي يرتضيها الطرف المقابل ومستعد للمبارزة وترجمتها على أرض الواقع العلمي بأن يكون له رموز وأفراد تتوفر فيهم اللياقة الكافية والمهارة المتميزة لقبول التحدي، في حين أن هذا المعنى غير متوفر في تحدي القرآن البلاغي للعرب، لأن العرب يومئذ كانوا شعراء فقط، وقد جاءهم القرآن بما لم يألفوا مثله ولم تكن لهم سابقة في هذا الميدان الأدبي، إذ لم يكن في قريش ممن يعرف القراءة والكتابة سوى سبعة نفر، والنثر الأدبي يعتمد

أشدّ الاعتماد على الكتابة والممارسة على الورق وليس كالشعر الذي يعتمد على القريحة فقط، وكان الأجدر بالقرآن فيما لو قصد التحدي البلاغي لهم أن يأتيهم على صورة شعر كما كان الشعر هو السائد، لا أن يأتيهم بشيء لا يعرفونه أو غير متمرسين عليه)[1].

---

(١) سر الإعجاز القرآني: ص٧١.

أقول:

١- يعتذر أحمد القبانجي لمشركي العرب بما لم يعتذروا به لأنفسهم فيراهم معذورين في عدم إجابة داعي التحدي لعدم توفر مقومات الرد عندهم رغم إن الأمر لو كان كذلك لكانوا أسرع الناس إلى الاعتذار به ولأعلنوه على مسامع الدنيا آناء الليل وأطراف النهار، لأنه عذر ادعى للقبول والتصديق - بحسب الفرض - من ترهاتهم التي واجهوا بها القرآن الكريم ومن سخافاتهم التي حاولوا الصاقها بالنبي العظيم (صلى الله عليه وآله)، لكنهم وبدلاً من هذا حكموا بأن القرآن الكريم واقع ضمن دائرة قدرتهم وانهم لو شاءوا أن يعارضوه لفعلوه، وهذا ما نجده في أكثر من آية قرآنية: (وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين)[1].

٢- إن معنى الإعجاز البلاغي هو: كون القرآن الكريم وصل حداً في البلاغة يعجز على الناس أن يأتوا بمثله من هذه الناحية ولم تصل النوبة إلى الحديث عن أسلوبه حتى ينسبه القبانجي إلى النثر ثم يدعي إنهم لم يألفوا مثله، إذ المطلوب منهم أن يأتوا بما ماثل القرآن الكريم أو قاربه بلاغة مهما كان أسلوبه ونمطه وسيأتي مزيد كلام.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٣١.

٣- تصنيف أحمد القبانجي القرآن الكريم تحت مسمى النثر أمر لا يوافقه عليه الكثير من نقاد الفن وأساتذة الأدب الذين يرون الأسلوب القرآني أسلوباً خاصاً غير منتمٍ إلى المعروف والمألوف من كلام العرب، وقد تقدم كلام جرجي زيدان في هذا فراجع.

٤- الادعاء بتوقف النثر الأدبي على الكتابة والممارسة على الورق دعوى عهدتها على أحمد القبانجي بعد أن شاع هذا اللون الأدبي عند العرب منذ غابر الأزمان يوم لم تكن كتابة ولا ممارسة ولا غيرها من مدعيات صاحبنا، فالمعروف أن النثر ينقسم باعتبار الشكل إلى خطب ورسائل، وباعتبار اللفظ يتفرع إلى نثر مرسل ومزدوج وسجع، وهذه كلها عرفها العرب القدامى وتفننوا فيها وحازوا قصب السبق واشتهر لهم في ذلك خطباء وحكماء[1].

٥- المفهوم من كلام القبانجي أنه يحصر التحدي في أولئك الذين كانوا معاصرين للنبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) في بيئته الخاصة مع إن الأمر أوسع من ذلك فلئن كانت الكتابة عزيزة الوجود في تلك البيئة فالأمر ليس بهذه الظلامية في حواضر عربية أخرى مشمولة بهذا التحدي أيضاً ويعنيها إجابته لكثرة دواعيها سيما وأن الدعوة

---

(١) النثر العربي - د سوسن رجب - دراسة منشورة على الشبكة العنكبوتية خالية من ارقام الصفحات.

الإسلامية أخذت بالزحف إليهم سريعاً وعما قريب تدق أبوابهم كيف لا وهم يرون حصون الكفر في جزيرة العرب تتهاوى تباعاً على أيدي أتباع الدين الجديد الذي طالتهم رسائل نبيه وكتبه تدعوهم فيها إلى الإيمان به وتقيم التحدي القرآني شاهداً قطعياً على ربانية هذا الدين الجديد.

٦- إن التحدي القرآني عام شامل لجميع الأجيال على مر العصور والدهور، وهذا التحدّي في عمومه يشمل كل الأمم وكل أدوار التاريخ، سواء العرب وغيرهم، وسواء من كان في عهد الرسالة أم في عهود متأخرة حتى الأبد، اللفظ عام والخطاب شامل؛ ولأنّ التحدّي لم يكن في تعبيره اللفظي فقط ليخص لغة العرب، وإنّما هو بمجموعه من كيفية الأداء والبيان والمحتوي جميعاً، كما أنّه لم يخص جانب فصاحته فحسب، ليكون مقصوراً على العهد الأول، حيث العرب في ازدهار الفصاحة والأدب، على أنّ الفصاحة والبلاغة لم تختص بلغة دون أُخرى ولا بأُمة دون غيرها[1].

وأنت خبير أن قد تصرمت مئات من السنين وبادت القرون تلو القرون وتحديه باق ينادي هل من مجيب؟

---

(١) التمهيد في علوم القرآن - الشيخ محمد هادي معرفة: ج٤، ص٣١.

ولئن كان الأولون معذورين عند القبانجي بعدم الممارسة الكتبية، فما بال التالين إلى يوم الناس هذا؟

٧- إنه من زلل القول وخطل التفكير أن يدعى إن أمة كان لها القدح المعلى في البلاغة وحازت قصب السبق في الفصاحة، وضمت بين جنباتها فحول الأدب، عجزت عن أن تأتي بعشر كلمات بليغة – منثورة – تضاهي أقصر سورة قرآنية رداً لتحدي دام عشرين حجة، لا لشيء إلا لأن هذه العشر كلمات تحتاج تمرساً كتابياً لم تكن تلك الأمة بقضها وقضيضها متوفرة عليه!

٨- إن ندرة الكتابة عند العرب ليس عذراً لتنصلهم عن إجابة الداعي ورد التحدي، وقد كان لهم أن يزاوجوا بين إملاء الفكرة وكتابتها عن طريق الاستعانة بمن يجيد الكتابة والخط، خصوصاً وهم قد خاضوا في سبيل مواجهة القرآن ضروباً من المعاناة لا تقاس بما اقترحناه هنا، حتى كثر تجوالهم وترحالهم طلباً لقصص الماضين وأساطير الأمم السالفة بين نجران وفارس والحيرة لعل ذلك ينجع في صرف الناس عن سماع القرآن الكريم.

٩- إن وجود الكلام المنظوم في القرآن الكريم أمر واضح، وقد كان لهم أن يعتمدوا في رده على هذه المقاطع المنظومة، ولعله لوجود

هذا النظم اتهموا القرآن بالشعر وألصقوا بحامله (صلى الله عليه وآله) تهمة تعاطي الشعر.

١٠- القول بأن القرآن الكريم لو كان في صدد التحدي البلاغي لكان تحداهم شعراً، لأنها الصناعة البلاغية التي امتازوا بها وكانوا يحسنونها فيه غفلة عن الحكمة من وراء ذلك فإن القائلين بإعجاز النظم المخصوص يقولون: (وجدنا الكلام منظوماً ومنثوراً والمنظوم هو الشعر وأكثر الناس لا يقدرون عليه، فجعل الله معجز نبيه النمط الذي يقدر عليه كل أحد ولا يتعذّر نوعه في كلهم، وهو الذي ليس بمنظوم، فيلزم حجته الجميع)[1]، فضلاً عن إنه لو كانوا فعلاً لا يحسنون هذه الصناعة، فلماذا لم يتنصلوا عن التحدي ويدفعوا عن أنفسهم عار العجز وشناره بحجة خروجه من تحت طائل قدرتهم وهي حجة لها على أي حال وجه مقبولية إذا لا معنى أن تتحدى قوماً في شيء لا يحسنونه؟

لكنهم وعلى خلاف هذا زعموا في أنفسهم القدرة على مواجهته وصنفوه في دائرة أدبهم المعروف!

وسيأتي مزيد كلام.

---

(١) الخرائج والجرائح: ج٣ ، ص١٠٠٣.

يقول أحمد القبانجي: (.. لو سلمنا كل ذلك، وقبلنا أن القرآن معجزة شاملة وخالدة وفوق طاقة البشر، إلاّ أنّه يبقى شيء واحد، وهو أنّه كيف يمكن إثبات أن هذه المعجزة وهذا الكلام إنما هو من الله تعالى؟ فالعقل غاية ما يمكن أن يقوله في هذا الصدد إن هذا الكلام بهذا السبك البلاغي المعجز لا يمكن أن يكون من محمد (صلى الله عليه وآله) وآله) ولا أحد من البشر، بل هو صادر حتماً من قوة غيبية فوق طاقة البشر، ولكن هل أن هذه القوة الغيبية هي الله تعالى، أو الملائكة، أو الجن، أو مخلوقات من عالم آخر؟ العقل ليس له طريق إلى الكشف عن الجواب الصحيح، فتبقى العهدة حينئذ على الوجدان، وهذا هو ما سنفصله فيما بعد) [١].

أقول: كأن أحمد القبانجي ما قرع سمعه تحدي القرآن للإنس والجن!

(قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً)[٢].

---

(١) سر الإعجاز القرآني: ص٥٥.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٨٨.

ولا دعوته الناس أن يستعينوا في رد تحدي القرآن العزيز بكل ما سوى الله تعالى (أَم يقولُونَ افتراه قُل فَأْتُوا بعشْر سور مثْله مُفْتَريات وادعوا منِ استطَعتم منْ دُونِ اللَّه إِنْ كُنْتم صادقين)[1].

واللافت إن ادعاء الاتصال بالعوالم الغيبية من جن وملائكة وغيرها لم يخلو منه زمان ولا استثنيت منه أمة من الأمم غالباً فهلا جاء أحد المتصلين بما يضاهي القرآن الكريم أو ما يشابه ولو نوع مشابهة؟

ولم لم يتكرر التواصل الذي أوجب نزول القرآن على محمد (صلى الله عليه وآله) مع أحد غيره في سالف الأزمان ولاحقها؟

وسيأتي مزيد كلام بعد قليل.

وحتى يرد أحمد القبانجي المسلّمة القائلة بأن الله تعالى لا يظهر معجزته على يدي الكذاب لما فيه من التغرير يقول: (قد يقال: إن الله تعالى سوف يقوم بفضح كل ما هو خارق للعادة إذا كان فيه إضلالاً للعباد وكذباً على الله، وإلاّ كان تركه والحال هذه إغراء بالجهل وإمضاء للباطل، وذلك محال على الله تعالى ومخالف لمقتضى حكمته.

---

(١) سورة هود: الآية ١٣.

فنقول: إنّه تقدم في الفصل الأول ما يدحض هذا الإشكال وإنه لا يقبح على الله تعالى ذلك وخاصة في هذا المورد بالذات، لأن القرآن الكريم لا يعدّ إظلالاً للعباد وإغراء لهم بالجهل والباطل، فلماذا يتصدى الله تعالى لفضح المتحدث به؟ وبعبارة أخرى: إن القرآن ليس كتاب ضلال حتى يستدعي أن يقوم الله تعالى بمقتضى قاعدة اللطف بالكشف عن هذا الزيف والدجل، بل هو كتاب نافع جداً للبشرية على مستوى الدعوة إلى الله والأخلاق والقيم الإنسانية.

هذا أولاً. وثانياً: إن الواقع التاريخي يكذب هذا الادعاء، فكم من المنحرفين وأهل البدع والرياضات قد ضلّوا وأضلّوا جماً غفيراً من الناس ولم يتصد الله تعالى لمنعهم من اغواء الناس وإضلالهم، بل ترك الأمر لعقول الناس ووجدانهم ليتحركوا من موقع المسؤولية والعقل لا من موقع الأهواء والأوهام.

يقول السيد المرتضى في رده على من ذهب إلى أن حكمة الله تقتضي المنع من الإغراء بالباطل من قبل المدّعين والمنحرفين: «وهذا غير صحيح، لأن الذي يمنعه أن يفعل الله تعالى الاستفساد، فأما أن يمنع منه فليس بواجب، لأن هذا يوجب أن يمنع الله تعالى كل ذي شبهة من شبهته، وأن لا يمكّن المتعبدين المنخرقين من شيء دخلت منه شبهة على أحد.

وقد علمنا أن المنع من الشبهات وفعل القبائح في دار التكليف غير واجب، وليس يجب إذا كان تعالى لا يستفسد أن يمنع من الاستفساد، كما لا يجب إذا لم يفعل القبيح أن يمنع منه في دار التكليف...

ثم يقال للمعلّق بهذا: أليس قد ضل بزرادشت وماني والحلاج ومن جرى مجراهم من المنخرقين والملتمسين جماعة وفسدت بهم اديانهم، فألا منعهم الله من هذا الاستفساد إن كان المنع منه واجباً؟».

وعلى أية حال: فهذا الإشكال الأخير على مقولة الإعجاز البلاغي هو ما ذهب إليه السيد المرتضى علم الهدى في «الذخيرة»، حيث قال:

«وقد بينا في كتابنا في جهة إعجاز القرآن أن من لم يقل في جهته ما اخترناه من الصرفة يلزمه سؤالان لا جواب عنهما إلاّ لمن ذهب إلى الصرفة:

(السؤال الأول) أن يقال: ما أنكرتم أن يكون القرآن من فعل بعض الجن ألقاه إلى مدّعي النبوة، وخرق به عادتنا، وقصد بنا إلى الإضلال لنا والتلبيس علينا. وليس يمكن أن يدعي الإحاطة بمنبع فصاحة الجن وأنّها لا يجوز أن يتجاوز عن فصاحة العرب. ومع هذا التجويز لا يحصل الثقة بأن الله تعالى هو المؤيد بالقرآن لرسوله (صلى الله عليه وآله).

وقد يمكن إيراد معنى هذا السؤال على وجه آخر، فيقال: إن محمداً (صلى الله عليه وآله) لم يدّع في القرآن أنّه كلامه، وإنما ذكر إن ملكاً هبط به إليه، وقد يجوز أن يكون ذلك الملك كاذباً على ربه، وأن يكون القرآن الذي نزل به من كلامه لا من كلام خالقه، فإن عادة الملائكة في الفصاحة ممّا لا نعرفه، وعصمة الملائكة قبل العلم بصحة القرآن والنبوة لا يمكن معرفتها، فالسؤال متوجه على ما ترويه» ،ولهذا السبب ذهب السيد المرتضى والشيخ الطوسي والمفيد وجمع من المعتزلة إلى مذهب الصرفة، وأن الإعجاز القرآني يتمثل في أن الله تعالى صرف العرب عن الإتيان بمثل القرآن وحال دون ذلك تكويناً، وإلاّ فالقرآن الكريم لا يعدّ معجزة بلاغية بحدّ ذاته بحيث يعجز البشر عن الإتيان بمثله[1].

أقول:

١- ما حول عليه من ادعاء دحض مسلّمة تناف إظهار المعجزة على يد المدعي الكاذب لما فيه من تغرير وبرهان اللطف لا طائل وراءه، لأنه تحويل على كلام شعري أكثر منه برهاني.

---

(١) سر الإعجاز القرآني: ص٧٤.

٢- ادعاء عدم الحاجة إلى نقض القرآن على تقدير عدم ربانيته بحجة إنه وفي نفسه ليس كتاب ضلال هو أمر غريب، لأنه يعني في ما يعنيه نفي الحاجة إلى النبوة رأساً، فمادام أن محمداً (صلى الله عليه وآله) ومع نزع صفة النبوة عنه استطاع أن يأتي بكتاب يعبر عنه أحمد القبانجي بـ: (هو كتاب نافع جداً للبشرية على مستوى الدعوة إلى الله والأخلاق والقيم الإنسانية...)، فما الحاجة بعدها لعطاء السماء وتواتر الأنبياء؟ والافتراض قائم على أساس قدرة الإنسان على الإتيان بتشريعات نافعة للبشرية على مستوى الدعوة إلى الله والأخلاق والقيم.... إلى الحد الذي لا يتعين معه على الله تعالى أن ينفي نسبة هذه التشريعات إليه!

٣- إن آيات عديدة في القرآن الكريم تتحدث عن إرسال الله تعالى محمداً (صلى الله عليه وآله) إلى خلقه والنبي نفسه ادعى ذلك بالضرورة، ولو بنينا على ما تفوه به القبانجي فإن هذه النسبة وذاك الادعاء ستكونان لا محالة كاذبتين - والعياذ بالله - فهل يرضى أخونا القبانجي بهذه النتيجة؟

إنه من الغريب حقاً أن يدعي شخص النبوة والسفارة ويعطي لنفسه ولاية وتصرف في شؤون الدنيا بأسرها إلى الحد الذي يجعل معه لنفسه أولوية تصرف في نفوس أتباعه من أنفسهم بأنفسهم مستنداً في ذلك

كله على الصلاحية الربانية المفترضة، ومع هذا يقال إن هذا لا يعد إغراء للناس بالجهل!

٤- التشريعات والمفاهيم القرآنية التي يدعي القبانجي نفعها للبشرية لا يوافقه عليها الكثير من خصوم الإسلام ومناوئيه وقد يكون ما يراه نافعاً ليس بنافع عندهم خصوصاً وإن الكثير من هذه التشريعات غير مفهومة المصلحة ولا ظاهرة الملاك - تبعاً لعدم الإحاطة بملاكات الأحكام غالباً -، وحتى صلاحية تلك المفاهيم ونفعها تبقى أمراً نسبياً بعد تباين الأذواق واختلاق العقول وتعدد الآراء تبعا للمؤثرات الذاتية والموضوعية التي تلقي لا محالة بظلالها على تقييم الأفراد ونظرتهم لتلك المفاهيم، ومن هنا فما لم نؤمن سلفاً بربانيتها واتكاء تشريعها على حكمة الله تعالى، فلا يمكن التسليم بها تسليماً اعمى خصوصاً تلك المتصلة بالطقوس العبادية والقضايا الإجرائية وحدود الحرية ومكانة المرأة والأقليات وعشرات القضايا التي مازالت سهام أعداء الدين تستهدفه عن طريقها، وفي ظني أن أحمد القبانجي نفسه يتحفظ على كثير من هذه القضايا!.

٥- أما قوله: (إن الواقع التاريخي يكذب هذا الادعاء، فكم من المنحرفين وأهل البدع والرياضات قد ضلّوا وأضلّوا جماً غفيراً من الناس ولم يتصد الله تعالى لمنعهم من إغواء الناس واضلالهم، بل ترك الأمر

الأمر لعقول الناس ووجدانهم ليتحركوا من موقع المسؤولية والعقل لا من موقع الأهواء والأوهام).

ففيه:

أ- إن هذا الفرض خارج عن المسألة التي نحن في صددها وهي عدم إجراء المعجز على يدي الكاذب، لأن القبانجي يتحدث عن مساحة يمكن للناس أن يتحركوا من خلالها استعانة بالعقل، وهو غير مقصود قطعاً لمن قال بقبح الإغراء بالجهل، لأن هذا القول يفترض عدم وجود أي دائرة يمكن للعقل أن يحكم من خلالها على مدع النبوة والسفارة سلباً أو إيجاباً.

وبكلمة أخرى:

إن افتراض أعمال مقولة عدم الإغراء ميدانها الوحيد عند انسداد أبواب معرفة الناس تماماً بحقانية أو عدم حقانية مجترح الإعجاز، بحيث لولا أعمال هذه المقولة لما أمكن لهم أن يعرفوا أنه كذاب أشر أو صديق نبي.

ب- إن المقصود بعدم إغراء الناس بالجهل ليس معناه التدخل لإبطال دعوة كل مدع ومنعه من إغواء الناس وإضلالهم، بل هو الحيلولة دون إظهار خوارق العادات على يديه مع إغلاق منافذ معرفة

صدقه من كذبه على الناس ولو بالاعتماد على أدلة عقلية أو نقلية. وبهذا يتضح التعليق عما نقله عن السيد المرتضى (قده) وإشكاله بـ (لأن هذا يوجب أن يمنع الله تعالى كل ذي شبهة من شبهته)، فإن أحداً لم لم يدع وجوب منع الله تعالى كل ذي شبهة من شبهته مطلقاً لا مطابقة ولا التزاماً، إنما يكون هذا مقبولاً في ظرف استحال فيه على العقل والنقل مطلقاً حلحلة تلك الشبهة مما يؤدي بالتالي إلى إضلال الناس وإغوائهم.

يقول السيد الخوئي – قده– في البيان ص٣٥: (وإنما يكون المعجز شاهدا على صدق ذلك المدعي إذا أمكن أن يكون صادقا في تلك الدعوى. وأما إذا امتنع صدقه في دعواه بحكم العقل، أ وبحكم النقل الثابت عن نبي، أ وإمام معلوم العصمة، فلا يكون ذلك شاهدا على الصدق، ولا يسمى معجزا في الاصطلاح وإن عجز البشر عن أمثاله: مثال الأول: ما إذا ادعى أحد أنه إله، فإن هذه الدعوى يستحيل أن تكون صادقة بحكم العقل، للبراهين الصحيحة الدالة على استحالة ذلك.

ومثال الثاني: ما إذا ادعى أحد النبوة بعد نبي الإسلام، فإن هذه الدعوى كاذبة قطعا بحكم النقل المقطوع بثبوته الوارد عن نبي الإسلام، وعن خلفائه المعصومين بأن نبوته خاتمة النبوات، وإذا كانت الدعوى باطلة قطعا، فما ذا يفيد الشاهد إذا أقامه المدعي؟ ولا يجب

على الله جل شأنه أن يبطل ذلك بعد حكم العقل باستحالة دعواه، أ وشهادة النقل ببطلانها).

ويضيف – قد- في ص١٦: (وليس من الإعجاز المصطلح عليه ما يظهره الساحر والمشعوذ، أوالعالم ببعض العلوم النظرية الدقيقة، وإن أتى بشيء يعجز عنه غيره، ولا يجب على الله إبطاله إذا علم استناده في عمله إلى أمر طبيعي من سحر، أ وشعبذة، أ ونحوذلك وإن ادعى ذلك الشخص منصبا إلهيا، وقد أتى بذلك الفعل شاهدا على صدقه، فإن العلوم النظرية الدقيقة لها قواعد معلومة عند أهلها، وتلك القواعد لا بد من أن توصل إلى نتائجها، وإن احتاجت إلى دقة في التطبيق، وعلى هذا القياس تخرج غرائب علم الطب المنوطة بطبائع الأشياء، وإن كانت خفية على عامة الناس، بل وإن كانت خفية على الأطباء أنفسهم).

ج- إن كلامنا في ظهور المعجز على يدي مدعي الواسطة بين الله وخلقه ومعلوم أن كون ما يظهر على يدي المنحرفين من أهل البدع والرياضات معجز هو أول الكلام، إذ من يقول إن هذا معجز حتى يقال إن الله تعالى أظهره على يدي منحرف كذاب؟

إن هذا الأمر يتضح أكثر عند ملاحظة حقيقة المعجزة ومقارنتها مع الخوارق المدعى ظهورها على يدي المدعين الكذابين، فإن هذه المقارنة

ستثبت أن أغلب تلك المدعيات هي أمور اكتسبها أصحابها عن طريق التعلم، وهو أمر مفتوح لجميع الناس ومن الواضح إن المعجزة خارجة رأساً عن قانون التعلم والاكتساب فهي معلولة لسبب غيبي غير مغلوب.

٦- الكلام الذي نسبه لعلم الهدى (قده) من احتمال إنزال الجن أو الملائكة القرآن الكريم - على تقدير تمام النسبة - فقد تقدم شطر الكلام فيه ونضيف هنا أكثر من ملاحظة:

الأولى: إن هذا الاحتمال لو تم لانسدت به باب النبوات وألغيت الرسالات رأساً، لأنه — أي الاحتمال - يأتي في معاجز جميع الأنبياء ومع احتماله لا يبقى موجب لتصديق سفارتهم ونبوتهم (عليهم السلام)، فإن افتراض تأثير عالم غيبي مجهول الإمكانات والقدرات في عالمنا يفتح الباب على مصراعيه لاحتمال اتكاء الأنبياء والرسل في معاجزهم عليه. ومن هنا فما المانع أن يكون انفلاق البحر وانبجاس الماء من الحجر وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والخلق من الطين على هيأة الطير وصيرورته طيراً بمجرد النفخ فيه وغير ذلك من معاجز كثيرة، أقول ما المانع أن تكون هذه الأمور معلولة لموجودات تلك العوالم الغيبة المجهولة من جن وملك وغيرهما؟

فهل يرضى القبانجي بهذا اللازم؟

الثانية: إن المطلوب في محاكمة معاجز الأنبياء هو اتّباع الطرق العقلائية في التعاطي مع الأشياء بنحو لو خرج خارج عن هذه الطريقة لعدّ في عرف العقلاء أجنبياً عنهم وغير معدود منهم ولا سائر على منهجهم أو طريقتهم وهو حينئذ إلى الجنون أقرب منه إلى العقل، ومعلوم أن افتراض تدخل موجودات العوالم الأخرى في النتاجات البشرية لو تم التعويل عليه - وعلى مستوى الاحتمال - في تفسير الظواهر الإبداعية يوجب خروج من يدعي ذلك عن ربقة العقلاء طراً.

نعم مع قيام الدليل على هذا التأثير -كما هو الحال في النبوات — فلا بأس به بل هو متعين التصديق إلا إن هذا غير الاحتمال الصرف الفاقد لأي قيمة علمية متولدة من دليل معتبر.

الثانية: إن هذا الاحتمال لا منشأ له، فعلى من يدع هذا الادعاء إثبات سريان قانون الفصاحة والبلاغة على تلك العوالم في رتبة سابقة، ثم الكلام في احتمال إلقائها كلاماً فصيحاً بليغاً على موجودات عالمنا، أما التذرع باحتمال ذلك فقط فهو غير نافع، لأن الاحتمال موجود في نفسه وبالتالي فهو لا قيمة له.

الثالث: سواء كان القرآن الكريم من نظم الجن أو الملائكة المتمردين أو غير ذلك فهذا ليس فيه كثير فائدة مادام إنه قد نزل بلسان عربي مبين ذي مفردات مألوفة مأنوسة ضمن قانون بلاغي

معروف لأهله، فان هذا كله يمكّن من معارضته (على تقدير عدم ربانيته) مضاهاةً أو مقاربةً، لأن مواد ذلك موجودة لديهم، وما كان غير موجود ومألوف عندهم -كما قد يقال عن نظمه وأسلوبه - أمكن لهم أن يقلّدوه وينسجوا على منواله ويسيروا على طريقته التي أنشأها بأدنى مؤونة كما جرت العادة في الاحتذاء بأساليب البلغاء والفصحاء وقد تقدم شطراً من ذلك فيما يخص النهج الشريف، وادعاء عدم قدرتهم على ذلك إنما ينسجم فقط مع افتراض ربانية القرآن الكريم، فإن الخالق جل جلاله هو وحده العالم والمحيط بجميع أسماء اللغة العربية وبألفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل لها، الخبير بجميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، البصير بجميع وجوه النظوم التي بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض، ومن هنا جاء التحدي عاماً شاملاً لجميع مفردات الوجود بأسرها:

(أَم يقولُونَ افتراه قُل فَأْتُوا بعَشْر سَور مثْله مُفْتَريات وادعُوا من استَطَعتم من دُون اللَّه إنْ كُنْتم صادقين، فَإن لَّم يستَجيبوا لَكُم فَاعْلَموا فَاعْلَموا أَنَّمَا أُنزل بعلْم اللَّه وأَن لاَّ إِلَه إِلاَّ هو فهل أَنتُم مُّسْلمونَ)[1].

(وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون) [1].

---

(١) سورة هود: آية ١٣.

(قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً)[٢].

الرابعة: إن إلغاء هذا الاحتمال لابد منه استناداً إلى برهان اللطف، لأن عدم الإلغاء يعني فيما يعنيه فتح الباب على مصراعيه لإضلال الناس وإغوائهم إذ هو يفترض تدخل موجودات من عالم آخر في تزويد بعض الأفراد بقدرات خارقة يدعي معها السفارة بين الخالق وخلقه الموجب لأولوية تصرفه في دماء الناس وأموالهم وشؤونهم الخاصة والعامة، من دون أن يكون لهم أي طريق يتأكدون عبره من صحة هذا الادعاء من عدمه، وهذا باب عظيم للافتتان والضلال والإضلال نجزم معه أن الخالق الحكيم لا يليق بجنابه أن يسمح به.

قال القبانجي: (إن مثل هذه المسابقات لا تقبل التحدي لمجموعة من الأفراد فضلاً عن جميع العرب وبالتعاون فيما بينهم، أي أن هذا التحدي يقوم على أساس فردي لا جماعي.....

بعد هذا نقول: ... فليس بإمكان بلغاء العرب أن يتفقوا على الإتيان بقصيدة موحدة لمعارضة القرآن، لأن فن البلاغة والشعر لا

---

(١) سورة الشعراء: الآيات ٢١٠-٢١٢.

(٢) سورة الإسراء: آية ٨٨.

يقبل اشتراك الكثيرين على نص واحد، فكل شاعر له قريحته ومزاجه وذوقه الشعري والأدبي، والقصيدة الرائعة لابد وأن تكون من نسيج شخص واحد، وعلى هذا لا معنى لأن يتحدى القرآن جميع البشر.... ويقول: «ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً»، ولابد وأن يكون النزال في هذه المسابقة على شكل فردي، وحينئذ لابد وأن يكون الفائز أحد المتسابقين ولا يمنع من أن يكون أحد أفراد البشر، ولا عجب في ذلك ولا معجزة، فقد يأتي أحد العدّائين ويسجل رقماً قياسياً لا يستطيع أحد من البشر أن يصل إليه أو يسبقه، أو يحمل ثقلاً لا يستطيع أحد من الناس أن يحمله على انفراد، ومعه هل يمكنه أن يدعي قيامه بمعجزة ويتحدى الآخرين على هذا الأساس؟!)[1].

أقول:

١- إن نفس إيراده لو تم فانه ينقض ما يؤسس له من إعجاز وجداني، لأن التحدي إن كان تحدياً للمجموع من حيث هو مجموع عاد نفس إشكاله من إنه لا معنى لأن يتحدى القرآن جميع البشر (ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) مع افتراض اختلاف القريحة والمذاق والمزاج والروحية المؤدي من غير شك إلى اختلاف المنتجات والمخرجات.

---

(١) سر الإعجاز القرآني: ص٥٤.

وإن كان التحدي شاملاً للأفراد بما هم أفراد انتفى أصل إشكاله الذي طرحه هنا.

٢- لو سلمنا بعدم منطقية تحدي القرآن جميع البشر تحدياً مجموعياً، فإن هذا بنفسه سيحفز أعداء القرآن في بيئته التي نزل فيها على مجابهته بعدم المنطقية هذه، لأنها تمثل خروجاً عن قانون المعارضة والتحدي الذي كان شائعاً ذائعاً في عرفهم، ولو كان هذا لاتخذوه مطعناً - وأي مطعن - في ربانية القرآن يستريحون معه من تبكيته الذي الذي ظهروا معه بمظهر العاجز القاصر عن مجابهة التحدي لا أن يعترفوا بتوفر جميع شرائط المعارضة وتمامها. وبالتالي يقدمون شاهداً بارزاً عن عجزهم وقصورهم أمام تحديه: (وَإِذَا تتلَى عَلَيْهِمْ آيَاتنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَلِين)، (ومن أَظْلَم مِمَّنِ افترى علَى اللَّهِ كَذِباً أو قَالَ أُوحِي إِلَيَّ وَلَمْ يوحِ إِلَيْه شَيء ومن قَالَ سَأُنْزِلُ مثْلَ مَا أَنزلَ اللَّه ولَو تَرى إِذ الظَّالِمونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلاَئِكَةُ باسطُو أَيْديهِمْ أَخْرِجوا أَنفُسكُم الْيوْمَ تُجْزونَ عذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تقولُونَ علَى اللَّهِ غَيرَ الْحَقِّ وكُنْتُم عن آيَاته تَسْتَكْبِرون)[1].

٣- قلنا سابقاً: إن التحدي القرآني عام وشامل لجميع الأجيال على مر العصور والدهور، وهذا التحدّي في عمومه يشمل كل الأمم

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٩٣.

وكل أدوار التاريخ، سواء العرب وغيرهم، وبتعبير اصطلاحي أصولي أنّ هذا الخطاب يضم إلى جانب عمومه الأفرادي إطلاقاً أحوالياً وإطلاقاً زمانياً معاً، إذاً فللخطاب شمول من النواحي الثلاث: الأفراد الموجودين والأقوام الذين يأتون من بعد وأياً كانت حالتهم وعلى أي صفة كانوا[1].

وقد فهم أحمد القبانجي أن التحدي القرآني وفي بعض صوره متجه إلى العموم المجموعي بما هو مجموع وما درى أن لسان التحدي هذا مسوق لبيان ضعفهم وقصورهم والمبالغة في تبكيتهم وإظهار عجزهم وأن القرآن الكريم خارج عن طوق قدرة الإنس والجن وانهم لا يتمكنون من مضاهاته حتى لو اجتمعوا على ذلك جميعاً وارتفعت جميع الموانع لديهم وانتفت كل الاختلافات فيما بينهم، ونفس لسان الآية: (.... ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) مشعر بذلك، فإن كون الإنس والجن على حالة يكون فيها بعضهم لبعض ظهيراً قريب من المحالات العادية.

٤- أما قوله الأخير: (... ولابد وأن يكون النزال في هذه المسابقة على شكل فردي، وحينئذ لابد وأن يكون الفائز أحد المتسابقين ولا يمنع من أن يكون أحد أفراد البشر، ولا عجب في ذلك ولا معجزة،

---

(١) التمهيد في علوم القرآن - الشيخ محمد هادي معرفة: ج٤، ص٣١.

فقد يأتي أحد العدّائين ويسجل رقماً قياسياً لا يستطيع أحد من البشر أن يصل إليه أو يسبقه، أو يحمل ثقلاً لا يستطيع أحد من الناس أن يحمله على انفراد، ومعه هل يمكنه أن يدعي قيامه بمعجزة ويتحدى الآخرين على هذا الأساس).

أقول: هذا كلام غريب جداً، فإن من يقول بالمعجزة القرآنية لا يراها متفاوتة مع ما سواها تفاوت كلمات البلغاء والفصحاء بعضهم مع البعض الآخر حتى يقال إن هناك بليغ وأبلغ وفصيح وأفصح تماماً، كما حاول القبانجي أن يصوره في تسابق الرياضيين، بل يدعي إن بلاغة القرآن وفصاحته بلغت حداً إعجازياً لا يمكن معه لأي أحد أن يضاهيها أو يماثلها ولو نحو مماثلة وهذا بنفسه خرق للعادة، فإن التفاوت بين الفصحاء والبلغاء لا يبلغ الحد الذي تخرق معه العادة إلى درجة التي لا يتمكن من هو دون الأفصح أن يأتي بما شابه كلامه أو يقاربه نوع مقاربة على توالي الأجيال وتصرم المدد والاعمار، ألا ترى إلى كلام الأمير (عليه السلام) في نهجه الشريف الذي قيل فيه: {فوق كلام المخلوقين ودون كلام الخالق}[1]، وهو مع صفته الشريفة هذه قد قد وقع الكلام في صحة نسبته بمجموعه إلى الأمير (عليه السلام)، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك في كلام جرجي زيدان وحنا فاخوري، ونفس

---

(١) روائع نهج البلاغة – جورج جرداق: ص١٠.

هذا التشكيك – بغض النظر عن تمامه من عدمه – دليل على إمكان النسج على منوال الكلام الفصيح والنظم على وزان البليغ وهو أمر لا تجد له ذكراً فيما يخص القرآن العظيم، ومن هنا تعرف قيمة دعواه: (وحتى على فرض أن تكون الآيات أقوى على مستوى البلاغة والفصاحة، فإن هذا الامتياز للآيات لا يكون بشكل فاضح وسافر بحيث يمكن أن يعدّ معجزة، ومن مقومات الإعجاز أن يكون بشكل سافر إلى درجة لا يمكن قياسه ومقارنته بفعل البشر..)[1]، فبالله عليك أي امتياز فاضح يطلب أخونا القبانجي أكثر من عجز الإنسانية على امتداد ما يزيد على ألف وأربعمائة عام عن الإتيان بعشر كلمات بليغة تماثل أقصر سورة قرآنية أو تقاربها في أي موضوع أرادته واختارته؟!!

قال القبانجي: (سلّمنا أن القرآن معجزة بلاغية ولم يستطع العرب أن يأتوا بمثله، إلاّ أن ذلك لا ينفعنا من قريب أو بعيد، لأن القضية سوف تكون تاريخية فحسب، ولا يمتد ذلك التحدي القرآني ليشملنا نحن العرب فضلاً عن غيرنا، لاختلاف الأنساق البلاغية ومناهج الفصاحة والبلاغة في هذا الزمان عن زمن نزول القرآن بحيث إن الأساليب البلاغية في عصر نزول القرآن أصبحت قديمة ومرفوضة في الأدب العربي الحديث، فلو أن الأدباء المعاصرين لم يستطيعوا أن يأتوا

---

(١) سر الإعجاز القرآني: ص٥٩– ٦٠.

بمثل القرآن لم يكن دليلاً على ضعفهم الأدبي والبلاغي، بل لأنهم لم يمارسوا مثل هذا الأسلوب الأدبي القديم)[١].

أقول: هذا من عجيب الكلام {وكل كلامه عجيب} والذي لا أغالي إن قلت لم يسبقه أحد إليه من موالف أو مخالف، لأن:

١- نفس هذا العذر الذي ساقه أحمد القبانجي- بعد عمر طويل - يمكن أن يصلح مبرراً لرفض العرب في عصر نزول القرآن الكريم معارضته ورد تحديه، لأن من له أدنى إلمامة بالعلوم الأدبية يعرف أنّ القرآن بلغ في روعة بيانه وبلاغته وتجديده في أساليب البيان إلى درجة جعلت منه - حتى من وجهة نظر غير المؤمنين بربانيته - حدّاً فاصلاً بين مرحلتين من تاريخ اللغة العربية، وأساساً لتحول هائل في هذه اللغة وأساليبها.

وقد أحس العرب الذين حدّثهم النبي (صلى الله عليه وآله) بالقرآن بأنّه لا يشبه إطلاقاً ما ألفوه من أساليب البيان، وما نشأوا عليه وأتقنوه من طرائق التعبير، حتى قال قائلهم حين استمع إلى القرآن: « والله لقد سمعت كلاماً ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، وإنّ له

---

(١) المصدر السابق.

لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق، وإنّه ليعلو وما يعلى، وإنّه ليحطم ما تحت[١].

وقد تقدم ما ذكره جرجي زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية قائلاً: (خرج العرب من جزيرتهم إلى العالم في صدر الإسلام، وليس في أيديهم من الكتب غير القرآن الكريم يقرؤونه ويتعظون به ويتحاكمون إليه، وقد أعجبوا بأسلوبه ودهشوا لبلاغته، لأنه ليس من قبيل ما كانوا يعرفونه من نثر الكهان المسجع ولا نظم الشعراء المقفى الموزون، وقد خالف كليهما وهو منثور مقفى على مخارج الأشعار والأسجاع، فلا هو شعر ولا هو نثر ولا هو سجع، وفيه من البلاغة وأساليب التعبير ما لم يكن له شبيه في لسانهم، فسحروا بأسلوبه وبما حواه من الشرائع والأحكام وقصص الأنبياء....الخ).

وعلى هذا كان لهم تقديم العذر الذي اعتذر به القبانجي هنا بعد ألف وأربعمائة سنة وتزيد على تحدي القرآن الكريم، بيد أنهم لم يفعلوا ولو فعلوا لأراحوا واستراحوا، إيماناً منهم أن القرآن على روعة بيانه وتجديده في الأساليب البيانية وطرائق التعبير لم يصبح - بزعمهم - خارجاً عن مقدورهم ولا أجنبياً عن صناعتهم التي يجيدونها غاية الإجادة.

---

(١) الفتاوى الواضحة - السيد الشهيد الصدر: ص٧٣.

٢- يبدو إن أحمد القبانجي لم يقرع سمعه (وهو المفكر الفذ!) اسم مدرسة الإحياء والبعث الشعرية التي ظهرت في أوائل العصر الحديث، والتي دأب شعراؤها على نظم الشعر وفقا للنهج الذي كان عليه منذ العصر الجاهلي حتى العصر العباسي، حتى إنه قد أقدم الكثير من رواد هذه المدرسة على مناظرة روائع الشعر العربي القديم وتقليدها وزناً وقافية وموضوعاً إلى الحد الذي سميت فيه هذه القصائد بـ: (المعارضة). ولعل أبرز مثال على ذلك ما فعله شوقي في قصيدته نهج البردة التي عارض بها قصيدة البردة للبوصيري!![1]

٣- كان على أحمد القبانجي ان يوضح لنا مالمقصود من تغاير مناهج الفصاحة والبلاغة؟ وماهي الأساليب البلاغية الجديدة التي بتولدها مع الأدب الحديث صارت أساليب العرب بالية وقديمة ومرفوضة؟ وهل سقط اعتبار الفصاحة والبلاغة من الكلام بنثره وشعره رأساً على نحو لم يعد لهما كثير فائدة في أدبنا العربي الحديث؟!

٤-التحدي بعدما تقدم التدليل على عمومه – سابقاً – يثبت أن المطلوب هو أن يأتي المعارض وفي أي معنى شاء من المعاني بنظم يبلغ نظم القرآن، في الشرف أو يقرب منه وليكن من أي نسق بلاغي يختاره.

---

(١) لاحظ الأدب العربي المعاصر في مصر – الدكتور شوقي ضيف: ص٤٢ وما بعدها.

وبكلمة أخرى:

لا نطالبه أن يأتي بمثل صورته الكلامية، كلاّ، وإنّما نطلب كلاماً ـ أياً كان نمطه وأُسلوبه .

بحيث إذا قيس مع القرآن بمقياس الفضيلة البيانية حاذاه أو قاربه، على شاكلة ما يقاس كلمات البلغاء مع بعض، وهذا هو القدر الذي تنافس فيه الأدباء، ويتماثلون أو يتقاربون، لا شيء سواه [1].

٥- لو سلمنا بمقالة القبانجي فإن هذا لن يفت في عضد التحدي القرآني وتمامية حجته على الجيل الحالي كما تمت على الأجيال السابقة من قبل، لأن عدم التمرس في الأسلوب الأدبي القديم الذي ادعاه أخونا القبانجي لا يعني صيرورة متعاطي الأدب الحديث أجانب عنه بنحو تنقطع صلتهم به انقطاعاً تاماً وكأنه من لغة أخرى وثقافة ثانية، كيف ومواده بين أيديهم وأساليبه نصب أعينهم والمطلوب منهم الإتيان بعشر كلمات بليغة تضاهي سورة قرآنية واحدة فقط أو تقاربها، وفي أي معنى كان ولأطول فترة زمنية ممكنة، فهل يستطيعون إلى ذلك سبيلاً؟

---

(١) التمهيد: ج٤، ص٣٢.

٦- معلوم أن القرآن الكريم يمثل القلب النابض لمعارف الإسلام ومنظومته الربانية، واستقراء التأريخ لاسيما القريب منه يؤكد أنه تعرض إلى حملات تشويه كبرى وبدوافع مختلفة، فالدراسات الاستشراقية التي بدأت منذ ما يربو على المائتين عام فتحت الأقسام العلمية والمراكز التخصصية لدراسة ونقد الموروث الإسلامي فخرجت عشرات الباحثين والمتخصصين في الشؤون اللغوية والأدبية والدينية عموماً، وأتباع الأديان الاخرى الذين كانوا ومازالوا يرون المد الإسلامي ينتشر في مجتمعاتهم انتشار النار في الهشيم، وهم معنيون من هذه الناحية في التصدي له وإيقاف أمواجه المدمرة، والدول الاستعمارية التي تعد الإسلام تحدياً عظيماً لحضارتها، وقد صار في العقدين الأخيرين العدو رقم واحد لها لا لأنه يقف حجر عثرة في طريق مشاريعها الشيطانية فحسب بل لأنه أصبح تهديداً لأمنها وأمانها -كما تزعم - حتى لقد تنادى بعض متعصبي سياسيهم بضرورة منع دخول القرآن الكريم إلى أراضيهم وتطرف بعض فدعا إلى اجتثاث (مكة والمدينة) من الوجود!

وبين هذا وذاك تبقى إسرائيل - عدوة الإسلام والمسلمين - أكثر المتضررين والمتوجسين من الإسلام وتعاليمه الداعية صراحة إلى إزالتها من خريطة الوجود.

من هنا خاضت الجهات السالفة الذكر في سبيل تحجيم الإسلام ومحاولة تدجينه حرباً ضروساً، متعددة الأشكال والألوان فمن غزو ثقافي شامل لبلاد الإسلام ومحاولة نشر التغرب بين أبنائها إلى مئات المصنفات التي طالت مفردات المنظومة الإسلامية الربانية، وقد كان للقرآن وحامله (صلى الله عليه وآله) حصة الأسد من التشويه والتشكيك إلى غزو عسكري لأكثر من صقع إسلامي كلف القائمين عليه آلاف مليارات الدولارات وأزهق ما لا عد له من الأرواح، ولعل ضغطهم الشديد لتغيير المناهج الدراسية في البلاد الإسلامية لن يكون آخر وسائل حربهم.

الكل في ذلك مجمع على أن سر قوة المسلمين يكمن في قرآنهم الكريم وتعاليمه المعنوية التي حولت البدو الرحل إلى صنّاع حضارة وتأريخ، والجميع يستشعر أن حجية القرآن ومستندها ترجع إلى تحديه الإنسانية أن تأتي بما ماثله أو قاربه في سطر واحد، وقد كان لهم من دواعي مجابهته والوقوف بوجهه ما إن لم يفق دواعي مشركي العرب لم يقل عنها، لكنهم عجزوا عن هذا رغم مراكزهم البحثية ومعاهدهم العلمية الشهيرة والتي طال بحثها جميع مفردات الفكر الإسلامي، ورغم إمكاناتهم الاقتصادية الهائلة التي تستطيع شراء أدباء الدنيا ومفكريها إن لم يكونوا بذاتهم قادرين على القيام بمهمة المعارضة المطلوبة.

فهل هناك شهادة على العجز أبلغ من هذه؟

لا يفوتنا في الأخير أن نطرح على القبانجي سؤالاً متمنيين عليه أن يجيب عنه إجابة وجدانية!

وسؤالنا هو: لو دعت جهة ثقافية مؤثرة أدباء اليوم إلى مسابقة أدبية رصدت لها الجوائز الخطيرة ووعدت من يحرز قصب السبق فيها المنزل الرفيع والمقام المحمود وخلود الذكر، وقد كان مضمون المسابقة يتركز على الإتيان بما يضاهي أو يقارب بعض أشعار المتقدمين أو نثرهم على ألا يتعدى ذلك سطراً أو سطرين، فهل يقضي وجدانك – أيها القبانجي – بأن جمهور الأدباء سيعلنون عدم قدرتهم على ذلك بحجة اختلاف الأنساق البلاغية ومناهج الفصاحة والبلاغة في هذا الزمان عن زمن الأولين، بحيث إن الأساليب البلاغية في عصرهم السالف أصبحت قديمة ومرفوضة في الأدب العربي الحديث وما عاد أدباء عصرنا يتعاطونها ولا يمارسونها؟

الفصل الثاني

الصرفة

قال أحمد القبانجي في ص ٦١ من سر الإعجاز: (... هذا وقد تصدى غير واحد من العلماء والمفسرين إلى دحض هذه المقولة وإثبات أن القرآن معجز من حيث الفصاحة والبلاغة لا من حيث القول بالصرفة، ولكنك سترى أن أجوبتهم وردودهم لا تقوم على شيء من البرهان العقلي والمنطقي، ولم يأتوا بحجة مقنعة لإبطال مذهب الصرفة المذكور.

ونبدأ في استعراض ما ذكر لإبطال الصرفة بما قرره الشيخ السبحاني في «الإلهيات» في هذا المجال حيث قال:

«والحق أنّها (نظرية الصرفة) ليست بنظرية قيمة قابلة للاعتماد، وقد أورد عليها وجوه من النقاش والإشكال نكتفي بذكر ثلاثة منها:

الأول: إن المتبادر من آيات التحدّي أن القرآن في ذاته متعال، حائز أرقى الميزات وكمال المعجزات حتى يصح أن يقال في حقه بأنه لو اجتمع الجن والإنس... الخ. وإلى هذا الوجه يشير الخطابي[1] بقوله:

---

(١) هو أبو سليمان محمد بن محمد إبراهيم الخطابي المتوفى سنة ٣٨٨ هجري.

(إن قوله سبحانه: «قل لئن اجتمعت الإنس والجن» الآية: يشهد بخلاف هذه النظرية، لأنها تشير إلى أمر طريقه التكلف والاجتهاد، وسبيله التأهب والاحتشاد، وما فسرت به الصرفة لا يلائم هذه الصفة.

الثاني: لو كان عجز العرب عن المقابلة لطارئ مباغت أبطل قواهم البيانية، لأثر عنهم أنهم حاولوا المعارضة، ففوجئوا بما ليس في حسبانهم، ولكان ذلك مثار عجب لهم، ولأعلنوا ذلك في الناس، ليلتمسوا العذر لأنفسهم وليقللوا من شأن القرآن في ذاته. وقد أشار إلى هذا الوجه علي بن عيسى الرماني في «نكت الإعجاز» كما أشار إليه الإمام يحيى بن حمزة العلوي.

الثالث: لو كان الوجه في إعجاز القرآن هو الصرفة كما زعموا، لما كانوا مستعظمين لفصاحة القرآن، ولما ظهر منهم التعجب لبلاغته وحسن فصاحته كما أثر عن الوليد بن المغيرة، فإن المعلوم من حال كل بليغ فصيح سمع القرآن يتلى عليه، أنه يدهش عقله ويحير لبه وما ذاك إلا لما قرع مسامعهم من لطيف التأليف وحسن مواضع التصريف في كل موعظة وحكاية كل قصة، فلو كان كما زعمه أهل الصرفة لم يكن

للتعجب من فصاحته وجه، فلما علمنا بالضرورة إعجابهم بالبلاغة، دلّ على فساد هذه المقالة»[1].

وبعد إيراده لبيانات المحقق السبحاني يعلق القبانجي قائلاً: (... وأنت خبير بما في هذا البيان من الخلل والقصور، فالتحدي للإنس والجن لا ينافي أن الله تعالى قد صرفهم عن الإتيان بمثله وسلبهم المقدرة عن مجاراة بلاغته وفصاحته.

والتبادر المدعى في جوابه الأول لا يكون له شأن إلاّ في دائرة البحث اللغوي والبلاغي لا في دائرة البرهان العقلي والمنطقي.

أما ما ذكره ثانياً من أن الصرف الإلهي لو كان لأثر عنهم ذلك، ولكان مثار عجب لهم، فهو من غريب الكلام، فأي ملازمة بين أن يصرف الله تعالى المنتحلين والمحرفين عن المساس بآيات القرآن من موقع موقع التحريف والعبث بآياته وسوره على مستوى الزيادة والنقصان، وبين أن ينتبهوا إلى أن الله قد سلبهم القدرة وصرفهم عن ممارسة التحريف لكتاب الله؟ فما وقع للعرب في دائرة التحدي القرآني وعجزهم عن الإتيان بمثله لصارف إلهي لا يلازم بالضرورة علمهم بوجود هذا الصارف الغيبي.

---

(١) الإلهيات: ج٣، ص٣٤٩- ٣٥٠.

وأما الثالث من بيانه فهو ثالثة الأثافي، وكأن تعجب الوليد بن المغيرة من بلاغة القرآن يكفي شاهداً على هذا الادعاء العظيم، وأن هذا الكتاب هو كلام الله تعالى!! وما أكثر ما تعجب أهل البلاغة والفصاحة من خطب الإمام علي (عليه السلام) واستعظموا بلاغتها ودقة معانيها كما مر علينا آنفاً، إلاّ أنّه لم يدع أحد أنّه كلام الله، وما أكثر ما نتعجب نحن من مصنوعات البشر وما وصل إليه الإنسان في دائرة التقدم العلمي والتكنولوجي، ولا يلازم ذلك أن نرتفع في صانع هذه الأدوات والمصنوعات إلى مستوى الآلهة!!)[1].

ويضيف أحمد القبانجي: (... هذا والعجيب من الشيخ السبحاني وأضرابه أنهم لم يتعرضوا لدليل القائلين بالصرفة بالذكر ولم يوردوا له جواباً. وكان الأحرى بهم التحرك نحو حل ذلك الإشكال الذي دعا أولئك الأساطين من أهل المعرفة من علماء الشيعة والمعتزلة إلى سلوك مذهب الصرفة، وهو إشكال صدور القرآن من الجن أو الملائكة، ولا أظن أحداً يقدر على الخروج بمخلص منه إلاّ بالقول بالصرفة، أو بما انتهينا إليه من الفصل بين المعجزة المنصوبة والمنسوبة واستخدام منهج العقل الوجداني في إثبات الإعجاز القرآني)[2].

---

(١) سر الإعجاز القرآني: ص٦٣.

(٢) المصدر نفسه.

أقول:

١- تقدم منا سابقا اثبات إمكانية التفصي عن إشكال صدور القرآن الكريم من الجن أو الملائكة أو موجودات اخرى وبأدنى مؤونة ولا نعتقد أن هذا الإشكال يمثل عقبة أمام من عبر عنهم القبانجي بـ: (الأساطين من أهل المعرفة من علماء الشيعة والمعتزلة.....الخ).

٢- أحمد القبانجي يجعل من الإشكال السالف سبباً تاماً للقائلين بالصرفة نحو تبني هذا الرأي وهو جعل من عنده ياته ولا شاهد عليه في كلمات هؤلاء الأعلام، اللهم إلا ما نقله عن علم الهدى (قده) وهو غير ظاهر في التدليل على ما يدعيه، لأن أقل ما فيه هو: إن الصرفة تختص بعالمنا هذا بعد أن ثبت وبالضرورة التاريخية إحجام الفصحاء والبلغاء عن معارضة القرآن الكريم، إلا إن هذا لا يتعدى إلى عوالم أخرى مع افتراض عدم التأكد من تكرار ما حصل للعرب لموجودات تلك العوالم وهو: (... أن الله تعالى صرف - الجن والملائكة - عن أن يأتوا من الكلام بما يساوي أو يضاهي القرآن في فصاحته وطريقته ونظمه، بأن سلب كل من رام المعارضة العلوم التي يتأتى ذلك بها.....)، ولا يحتمل أن يكون هذا الأمر قد غاب على مثل علم الهدى (قده) حتى يجعل القبانجي سبب قوله بالصرفة راجعا إلى إشكالية صدور القرآن من الجن أو الملائكة.

٣- المتتبع لكلمات القائلين بالصرفة يجد أن الذي حدا بهم إلى هذا القول هو مجموع أمرين:

أ- تقدم منا إن العرب بلغوا في صناعة الكلام وحسن صياغته وسبكه الشأن العظيم الذي لم يبلغه أحدٌ من البشر ولا حكي عن إحدى الأمم السابقة واللاحقة، وتراثهم الأدبي شاهد صدق على هذا.

ب- إن هؤلاء الذين بلغوا شأواً بعيداً في الفصاحة والبلاغة تحداهم الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) بأن يأتوا بسورة واحدة تضاهي القرآن الكريم ومن البعيد عند أرباب مذهب الصرفة أن يعجز بلغاء العرب وفصحائهم بدون مانع قاهر عن هذا الطلب السهل في ظاهره إلا بمانع وقاهر خارجي، قال النظام: (الآية والأُعجوبة في القرآن ما فيه من الإخبار عن الغيوب، فأما التأليف والنَّظم، فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أنّ الله منعهم بمنع وعجز أَحدثهما فيه). وقال أيضاً في إعجاز القرآن: (وإنّه من حيث الإخبار عن الأُمور الماضية ومنع العرب عن الاهتمام به جبراً وتعجيزاً، حتى لو خلاّهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله، بلاغةً وفصاحةً ونظماً)[1].

---

(١) الإلهيات: ج٣، ص٣٢٠.

يقول ابن سنان الخفاجي في سر الفصاحة:

«إنّ الصحيح أنّ إعجاز القرآن هو صرف العرب عن معارضته، وأنّ فصاحته كانت في مقدورهم لولا الصرف)[١].

أما لماذا اختار القول بالصرف فهو ظاهر من قوله في موضع آخر: «متى رجع الإنسان إلى نفسه، وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار، وجد في كلام العرب ما يضاهي القرآن في تأليفه)[٢].

ونفس الأمر تقريباً يظهر من العلامة فخر الدين الرازي في تفسيره: (... فإن قيل: قوله (فأتوا بسورة من مثله) يتناول سورة الكوثر وسورة العصر، وقل يا أيها الكافرون) ونحن نعلم بالضرورة أن الإتيان بمثله أو بما يقرب منه ممكن. فإن قلتم: إن الإتيان بمثل هذه السور خارج عن مقدور البشر كان مكابرة، والإقدام على هذه المكابرات مما يطرق بالتهمة إلى الدين: قلنا: فلهذا السبب اخترنا الطريق الثاني، وقلنا: إن بلغت هذه السورة في الفصاحة حد الإعجاز فقد حصل

---

(١) سر الفصاحة – ابن سنان: ص٨٩.

(٢) المصدر السابق: ص٢١٧.

المقصود، وإن لم يكن كذلك، كان امتناعهم من المعارضة مع شدة دواعيهم إلى تهوين أمره معجزاً، فعلى التقديرين يحصل المعجز)[١].

ومقصوده من الطريق الثاني هو القول بالصرفة وهذا ما جاء في قوله من تفسيره عند بحثه عن إعجاز القرآن الكريم:

(الطريق الثاني: أن نقول: القرآن لا يخلوا إما أن يقال إنه كان بالغاً في الفصاحة إلى حد الإعجاز، أو لم يكن كذلك فإن كان الأول ثبت أنه معجز. وإن كان الثاني كانت المعارضة على هذا التقدير ممكنة فعدم إتيانهم بالمعارضة مع كون المعارضة ممكنة ومع توفر دواعيهم على الإتيان بها أمر خارق العادة، فكان ذلك معجزاً فثبت أن القرآن معجز على جميع الوجوه وهذا الطريق عندنا أقرب إلى الصواب)[٢].

من هنا قال الشيخ السبحاني في الإلهيات: (ورابعاً: فإنّ القول بالصرفة نجم من الاغترار بما روي من رشيق الكلمات، وبليغ العبارات، عن العرب، فزعم هؤلاء أن كل من قدر على تلك الأساليب البلاغية، يقدر على المعارضة، إلاّ أنّه سبحانه عرقلهم عنها وثبطهم فيها.

---

(١) تفسير الرازي: ج ٢، ص١١٧.

(٢) المصدر نفسه.

ولكن أين الثرى من الثريا، وأين المدر من الدرر، وليس إعجاز القرآن رهن العذوبة والأناقة فقط، وإنّما هو رهن حلاوة ألفاظه وسمو معانيه، ورصانة نظمه ـ على وجه لو غُيّرت كلمة أو جملة منه، لم يكن أن يؤتى بدلها بلفظة هي أوفق من تلك اللفظة ـ وبداعة أسلوبه، مجتمعة. فهذه الأُمور بجملتها، أضفت على الكلام جمالاً رائعاً لا يجد الإنسان له مثيلاً في كلام من غَبر وسبق، أو تَبع ولَحق. فهو بنظمه العجيب، وأسلوبه الغريب، وملاحته وفصاحته الخاصة، ومعانيه العميقة، تحدّى الإنس والجن، ولأجل ذلك لم يجد العرب لإغراء البسطاء، إلاّ تفسيره بالسحر، لأنّه يأخذ بمجامع القلوب، كلما يأخذ السحر به)[1].

والمتحصل من كلام الفخر أن سبب القول بالصرفة هو ان اعتبار الإتيان بمثل السور القصيرة خارج عن مقدور البشر مكابرة، والإقدام على هذه المكابرات مما يطرق بالتهمة إلى الدين، لذا لا مناص من القول بالصرفة لا ان السبب الأساسي هو احتمال صدور القرآن عن الجن أو الملائكة كما حاول القبانجي ان يصوره في رغبة واضحة لتمهيد القول بإعجازه الوجداني رغم إن الرازي نفسه – وهو من القائلين بالصرفة – يستبعد هذا الاحتمال ولا يجد منافاة بين الصرفة وبين

---

(١) الإلهيات: ج٣، ص٣٤٦.

رفض صدور القرآن الكريم عن عالم الجن والملائكة لذا يقول في تفسيره:

(المسألة الثانية: لقائل أن يقول هب أنه قد ظهر عجز الإنسان عن معارضته فكيف عرفتم عجز الجن عن معارضته؟ وأيضاً فلم لا يجوز أن يقال إن هذا الكلام نظم الجن ألقوه على محمد (صلى الله عليه وسلم) وخصوه به على سبيل السعي في إضلال الخلق فعلى هذا إنما تعرفون صدق محمد (صلى الله عليه وسلم) إذا عرفتم أن محمداً صادق في قوله أنه ليس من كلام الجن بل هو من كلام الله تعالى فحينئذ يلزم الدور وليس لأحد أن يقول كيف يعقل أن يكون هذا من قول الجن لأنا نقول إن هذه الآية دلت على وقوع التحدي مع الجن، وإنما يحسن هذا التحدي لو كانوا فصحاء بلغاء، ومتى كان الأمر كذلك كان الاحتمال المذكور قائماً. أجاب العلماء عن الأول بأن عجز البشر عن معارضته يكفي في إثبات كونه معجزاً وعن الثاني أن ذلك لو وقع لوجب في حكمة الله أن يظهر ذلك التلبيس وحيث لم يظهر ذلك دل على عدمه وعلى أنه تعالى قد أجاب عن هذا السؤال بالأجوبة الشافية الكافية في آخر سورة الشعراء في قوله:

(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تنزَّلُ الشَّيَاطِينُ تنزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ)[١].

وقد شرحنا هذه الأجوبة هناك فلا فائدة في الإعادة.

٤- قوله: (...هذا والعجيب من الشيخ السبحاني واضرابه أنهم لم يتعرضوا لدليل القائلين بالصرفة بالذكر ولم يوردوا له جواباً....الخ)[٢].

جواباً....الخ)[٢].

أقول: له الحق في تعجبه هذا بعد قلة اطلاعه وعدم إلمامه بأبحاث موضوعات كتابه واستيفاء كلمات الاعلام في هذا الصدد، والغريب أن الرجل يجعل من بحث السيد الخوئي (قده) للصرفة في كتابه: (مدخل البيان) والشيخ السبحاني في الإلهيات أحد موضوعات نقده وتفنيده لكنه يغمض العين عن كلام العلمين في سبب قول النظام وأصحابه بالصرفة، رغم إنهما يذكران السبب وفي نفس الموضع الذي نقل القبانجي كلامهما منه!

يقول السيد الخوئي (قده) في البيان[٣]:

---

(١) تفسير الرازي: ج٢١، ص٥٤.

(٢) سر الإعجاز القرآني: ص٧٨.

(٣) البيان في تفسير القرآن: ص٨٣.

وقالوا: (....وقالوا إن العارف باللغة العربية قادر على أن يأتي بمثل كلمة من كلمات القرآن.

وإذا أمكنه ذلك أمكنه أن يأتي بمثل القرآن، لأن حكم الأمثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحد.

الجواب: إن هذه الشبهة لا تليق بالذكر، فإن القدرة على الإتيان بمثل كلمة من كلمات القرآن، بل على الإتيان بمثل جملة من جمله لا تقتضي القدرة على الإتيان بمثل القرآن، أو بمثل سورة من سوره، فإن القدرة على المادة لا تستلزم القدرة على التركيب.

ولهذا لا يصح لنا أن نقول: إن كل فرد من أفراد البشر قادر على بناء القصور الفخمة، والصروح الضخمة، لأنه قادر على وضع آجرة في البناء، أو نقول: إن كل عربي قادر على إنشاء الخطب والقصائد، لأنه قادر على أن يتكلم بكل كلمة من كلماتها ومفرداتها. وكأن هذه الشبهة هي التي دعت (النظام) وأصحابه إلى القول بأن إعجاز القرآن بالصرفة).

أما الشيخ السبحاني فقد تقدم قوله: (... فإنّ القول بالصرفة نجم من الاغترار بما روي من رشيق الكلمات، وبليغ العبارات، عن العرب، العرب، فزعم هؤلاء أن كل من قدر على تلك الأساليب البلاغية، يقدر على المعارضة، إلاّ أنّه سبحانه عرقلهم عنها وثبطهم فيه....الخ).

ترى لماذا فعل أحمد القبانجي هذه الفعلة؟!

حقا لأمر ما جدع قصير أنفه!

٥- أورد الشيخ السبحاني في الإلهيات تحت عنوان: (مذهب الصرفة) في تنبيهه الثالث عشرة أدلة لإبطال القول بالصرفة لكن أخانا القبانجي انتقى ثلاثاً منها وغض الطرف عن البواقي دون وجه ظاهر، وفي ظني(وليس كل ظن اثم) انه انما مارس هذه الانتقائية توهماً منه إنه يمكنه ردها جميعاً ليسهل عليه بالتالي إقناع القارئ غير المطّلع على تلك الردود بخطابيته التي سجلها في بداية البحث: (ولكنك سترى أن اجوبتهم وردودهم لا تقوم على شيء من البرهان العقلي والمنطقي، ولم يأتوا بحجة مقنعة لإبطال مذهب الصرفة المذكور)!!

٦- قوله: (.... فالتحدي للإنس والجن لا ينافي أن الله تعالى قد صرفهم عن الإتيان بمثله وسلبهم المقدرة عن مجاراة بلاغته وفصاحته.

والتبادر المدعى في جوابه الأول لا يكون له شأن الاّ في دائرة البحث اللغوي والبلاغي لا في دائرة البرهان العقلي والمنطقي)[1].

---

(١) سر الإعجاز القرآني: مصدر سابق.

أقول: أنا بخلل وقصور كلام القبانجي أخبر مني بأي خلل أو قصور مدعى في كلام العلامة المحقق السبحاني للأسباب التالية:

أولا- إن الحق تبارك وتعالى قد تحدى الإنس والجن أن يأتوا بمثل القرآن وإنه أخبر عن عدم تمكنهم من ذلك ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً وهذا إنما ينسجم مع بقاء قدرتهم إذ لو كانوا مسلوبي القدرة (لم تبق فائدة لاجتماعهم، لمنزلته منزلة اجتماع الموتى، وليس عجز الموتى مما يحتفل بذكره.....)[1].

ثانياً- أما قوله: (والتبادر المدعى في جوابه الأول لا يكون له شأن إلاّ في دائرة البحث اللغوي والبلاغي لا في دائرة البرهان العقلي والمنطقي). ففيه غفلة لا تغتفر لأنه:

أ- إن الصرفة - عند القائلين بها - تفسير للإعجاز لا إنها نفسه فلابد حينئذ أن تتأخر عنه رتبة.

وبكلمة أخرى:

إن الذي نفهمه من كلام القبانجي هو ضرورة عدم اللجوء إلى الأبحاث اللغوية والأدبية في مقام إثبات الإعجاز، لأن تلك الابحاث إنما

---

(١) الإتقان في علوم القرآن – السيوطي: ج ٢، ص٣١٤.

تأتي بعد الفراغ من تحقق الإعجاز القرآني باعتبارها متفرعة عليه ونحن بعد لم ننته من هذا الإثبات، ومعلوم أن هذه المهمة إنما تتكفل بها البراهين العقلية لا الأدلة الاعتبارية.

وغير خاف أن هذا الكلام يخلط بين أصل الإعجاز ووجهه، لأن القائلين بالصرفة كما غيرهم يرون القرآن معجزاً، وأن عجز البشر عن معارضته قد تحقق بالضرورة التاريخية لكنهم يريدون تفسير هذا الإعجاز فهل هو أمر راجع إلى نفس القرآن الكريم –كما هو المعروف – أو خارج عنه – كما عليه أرباب الصرفة–؟

من هنا يمكن لأي أحد من الطرفين اللجوء إلى القرآن باعتباره الكتاب الإلهي الذي ثبتت ربانيته قبل بحث هذه المسألة واستنطاقه حولها وبيان وجه الحق فيها.

ب– حتى لو لم نؤمن بربانية القرآن الكريم وتعاطينا معه كأي مؤلف عادي، فإن هذا لا يفقد الاحتكام إليه والاستعانة بالمتبادر منه حول هذه المسألة قيمتها الموضوعية تماماً كما نفعل مع أي كتاب أخر نستعين بظهوراته وبما يتبادر منه لمعرفة مرادات كاتبه.

وعلى هذا يمكن لأي أحد – حتى من غير المؤمنين – أن يلجئ إلى القرآن لمعرفة حقيقة الحال في إعجازه الذي يدعيه ويثبته لنفسه.

٧- قوله: (أما ما ذكره ثانياً من أن الصرف الإلهي لو كان لأثر عنهم ذلك ولكان مثار عجب لهم، فهو من غريب الكلام، فأي ملازمة بين أن يصرف الله تعالى المنتحلين والمحرفين عن المساس بآيات القرآن من من موقع التحريف والعبث بآياته وسوره على مستوى الزيادة والنقصان، وبين أن ينتبهوا إلى أن الله قد سلبهم القدرة وصرفهم عن ممارسة التحريف لكتاب الله؟ فما وقع للعرب في دائرة التحدي القرآني وعجزهم عن الإتيان بمثله لصارف إلهي لا يلازم بالضرورة علمهم بوجود هذا الصارف الغيبي)[1].

أقول: عجبي لا ينقضي من أحمد القبانجي الذي يحمل كلمات الأعلام ما لا تحتمله ويقولهم ما لم يقولوه وما نقطع بعدم إرادتهم إياه، ثم يرتب عليها لوازمه الفاسدة ومؤاخذاته السطحية!

ترى أين قال الشيخ السبحاني - دام ظله - بأن معنى الصرفة هي: (أن يصرف الله تعالى المنتحلين والمحرفين عن المساس بآيات القرآن من موقع التحريف والعبث بآياته وسوره على مستوى الزيادة والنقصان) حتى يتساءل أخونا القبانجي عن السر المستسر وراء الملازمة بينها وبين: (أن ينتبهوا إلى أن الله قد سلبهم القدرة وصرفهم عن ممارسة التحريف لكتاب الله)؟!

---

(١) سر الإعجاز القرآني: ص٨٠.

ونعيد عليك كلام المحقق السبحاني لتتأمل فيه أيها القارئ الكريم لعل فيه شيئا زاغ البصر عنه: (..لو كان عجز العرب عن المقابلة لطارئ مباغت أبطل قواهم البيانية، لأثر عنهم انهم حاولوا المعارضة، ففوجئوا بما ليس في حسبانهم، ولكان ذلك مثار عجب لهم، ولأعلنوا ذلك في الناس، ليلتمسوا العذر لأنفسهم وليقللوا من شأن القرآن في ذاته).

هل كلام الشيخ هذا عن الصرفة بمعنى عدم معارضة المشركين للقرآن أو عدم ممارستهم التحريف لكتاب الله العزيز؟

أجيبونا يا أولي الألباب وذوي الأفهام؟!

٨- قوله: (وأما الثالث من بيانه فهو ثالثة الأثافي، وكأن تعجب الوليد بن المغيرة من بلاغة القرآن يكفي شاهداً على هذا الادعاء العظيم وأن هذا الكتاب هو كلام الله تعالى!! وما أكثر ما تعجب أهل البلاغة والفصاحة من خطب الإمام علي (عليه السلام) واستعظموا بلاغتها ودقة معانيها كما مر علينا آنفاً، إلاّ أنّه لم يدع أحد أنّه كلام الله.....الخ)[1].

---

(١) المصدر السابق.

أقول: لو جاء أحمد القبانجي بتمام كلام السبحاني في هذه النقطة لربما اتضح الحال في بيان دلالته على مراده لكن الرجل أجمل كلام الشيخ وداخله مع كلام يحيى بن الحسين العلوي وأظهره بمظهر الكلام الخطابي الخالي عن الدليل!

والآن دعنا نتأمل أيها القارئ الكريم في تمام كلام الشيخ السبحاني لعل مراده يتضح لنا.

يقول الشيخ في الإلهيات[1] في إيراده الثالث على مذهب الصرفة: (... فلو كان العرب قبل البعثة قادرين على الإتيان بكلام يشبه القرآن ويضاهيه، فلماذا اندهش الوليد بن المغيرة عندما سمع آيات من سورة فصلت وقال: «لقد سمعت من محمد كلاماً لا يشبه كلام الإنس والجن)، ولماذا ارتمى عتبة بن ربيعة مدهوشاً مبهوتاً ملقياً يديه وراء ظهره متكياً عليهما، مشدقاً بفيه مصعوقاً عندما سمع بعض آيات القرآن من النبي الصادع بالحق. فلو كانت فصاحة القرآن وبلاغته أو نظمه وأُسلوبه من حيث العذوبة والأناقة على نمط كلام الآخرين من فصحاء العرب وبلغائهم، فلم اهتزوا وتأثّروا بسماع آية أو آيات منه ولم تكن لهم هذه الحالة في سماع شعر امرئ القيس، ولا عنترة، ولا

---

(١) الإلهيات: ج٣، ص٣٤٥.

غيرهما من أصحاب المعلقات، ولا من سماع خطب قس بن ساعدة وسحبان بن وائل وغيرهما من أصحاب الخطب والكلام.

وإلى هذا الوجه يشير الإمام يحيى بن حمزة العلوي في نقد هذا المذهب، ويقول: " لو كان الوجه في إعجازه هو الصرفة كما زعموا، لما كانوا مستعظمين لفصاحة القرآن، فلما ظهر منهم التعجب لبلاغته وحسن فصاحته، كما أثر عن الوليد بن المغيرة حيث قال: «إنّ أعلاه لمورق، وإنّ أسفله لَمُعْذق، وإنّ له لطلاوة، وإنّ عليه لحلاوة»، فإنّ المعلوم من حال كل بليَغ وفصيح سمع القرآن يتلى عليه فإنّه يدهش عقله ويحير لبه، وما ذاك إلاّ لما قرع مسامعهم من لطيف التأليف وحسن موانع التصريف في كل موعظة، وحكاية كل قصة، فلو كان كما زعموه من الصرفة، لكان العجب من غير ذلك، ولهذا فإنّ نبياً لو قال: إنّ معجزتي أن أضع هذه الرمانة في كفي. وأنتم لا تقدرون على ذلك، لم يكن تعجب القوم من وضع الرمانة في كفه، بل كان من أجل تعذّره عليهم، مع أنّه كان مألوفاً لهم، ومقدوراً عليه من جهتهم. فلو كان كما زعمه أهل الصرفة، لم يكن للتعجب من فصاحته وجه. فلما علمنا بالضرورة إعجابهم بالبلاغة، دلّ على فساد هذه المقالة".

وما أجاب به الشيخ الطوسي عن هذا الدليل بأنّ من قال بالصرفة لا ينكر مزية القرآن على غيره بالفصاحة والبلاغة، وإنّما يقول هذه المزية ليست ممّا تخرق العادة ويبلغ حدّ الإعجاز، فليس في طرب

الفصحاء وشهادتهم بفصاحة القرآن وفرط براعته ما يوجب بطلان القول بالصرفة، غير تام، إذ لو كان مثل القرآن متوفراً في الأوساط الأدبية قبل البعثة، لما كان لهذا الطرب والاهتزاز والانبهار والتضعضع، وجه وجيه، لأنّ المفروض أنّ القرائح العربية لم تكن قاصرة قبل البعثة عن إبداع أمثاله، وسمعت آذانهم كثيراً من هذا النمط من الكلام وإن قصرت من بعد. ولو كانت قرائحهم قادرة قبل البعثة على إنشاء كلام مثل القرآن، فلماذا جمع الوليد صناديد قريش وقال لهم: «إنّ العرب يأتونكم فينطلقون من عندكم على أمر مختلف، فأجمعوا أمركم على شيء واحد، ما تقولون في هذا الرجل؟ الخ (فلو كانت قرائحهم كافية قبل صرف هَممهم، أو سلب علومهم، أو إلجائهم على الانقباض في مقام معارضتهَ ـ لكان الجواب عن قرآن الرجل واضحاً، وهو أنّه كلام عادي ما أكثره بيننا، وأكثر مثله في كلام خطباء العرب وشعرائهم) انتهى.

والواضح البين أن المحقق السبحاني في صدد القول إن العرب قد وصلوا الغاية في الكمال البلاغي وإن هذا يمكّنهم من إبداع مثل القرآن بلاغة قبل زمان نزوله وإن تلك القرائح الراقية ما كان لها أن يهيلها أمر القرآن الكريم إلى الحد الذي كانوا معه يمنعون أنفسهم من سماعه خوفاً من الوقوع تحت تأثيره، ولم يجدوا بعد طول تفكير وتقدير إلا أن يصفوه بالسحر: (إنه فكر وقدر* فقتل كيف قدر* ثم قتل كيف

قدر* ثم نظر* ثم عبس وبسر* ثم أدبر واستكبر* فقال إن هذا إلا سحر يؤثر* إن هذا إلا قول البشر)[1].

فكيف تنسجم أفعالهم هذه وأقوالهم تلك وهم في غاية البلاغة والفصاحة مع دعوى أرباب الصرفة القائلة: كان يمكن للعرب الإتيان بمثله أو أن في كلامهم ما يضاهيه؟!

على إننا نرضى بجعل نهج البلاغة معجزاً وله مقام القرآن الكريم بشرط أن يقول فيه أهل البلاغة وأرباب الفصاحة ما قاله الوليد في القرآن الكريم (والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الأنس ولا من كلام الجن إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وأنه يعلو وما يعلى عليه).

ومعلوم أن مجرد تعجب أهل البلاغة والفصاحة من خطب الإمام علي (عليه السلام) واستعظامهم بلاغتها ودقة معانيها شيء والقول إن هذا الكلام خارج عن طور الكلام البشري وبعيد عن متناول قدرة الإنسانية شيء آخر.

وعلى هذه قس ما سواها من آلات القبانجي ومخترعاته العظيمة!

---

(١) سورة المدثر: الآيات ١٨- ٢٥.

يقول القبانجي[١]: (وأعجب مما ذكر في رد القول بالصرفة هو ما أورده السيد الخوئي في "البيان"، حيث قال:

«وهذا القول . أي القول بالصرفة . في غاية الضعف:

أولاً: لأن الصرفة التي يقولون بها، إن كان معناها أن الله قادر على أن يقدر بشراً على أن يأتي بمثل القرآن، ولكنه تعالى صرف هذه القدرة من جميع البشر، ولم يؤتها لأحد منهم فهو معنى صحيح، ولكنه لا يختص بالقرآن، بل هو جار في جميع المعجزات!! "ثم ماذا؟ فعلى فرض إنه جار في جميع المعجزات فهل يبطل القول بالصرفة؟".

وإن كان معناها أن الناس قادرون على أن يأتوا بمثل القرآن. ولكن الله صرفهم عن معارضته فهو واضح البطلان، لأن كثيراً من الناس قد تصدّوا لمعارضة القرآن، فلم يستطيعوا ذلك. واعترفوا بالعجز. "فنفس عجزهم وعدم استطاعتهم يدل على الصرفة، وكأن السيد تصور أن القول بالصرفة يعني صرفهم عن أصل التصدي والمعارضة".

---

(١) سر الإعجاز القرآني: ص٨١.

ثانياً: لأنه لو كان إعجاز القرآن بالصرفة لوجد في كلام العرب السابقين مثله قبل أن يتحدى النبي البشر ويطالبهم بالإتيان بمثل القرآن، ولو وجد ذلك لنقل وتواتر لتكثر الدواعي إليه».

وهذا أعجب من سابقه، لأن العرب لم يكونوا في صدد الاتصال بعالم الغيب والإتيان بكتاب من الله للبشر حتى يقال هذا الكلام، بل كان ديدنهم الشعر، ومعلوم أن الشعر أبلغ من النثر، ومعه لا حاجة لهم إلى الإتيان بنثر بليغ يوازي القرآن الكريم في بلاغته، وقد تقدم أن القرآن بمجرده وبغض النظر عن كونه كلام الله لا يعد معجزة بلاغية، وبالإمكان العثور على بعض النصوص الأدبية وخاصة من نهج البلاغة هي أبلغ من بعض آيات القرآن الكريم.....الخ).

أقول:

لئن كان هناك كلام يصدق على مؤاخذات القبانجي على السيد الخوئي (قده) فهو كلام القبانجي نفسه عندما سطر على عادته كلمات طنانة وعبائر رنانة على إيردات - أساطين الفكر - من أمثال: (الطحالب، الخطابيات، الاستحسانات...الخ) ربما رغبة في إخفاء خواء تلك الملاحظات وسطحيتها حد السذاجة!

وبعد هذا يمكن تسجيل أكثر من نقطة على إيراداته السابقة:

١- قوله: (ثم ماذا؟ فعلى فرض إنه جار في جميع المعجزات فهل يبطل القول بالصرفة؟) فيه غفلة عن مراد السيد الخوئي (قده) الواضح لأصاغر الطلبة فضلاً عن أكابرهم بأحد بيانين:

الأول:

مؤدى كلام السيد الخوئي (قده) هو: إن الصرفة إن كانت بمعنى أن الله تعالى يمكن أن يعطي قدرة لأحد من الناس لأن يأتي بما يعارض القرآن فهو معنى صحيح في نفسه، لأنه يقع في دائرة الإمكان ومعلوم أن لو كان الإتيان بما ماثل القرآن الكريم ممتنعاً في نفسه لكان نفس صدور القرآن من النبي الخاتم (صلى الله عليه وآله) ممتنعاً، لأن قدرة الله لا تتعلق بالمحالات الذاتية والمفروض أن ما يضاهي القرآن ويماثله يقع ضمن دائرة الممتنعات فلابد أن يكون القرآن ممتنعاً، لأنه يقع ضمن نفس الدائرة ومعلوم أن حكم الأمثال في ما يجوز وما لا يجوز واحد، نعم عدم الامتناع النظري شيء والاستحالة الوقوعية شيء آخر ولا تهافت بينهما إذ ان من الأشياء ما هو ممكن نظرياً بيد أنه مستحيل عملياً ولعل فكرة امتناع الذنب عن المعصوم من هذا القبيل.

من هنا يورد السيد الخوئي (قده) على القائلين بالصرفة إنكم إن أردتم هذا المعنى منها(أي صرف القدرة من جميع البشر) فهو ليس باطلاً في نفسه، بيد أن هذا الأمر يجري في جميع معاجز الأنبياء ولا خصوصية

هنا للمعجزة القرآنية حتى تفردوها بالبحث وتخصوها بإعجاز الصرفة، لأننا قلنا قبل قليل إن المراد من الصرفة هو إمكان أن يقدر الله تعالى أحداً من الناس أو جميعهم على الإتيان بما يماثل المعجز النبوي لكنه تعالى صرف هذه القدرة عن جميع البشر، ومن هنا فهل تلتزمون بشمول الصرفة لسائر معاجز الأنبياء؟ أي هل تقبلون بأن الناس إنما لم يعارضوا معاجز الأنبياء (عليهم السلام)، لأنهم صرفوا عن ذلك تماماً كما صرفوا على مستوى القدرة عن معارضة القرآن الكريم كما تدّعون؟!

من الواضح ألا أحد من هؤلاء الأعلام وغيرهم يمكنه أن يدّعي هذه الدعوة أو يتبنى هذا المذهب(يتضح ذلك اكثر بملاحظة البحث الكلامي عن العلة المحدثة للمعجزة)، اللهم إلا إذا كان لأحمد القبانجي رأي آخر لا نعرفه!

وغني عن البيان أن إيراد السيد الخوئي (قده) لهذا الدليل إنما هو من باب إظهار بطلان الملزوم – القول بالصرفة – بإبطال لازمه – شمول الصرفة لجميع معاجز الأنبياء – وهو كثير الوقوع في المحاورات العلمية التخصصية التي يبدو أنها غابت عن ذهن أخينا القبانجي في خضم انشغاله بملابسات الحداثة، ولله في خلقه شؤون!

الثاني:

إن الصرفة على هذا الافتراض تتضمن قدرة الناس على معارضة المعجزة فيما لو أقدرهم الله تعالى على المعارضة بيد أنه تعالى لم يقدر أحداً على ذلك، ومن الواضح أن هذا المعنى لا يتضمن أي منع ولا صرف من الله عن معارضة القرآن، تماماً كما هي سنته في معاجز الأنبياء السالفين التي يعترف أنصار الصرفة فضلاً عن غيرهم بأن عجز الناس عن مضاهاتها والإتيان بمثلها لم يكن وليد المنع والقسر الإلهي.

٢- قوله تعليقاً على الإيراد الثاني للسيد الخوئي (قده): (وهذا أعجب من سابقه، لأن العرب لم يكونوا في صدد الاتصال بعالم الغيب والإتيان بكتاب من الله للبشر حتى يقال هذا الكلام، بل كان ديدنهم الشعر، ومعلوم أن الشعر أبلغ من النثر، ومعه لا حاجة لهم إلى الإتيان بنثر بليغ يوازي القرآن الكريم في بلاغته، بل كان ديدنهم الشعر، ومعلوم أن الشعر أبلغ من النثر، ومعه لا حاجة لهم إلى الإتيان بنثر بليغ يوازي القرآن الكريم في بلاغته.....الخ)[1].

أقول:

---

(١) المصدر نفسه.

١-لا نعرف وجهاً مقبولاً لصدر كلام القبانجي وحديثه عن عدم كون العرب في صد الاتصال بالغيب، ولا ندري ما دخل هذه الفقرة في نقض إيراد السيد (قده)!!

لقد تقدم منا مراراً إن العرب عند مجيئ الإسلام لم يكن يشق لهم غبار في الفصاحة، وإنهم حازوا قصب السبق في البلاغة بحيث وطأوا فيهما مواطئ لم يحدثنا التاريخ عن أمة قبلهم ولا بعدهم حدثتها نفسها أن تحوم حول حماهما أو تلحق بذراها، يقول الجاحظ في حجج النبوة: (بعث الله محمداً (صلى الله عليه وآله) أكثر ما كانت العرب شاعراً وخطيباً، وأحكم ما كانت لغة، وأشد ما كانت عدة... الخ)[1].

ومن المعلوم أن أمة هذا شأنها لا يحتمل في حقها التأخر عن السنام الأعلى للفصاحة ولا الذروة العليا للبلاغة حتى يقال إن كتاباً من مثل القرآن - على تقدير عدم ربانيته - قد جاءهم بما لا يحسنون من صنعتهم ولا يعرفون من مفخرتهم رغم طول اشتغالهم بتعاطي الأدب وتفوقهم في فنون الكلام.

من هنا فمن المنطقي جداً وبعد الالتفات إلى ما تقدم ان نجد في كلام العرب ما يماثل القرآن الكريم فصاحة وبلاغة، ولما تعذر ذلك عرفنا أن

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية - مصطفى صادق الرافعي: ص١١٩.

مرتبة القرآن الكريم على مستوى الفصاحة والبلاغة خارجة رأساً عن قدرة البشر وأن الوصول اليها متعذر على حذاق الفن وفحول الأدب، ولعل طرب الفصحاء وشهادتهم بفصاحة القرآن وفرط براعته خير دليل على ذلك.

هذا حاصل إيراد السيد الخوئي (قده) لكن أحمد القبانجي حمله على غير وجهه وتصور إن المحقق الخوئي (قده) في صدد الطلب من العرب أن يتصلوا بعالم الغيب ويأتوا بكلام من وزان القرآن المجيد!!

٢- قوله (بل كان ديدنهم الشعر، ومعلوم أن الشعر أبلغ من النثر، ومعه لا حاجة لهم إلى الإتيان بنثر بليغ يوازي القرآن الكريم في بلاغته...)[١].

أقول:

أ- هذه المعلومية المدعاة عهدتها عليه وهو أعرف بمقالته!

لقد دار كلام وجدل بين أرباب الأدب - من سالف الأزمان - حول المفاضلة بين النثر والشعر صار النّقاد فيه طرائق قدداً كل طرف يحشد لمختاره جملة فضائل ومزايا لا توجد عند الطرف الاخر، والنقطة

---

(١) سر الإعجاز القرآني: ص٨٢.

الجديرة بالاهتمام هي أن الأعم الاغلب منهم لم يذهب في ترجيح احد الطرفين إلى كون هذا الطرف ابلغ من ذاك، بل غاية ما سجلوه من فضائل وامتيازات ما أجمله سنان الخفاجي في سر الفصاحة[1] بقوله: (... وأما التفضيل بين النظم والنثر فالذي يصلح أن يقوله من يفضل النظم أن الوزن يحسن الشعر ويحصل للكلام به من الرونق ما لا يكون للكلام المنثور ويحدث عليه من الطرب في إمكان التلحين والغناء به ما لا يكون للكلام المنثور ولهذه العلة ساغ حفظه أكثر من حفظ المنثور حتى لو اعتبرت أكثر الناس لم تجد فيهم من يحفظ فصلاً من رسالة غير القليل ولا يجد فيهم من لا يحفظ البيت أو القطعة إلا اليسير ولولا ما انفرد به من الوزن الذي تميل إليه النفوس بالطبع لم يكن لذلك وجه ولا سبب.

ونقول: إن الشعر يدخل في جميع الأغراض كالنسيب والمديح والذم والوصف والعتب والنثر لا يدخل في جميع ذلك، فإن التشبيب لا يحسن في غير الشعر وكذلك غيره من الأغراض وما صلح لجميع ضروب الكلام وصنوفه أفضل مما اقتصر على بعضه.

وأما الذي نقوله من تفضيل النثر على النظم: فهو أن النثر يعلم فيه أمور لا تعلم في النظم كالمعرفة بالمخاطبات وبينة الكتب والعهود

---

(١) سر الفصاحة: ص٢١٢.

والتقليدات وأمور تقع بين الرؤساء والملوك يعرف بها الكاتب أمورهم ويطلع على خفي أسرارهم وأن الحاجة إلى صناعة الكتابة ماسة والانتفاع بها في الأغراض ظاهر.

والشعر فضل يستغنى عنه ولا تقود ضرورة إليه، وأن منزلة الشاعر إذا زادت وتسامت لم ينل بها قدراً عالياً ولا ذكراً جميلاً، والكاتب ينال بالكتابة الوزارة فما دونها من رتب الرياسة وصناعة تبلغ بها إلى الدرجة الرفيعة أشرف من صناعة لا توصل صاحبها إلى ذلك، وأن أكثر النظم إذا كشف وجد لا يعبر عن جد ولا يترجم عن حق وإنما الحذق فيه الإفراط في الكذب والغلو في المبالغة، وأكثر النثر شرح أمور متيقنة وأحوال مشاهدة وكثر فيه الجد والتحقيق أفضل مما كثر فيه المحال والتقريب، وقد يتسع الكلام فيما لا يخرج عن هذا الفن. وهذه الجملة كافية في مثل هذا الموضع).

ومن البين أن ابن سنان لم يأت على ذكر التفاضل البلاغي بين الشعر والنثر وسبب ذلك واضح، فإن البلاغة أمر مطلوب فيهما معاً ولا دخل لها بالضرورة في شكل الكلام وكونه شعراً أو نثراً وعلى هذا ففي أيهما وجدت فهو أفضل من صاحبه جزماً.

من هنا أجاب أبو العباس المبرد (ت ٢٨٥ هـ) عندما كتب لديه أحد أمراء البيت العباسي رسالة يلتمس منه فيها معرفة: (أي البلاغتين أبلغ،

أبلاغة الشعر؟ أم بلاغة الخطب والكلام المنثور السجع؟ وأيهما عندك: أعزك الله أبلغ؟

فأجابه بقوله: سألت أعزك الله عن البلاغتين، في الشعر المرصوف، أحد القسمين بالكلام المنثور، آيتهما أولى بأن تكون المقدمة، وحق أن تكون على الكمال مشتملة؟ بأن الجواب فيما سألت أن حق البلاغة إحاطة القول بالمعنى، واختيار الكلم، وحسن النظم حتى تكون الكلمة مقاربة أختها ومعاضدة شكلها، وأن يقرب بهذا البعيد ويحذف منها الفضول، فإن استوى هذا في الكلام المنثور، والكلام المرصوف، المسمى شعراً، فلم يفضل أحد القسمين صاحبه، فصاحب الكلام المرصوف أحمد، لأنه أتى به صاحبه وزاد وزناً وقافيته، والوزن يحمل على الضرورة، والقافية تضطر إلى الحيلة، وبقيت بينهما واحدة، ليست مما توجد عند استماع الكلام منهما، ولكن يرجع إليهما عند قولهما فينظر إليهما أيهما أشد على الكلام اقتداراً، وأكثر تسمحاً، وأقل معاناة وأبطأ معاسرة، فيعلم أنه المقدم)[1].

نعم، لا يخفى أن معظم براعة كلام العرب، في الشعر، تلك البراعة التي يقل نظيرها في النثر، إلا إن هذا ليس أمراً مطّرداً ودائماً أولاً، ولا هو مقتضى القاعدة التي تجعل من البلاغة مرجحاً أساسياً لأحد الطرفين

---

(١) البلاغة، لأبي العباس المبرد: ص٨١.

على الآخر ثانياً، فضلاً عن إن البراعة شيء والبلاغة شيء آخر، لذا لا يلزم من براعتهم في الشعر أن يكون أبلغ من النثر بعد كون البلاغة هي موافقة الكلام لمقتضى الحال وهو أمر شامل للشعر والنثر معاً ثالثاً.

والطريف أن أحمد القبانجي يتبنى تفوق بعض فقرات نهج البلاغة وكلمات أهل البيت (عليهم السلام) بلاغة وفصاحة على كثير من آي القرآن الكريم نفسه فضلاً عن غيره سواء أكان ذلك الغير نثراً أم شعراً، ومعلوم أن تلك الفقرات الشريفة تنتمي إلى دائرة النثر، لكنه ينسى كلامه هناك ليقول هنا وبلغة جازمة عامة: (الشعر أبلغ من النثر)!

ب- لو كان في شعرهم ما يوازي القرآن الكريم بلاغة وفصاحة لاحتجوا به واتخذوه مطعناً لتوهين القرآن العزيز وإسقاط محله من القلوب والعقول (إذ كيف يكون كلام الخالق والمخلوق على درجة واحدة من الفصاحة والبلاغة؟) ولو كان هذا لنشروه في منتدياتهم واندیتهم ولاتخذوه نشيداً يرددونه صباحاً ومساء ولقالوا بضاعتنا ردت إلينا، فإن الغريق يتشبث بالحشيش والطحلب كما يقولون، على أن وجود هكذا شعر أبلغ من القرآن الكريم محض افتراض من القبانجي لا دليل عليه إلا الاحتمال الصرف، ومعلوم أن الاحتمال لا قيمة له في مثل هذا الفرض، لأنه لا واقع له.

ج- أما قوله: إنهم لم يكونوا بحاجة إلى الإتيان بنثر بليغ يوازي القرآن الكريم في بلاغته فهو من عجائبه التي لا تنقضي، لأن من له أدنى إلمام بتحدي القرآن لهم وتبكيته إياهم وإعلانه عجزهم فضلاً عن دواعي معارضته - التي تقدمت - يقطع بأنهم في أمس الحاجة إلى الإتيان بهذا الكلام البليغ، لأنه أقرب الطرق وأخصرها لإطفاء نور الدين الجديد، بدلاً من تحمل أعباء العجز والتكذيب التي جرت عليهم ما جرت مما هو معروف ومشهور، على إنه كان في وسعهم أن يوردوا ذلك الشعر البليغ الذي يتحدث عنه القبانجي ويجعلوه في قبال القرآن ولو من باب إيجاد الشبهة والتشكيك في ربانيته، ولا تنس ما نقلناه سابقاً عن جرجي زيدان عند وصفه تأثر العرب بالقرآن الكريم: (... وقد أعجبوا بأسلوبه ودهشوا لبلاغته، لأنه ليس من قبيل ما كانوا يعرفونه من نثر الكهان المسجع ولا نظم الشعراء المقفى الموزون، وقد خالف كليهما وهو منثور مقفى على مخارج الأشعار والأسجاع، فلا هو شعر ولا هو نثر ولا هو سجع، وفيه من البلاغة وأساليب التعبير ما لم يكن له شبيه في لسانهم، فسحروا بأسلوبه وبما حواه من الشرائع والأحكام وقصص الأنبياء....الخ)، وكلامه هذا يثبت صلة ووليجة بين القرآن الكريم وما كان يتعاطاه العرب من شعر- على تقدير صحة دعوى القبانجي من عدم تعاطيهم النثر - فهو - أي القرآن - منثور لكنه مقفى على مخارج الأشعار وهذا ما يجعله في دائرة إمكان المعارضة

والمضاهاة، وربما لهذا السبب رموه بالشعر ورأوا انفسهم قادرين على قول مثله ولم يعتذروا عن ذلك بما اعتذر به القبانجي!

الفصل الثالث

الإعجاز الغيبي

قال أحمد القبانجي تحت عنوان عريض:

(هل أن الإعجاز القرآني هو الإنباء بالمغيبات؟!

يقول الطباطبائي في معرض حديثه عن هذه الجهة الإعجازية:

وقد تحدّى - القرآن - بالإخبار عن الغيب بآيات كثيرة، منها إخباره بقصص الأنبياء السالفين وأممهم كقوله تعالى: (تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا). ومنها الإخبار عن الحوادث المستقبلة كقوله تعالى: (غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ).

وقوله تعالى في رجوع النبي إلى مكة بعد الهجرة: (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد)... ومن هذا الباب آيات أُخر في الملاحم، نظير قوله تعالى: (وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون..)، وقوله تعالى: (وعد الله الذين آمنوا ليستخلفنّهم في الأرض)، ومن هذا الباب قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأت الله بقوم يحبهم ويحبون)، إلى غير ذلك من الآيات التي تنبئ عن

الحوادث العظيمة التي تستقبل الأمة الإسلامية أو الدنيا عامة بعد عهد نزول القرآن).

ويقول الإمام رشيد رضا في «المنار»:

الوجه الثالث: اشتماله على الإخبار بالغيب من ماض كقصص الرسل مع أقوامهم، وقد تقدم بعض الكلام فيه، ومن حاضر في عصر تنزيله كقوله تعالى «غلبت الروم...»، وكقوله تعالى: «سيقول المخلفون...» ـ، ثم ذكر جملة من الآيات التي تخبر بالمغيبات كما ذكر الطباطبائي آنفاً ـ ثم قال: ـ فهذه الأخبار الكثيرة بالغيب دليل واضح على نبوة نبينا وكون القرآن من عند الله تعالى إذ لا يعلم الغيب غيره سبحانه، ولا يمكن معارضتها بما يصح بالمصادفة أو القرائن أحياناً من أقوال الكهان والعرافين والمنجمين، فإن كذب هؤلاء أكثر من صدقهم، إن صح تسمية ما يتفق لهم صدقاً منهم.

ونلاحظ عليه:

١ ـ إن مسألة الإخبار بالغيب لا تختص بالقرآن الكريم ولا تعدّ معجزة بحدّ ذاتها، فالكثير من المرتاضين والعرفاء والكهنة كانوا يخبرون بالغيب، والقرآن نفسه يشير إلى طرف منها في قصة أم موسى لما خافت على ابنها من القتل فألقته في اليم:

(وأَوحينَا إلى أُمِّ موسَى أَنْ أَرضعيه فَإذَا خفْت عَلَيه فَأَلْقيه في الْيَمِّ ولا تَخَافي ولا تَحْزَني إِنَّا رادُّوه إِلَيْكَ وجاعلُوه منَ الْمرسلين).

ويذكر المفسرون في شرح هذه الواقعة أن كهنة فرعون وعلماء البلاط كانوا قد أخبروا فرعون بأنه سيولد من بني إسرائيل من يطيح بعرشك، فأمر بقتل جميع أطفال بني إسرائيل حين الولادة، والقصة مفصلة فراجع)[1]. انتهى كلام القبانجي.

وفيه:

إن هذا الطرح يكشف وبسفور واضح أن القبانجي غير ملم بالبحث الكلامي للمعجزة ولا محيط به وإلا لما ورط نفسه في مخالفة ألف باء البحث المذكور!

وحتى نجيب عما طرحة القبانجي من إشكال لابد من ذكر تعريف المعجزة واتخاذه ضابطاً نقيس من خلاله مؤاخذاته لنرى بالتالي أنها تنتمي إلى عالم المعجزة أو لا.

لقد قالوا في تعريف المعجزة إنها: (أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، مع عدم المعارضة).

---

(١) سر الإعجاز القرآني: ص٩٢-٩٤.

ونحن إذا حللنا التعريف المذكور أمكننا أن نخرج بمجموعة شرائط لابد من اجتماعها كي نسمي فعلاً من الأفعال معجزاً اصطلاحاً، وهذه الشروط هي:

١- لابد أن يكون الفعل خارقاً للعادة.

٢- أن يكون مقترناً بالدعوى.

٣- عجز الناس عن مقابلته.

وهذا القيد ينحل إلى أمرين:

الأول: دعوة الناس إلى المقابلة والمعارضة وطلب القيام بمثله.

الثاني: عجز الناس كلهم عن الإتيان بمثله[1].

وبعد هذا نقول: إن جميع الأمثلة التي ذكرها أحمد القبانجي تفتقر إلى اجتماع شرائط الإعجاز وبالتالي لا تكون معجزة بالمعنى الاصطلاحي للمعجزة حتى لو سلمنا كونها خارقة للعادة، إذ ليس كل خارق يصدق عليه عنوان الإعجاز ما لم يكن مستجمعاً للشرائط المتقدمة. ومن هنا قال العلّامة الطباطبائي (قده) في الميزان: وهو في صدد التفريق بين

---

(١) الإلهيات: ج٣، ص٧١.

الخارق والمعجز: (... فقد تبين من الفصول السابقة من البحث أن المعجزة كسائر الأمور الخارقة للعادة لا تفارق الأسباب العادية في الاحتياج إلى سبب طبيعي وأن مع الجميع أسباباً باطنية وأن الفرق بينها بينها أن الأمور العادية ملازمة لأسباب ظاهرية تصاحبها الأسباب الحقيقية الطبيعية غالباً أو مع الأغلب، ومع تلك الأسباب الحقيقية إرادة الله وأمره، والأمور الخارقة للعادة من الشرور كالسحر والكهانة مستندة إلى أسباب طبيعية مفارقة للعادة مقارنة للسبب الحقيقي بالإذن والإرادة؛ كاستجابة الدعاء ونحو ذلك من غير تحد يبتنى عليه ظهور حق الدعوة وأن المعجزة مستندة إلى سبب طبيعي حقيقي بإذن الله وأمره وأمره إذا كان هناك تحد يبتنى عليه صحة النبوة والرسالة والدعوة إلى الله تعالى، وأن القسمين الآخرين يفارقان سائر الأقسام في أن سببهما لا يصير مغلوباً مقهوراً قط بخلاف سائر المسببات...)[1].

وبإمكان القارئ اللبيب الالتفات إلى تخلّف شرائط المعجزة في الأمثلة التي ذكرها القبانجي بأدنى التفاتة.

قال القبانجي: (... وعلى كل حال لا يكون الإخبار بالمغيبات دليلاً عقلياً على أن هذا الخبر الغيبي أنما هو من الله تعالى، بل من مصادر أخرى كما كان الكهنة يأخذونه من الجن، والقرآن يقر هذه الحقيقة

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج١، ص٨٤.

وأن بعض الجن كانوا يسترقون السمع من الملأ الأعلى: (وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا)[١].

وفيه:

لم يدع أحد إن دلالة الإخبار بالغيب على كون حامل الغيب مرتبطاً بالله تعالى من باب الدلالة العقلية بالصورة التي حاول أحمد القبانجي إبرازها وبتسطيح واضح، وليست دلالة الأدلة التي ساقها المتكلمون والمفسرون على اتصال النبي بعالم الغيب عقلية صرفة، حتى يقال إنها أعم من ارتباطها بالحق تبارك وتعالى، لاحتمال استنادها إلى أسباب أخرى غير الارتباط المذكور. وفي ذلك يقول السيد العلّامة (قد): (... وها هنا سؤال وهو: أنه ما هي الرابطة بين المعجزة وبين حقية دعوى الرسالة، مع أن العقل لا يرى تلازماً بين صدق الرسول في دعوته إلى الله الله سبحانه وبين صدور أمر خارق للعادة عن الرسول على أن الظاهر من القرآن الشريف، تقرير ذلك فيما يحكيه من قصص عدة من الأنبياء كهود وصالح وموسى وعيسى ومحمد (صلى الله عليه وآله وسلم).... الخ)٥[٢].

---

(١) سر الإعجاز القرآني: – مصدر سابق.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ج٣، ص٨٥.

لقد قيل في علم الكلام بضرورة وجود رابطة منطقية بين الإعجاز ودعوى النبوة، وتلك الرابطة مرددة بين أمرين:

الأول: أنّ الخالق عادلٌ لا يجور، وحكيم لا يفعل ما يناقض الحكمة.

الثاني: أنّ الله تعالى يريد هداية الناس، ولا يرضى بضلالتهم وكفرهم.

وما لم نؤمن بأحد هذين الأمرين – على الأقل – فلن يؤت الإعجاز أكله في التدليل على صدق صاحبه.

وبكلمة أخرى: إن — برهان الإعجاز – يعتمد على أصل مسلّم، وهو أنّ الله حكيم، والحكيم لا ينقض غرضه، ومن هنا ف (..مسألة كون الله حكيماً يعدّ برهاناً كلياً على صدق ما يدّعيه الأنبياء في الأُصول والفروع، وإنّ ما يدّعونه ليس مخالفاً للواقع بشهادة أنّهم قد زودوا بالمعجزة، والحكيم لا يمنح المعجزة – مطلقاً – للإنسان الكاذب....الخ)[1].

أما قوله (وأما انقطاع الكهانة واستراق السمع من قبل الجن بعد البعثة فهو من ادعاء القرآن نفسه، ومعلوم أنّه لا يمكن قبول هذا

---

(١) الفكر الخالد في بيان العقائد – الشيخ جعفر سبحاني: ج١، ص٢٦٣.

الادعاء ما دمنا لم نصل بعد إلى مرحلة التسليم بأنه من الله تعالى، أي أن أن الاستناد في عملية الاستدلال على النصوص القرآنية يوقعنا في ورطة الدور الباطل)[1].

ففيه:

أ- لم يرد في كلام العلمين بحسب الظاهر ما يوحي بتمسكهم بهذا الوجه حتى يرد القبانجي عليه بما رد هنا.

ب- بعد التنزل فانه يمكن صياغة ما ذكره هنا صياغة دليلية غير مبتلاة بالدور المدعى بأن يقال:

صحيح إن القول بانقطاع الكهانة واستراق السمع من قبل الجن بعد البعثة من ادعاء القرآن الكريم بيد أنه مؤيد بالواقع وشهادة الحال فإن القرآن الكريم ادعى على أي حال انقطاع الاستماع وأوكل الأمر للواقع المعاش الشاهد بعدم الاستراق وانقطاع الكهانة ومن أراد التكذيب فعليه أن يطرح شواهد غيبية تدحض الادعاء، فلا دور ولا هم يحزنون.

---

(١) سر الإعجاز القرآني: ص٩٤.

قال القبانجي: (يذكر العلامة من موارد الإخبار بالغيب قصص الأنبياء، والآية المذكورة صريحة في ذلك، ولكنها لم تورد هذه القصة بعنوان معجزة، ومجرد أن النبي (صلى الله عليه وآله) لم يكن يعلمها ولا قومه لا يعد بحدّ ذاته إعجازاً ينبغي للآخرين التسليم به، فبإمكانهم أن يقولوا أنّه اكتسب أصولها من علماء أهل الكتاب، وبعد تعديلها وتهذيبها طرحها بالشكل المذكور في القرآن، أو أنّها من بنات أفكاره وخاصة مع عدم وجود ما يؤيد صحة هذه الأخبار والقصص.

وإلى هذا المعنى ذهب السيد المرتضى في نقضه على الإعجاز بالمغيبات، وقال:

وأيضاً فان الاخبار عن الغيوب في القرآن على ضربين: خبر عن ماض، وخبر عن مستقبل. فالأول الإخبار عن أحوال الأمم السالفة، والثاني مثل قوله تعالى: «لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ» وقولَه تعالى: «أَلم غُلِبَت الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ»، وأمثال ذَلِكَ من الأخبار التي وقعت مخبَراتها موافَقة للإخبار عنها.

فأما القسم الأول: فهو خبر عن أمور كائنة ومشهورة شائعة، وذلك لا يسمى خبراً عن غيب، وليس في ذلك إلا ما يمكن للمخالف أن يدّعى أنّه مأخوذ من الكتب أو من أفواه الرجال... والقسم الثاني:

إنما يكون دالاً إذا وقع عن مخبر مطابق للخبر وقبل أن يقع ذلك لا فرق في الخبر بين أن يكون صدقاً أو كذباً، ومن المعلوم أن الحجة بالقرآن كانت لازمة قبل وقوع مخبرات هذه الأخبار)[1].

أقول:

إن الاعتراض على هذا الوجه بإمكانية أخذ أصول الأخبار من الكتب أو من أفواه الرجال مبتن على افتراض إن الاستدلال بالقصص القرآني خلو عن أي مقدمة، وهذا غير مسلّم، فإن الاستدلال بذلك إنما يكون بإضافة مقدمة أو مقدمات:

منها: إن البيئة التي نشأ فيها النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله) كانت بيئة ساذجة معرفيا خالية من كل ما يتصل بالعلم والمعارف الدينية بوليجة، يقول العلّامة الطباطبائي (قده) وهو في صدد بيان مزايا القرآن الكريم وظهوره على يد الخاتم (صلى الله عليه وآله):

(... وهل يمكن أن يصدر هذا الإحصاء العجيب والإتقان الغريب من رجل أُمي لم يترب إلاّ في حجر قوم حظهم من الإنسانية على مزاياها التي لا تحصى وكمالاتها التي لا تغيا أن يرتزقوا بالغارات

---

(١) المصدر السابق.

والغـزوات ونهـب الأمـوال وأن يئـدوا البنـات ويقتلـوا الأولاد خشـية إمـلاق ويفتخـروا بالآبـاء وينكحـوا الأمهـات ويتبـاهوا بـالفجور ويـذموا العلـم ويظـاهروا بالجهـل وهـم علـى أنفـتهم وحميـتهم الكاذبـة أذلاّء لكـل مستذل وخطفـة لكـل خـاطف فيومـاً لليمن ويومـاً للحبشـة ويومـاً للـروم ويوماً للفرس؟ فهذا حال عرب الحجاز في الجاهلية...الخ)[1].

وعلـى نفـس المنـوال يقـول السـيد الشـهيد الصـدر في الفتـاوى الواضـحة[2] [10]: (... إنّ هـذا الشـخص الـذي أعلـن رسـالته علـى العـالم باسـم السـماء ينتسـب إلى شـبه الجزيـرة العربيـة، الـتي كانـت مـن أشـدّ أجـزاء الأرض تخلّفـاً في ذلـك الحـين مـن الناحيـة الحضـارية والفكريـة والاجتماعيـة والسياسـية والاقتصـادية، وينتمـي إلى الحجـاز بالـذات مـن أقطـار تلـك الجزيـرة، وهـو قطـر لم يمـر حـتى تاريخيـاً بمثـل الحضـارات الـتي نشـأت قبـل ذلـك بمئـات السـنين في مواضـع أُخـرى محـدّدة مـن تلـك الجزيرة، ولم يعرف أي تجربة اجتماعية متكاملة.

ولم ينـل هـذا القطـر مـن ثقافـة عصـره ـ علـى الـرغم مـن انخفاضـها عمومـاً ـ شـيئاً يـذكر، ولم ينعكس علـى أدبـه وشـعره شـيء ملحـوظ مـن أفكـار العـالم وتياراتـه الثقافيـة وقتئـذ، وكـان منغمسـاً مـن الناحيـة العقائديـة

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج١، ص٦٠.

(٢) الفتاوى الواضحة: ص٦٨.

في فوضى الشرك والوثنية، ومفكّكاً اجتماعياً تسيطر عليه عقلية العشيرة، وتلعب فيه الانتماءات إلى هذه العشيرة أو تلك الدور الأساسي في أكثر أوجه النشاط بكل ما يؤدي إليه ذلك من التناقضات وألوان الغزو والصراع الرخيص.

ولم يكن البلد الذي نشأ فيه هذا الرسول قد عرف أي شكل من أشكال الحكم سوى ما يفرضه الولاء للقبيلة من مواضعات.

ولم يكن وضع القوى المنتجة والظروف الاقتصادية في ذلك الجزء من العالم يتميز عن أكثر بقاع العالم المتخلّف حينذاك.

وحتى القراءة والكتابة – بوصفها أبسط أشكال الثقافة – كانت حالةً نادرةً نسبياً في تلك البيئة، إذ كان المجتمع أُمياً على العموم: "هو الّذي بعثَ في الأُمّيينَ رسولا منهُمْ يتلُو عَلَيهِمْ آياتِه ويزَكّيهِمْ ويعَلّمهُمُ الكتَابَ والْحِكْمَةَ وَإِنْ من قبل لَفي ضلال مبين".....).

وإن نازع نفسك شك في مضمون كلام العلمين فدونك القرآن الكريم وهو أصدق وثيقة تأريخية تكشف عن المستوى الثقافي الذي كان عليه مجتمع النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله) وهي وثيقة لا يرقى يرقى التشكيك إلى مضمونها، لأنها طرحت على قوم النبي (صلى الله عليه وآله) فلم يتصد أحد لتكذيبها ولا الطعن بها ولو كان لبان واشتهر.

يصرح القرآن الكريم وفي أكثر من آية بأن القصص القرآني لم يكن متداولاً في مجتمع النبي (صلى الله عليه وآله) ولا لقومه دراية به وهذا ما نجده في أكثر من آية شريفة:

(ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ)[١]، وقوله تعالى: (تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ)[٢]، وقوله تعالى: (ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ)[٣].

ومنها: أن النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله) ينتمي إلى تلك البيئة التي عرفنا بعض خصائصها الفكرية والمعرفية، ومن هنا (كان شخص النبي (صلى الله عليه وآله) يمثل الحالة الاعتيادية من هذه الناحية، فلم يكن قبل البعثة يقرأ ويكتب، ولم يتلق أي تعليم منظّم أو غير منظّم: (وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ).

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٤٤.

(٢) سورة هود: الآية ٥٠.

(٣) سورة يوسف: الآية ١٠٣.

وهذا النص القرآني دليل واضح على مستوى ثقافة الرسول قبل البعثة، وهو دليل حاسم حتى في حق من لا يؤمن بربانية القرآن؛ لأنّه – على أي حال – نص أعلنه النبي (صلى الله عليه وآله) على بني قومه، وتحدّث به إلى أعرف الناس بحياته وتأريخه، فلم يعترض أحد على ما قال، ولم يُنكر أحد ما ادعى.

بل نلاحظ أنّ النبي (صلى الله عليه وآله) لم يساهم قبل البعثة حتى في ألوان النشاط الثقافي الذي كان شائعاً في قومه من شعر وخطابة، ولم يؤثَر عنه أي تميز عن أبناء قومه، إلاّ في التزاماته الخُلقية وأمانته ونزاهته وصدقه وعفّته.

وقد عاش أربعين سنة قبل البعثة في قومه دون أن يحس الناس من حوله بأي شيء يميزه عنهم سوى ذلك السلوك النظيف، ودون أن تبرز في حياته أي بذور عملية أو اتّجاهات جادة نحو عملية التغيير الكبرى التي طلع بها على العالم فجأةً بعد أربعين عاماً من عمره الشريف: (قُل لَو شَاء الله ما تلَوتَه عَليكُم ولا أَدراكُم به فقَدْ لَبِثْتُ فيكُمْ عمراً من قبْله أَفَلا تعقلُونَ).

وكان النبي (صلى الله عليه وآله) قد ولد في مكّة، وظل فيها طيلة الفترة التي سبقت البعثة، ولم يغادرها إلى خارج الجزيرة العربية إلاّ في

سفرتين قصيرتين: إحداهما مع عمه أبي طالب وهو صبي في أوائل العقد الثاني، والأُخرى بأموال خديجة وهو في أواسط العقد الثالث.

ولم يتيسر له – بحكم عدم تعلّمه للقراءة والكتابة – أن يقرأ شيئاً من النصوص الدينية لليهودية أو المسيحية، كما لم يتسرب إليه أي شيء ملحوظ من تلك النصوص عن طريق البيئة؛ لأنّ مكّة كانت وثنيةً في أفكارها وعاداتها، ولم يتسرب إليها الفكر المسيحي أو اليهودي، ولم يدخل الدير إلى حياتها بشكل من الأشكال، وحتى أُولئك الحنفاء الذين رفضوا عبادة الأصنام من عرب مكّة لم يكونوا قد تأثّروا باليهودية أو المسيحية، ولم ينعكس شيء من الأفكار اليهودية والمسيحية على ما خلّفه قس بن ساعدة أو غيره من تراث أدبي وشعري.

ولو كان النبي (صلى الله عليه وآله) قد بذل أي جهد للاطّلاع على على مصادر الفكر اليهودي والمسيحي للوحظ ذلك؛ إذ في بيئة ساذجة ومنقطعة الصلة بمصادر الفكر اليهودي والمسيحي ومعقدة ضدّها لا يمكن أن تمر محاولة من هذا القبيل دون أن تلفت الأنظار، ودون أن تترك بصماتها على كثير من التحركات والعلاقات)[1].

---

(١) الفتاوى الواضحة: ص٦٩.

وفي نفس الصدد يقول السيد العلّامة (قده)[١]: (... وقد تحدى بالنبي الأمي الذي جاء بالقرآن المعجز في لفظه ومعناه، ولم يتعلم عند معلم ولم يترب عند مرب بقوله تعالى:

(قُل لَّوْ شَاء اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ).

فقد كان (صلى الله عليه وآله وسلم) بينهم وهو أحدهم لا يتسامى في فضل ولا ينطق بعلم حتى لم يأت بشيء من شعر أو نثر نحواً من أربعين سنة وهو ثلثا عمره لا يجوز تقدماً ولا يرد عظيمة من عظائم المعالي ثم أتى بما أتى به دفعة فأتى بما عجزت عنه فحولهم وكلت دونه ألسنة بلغائهم، ثم بثه في أقطار الأرض فلم يجترئ على معارضته معارض من عالم أو فاضل أو ذي لب وفطانة.....الخ).

والنتيجة أن ظهور القصص القرآني وبتفوقه الملحوظ على كل ما عداه على يدي رجل امي نشأ بين قوم قد عرفت حالهم لهو معجز خارق للعادة بلا أدنى شك.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج١، ص٦٥.

بقي أن نقف قليلاً عند ما ذكره القبانجي في قوله (فبإمكانهم أن يقولوا أنّه اكتسب أصولها من علماء أهل الكتاب، وبعد تعديلها وتهذيبها طرحها بالشكل المذكور في القرآن، أو أنّها من بنات أفكاره وخاصة مع عدم وجود ما يؤيد صحة هذه الأخبار والقصص...الخ)[1]، لأنه كثيراً ما يتكرر في كلمات أعداء الإسلام ليس في خصوص القصص القرآني فقط بل في سائر معارفه وأفكاره، وهو مدعى فاسد جداً، لأن أخذ النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله) من من غيره إنما يكون بأحد طرق كلها باطة، وتفصيل ذلك:

١ - أن يكون ذلك بالاطلاع المباشر على ما موجود في كتب الأوليين.

٢ - أن يكون ذلك بتبني الأفكار غير المكتوبة والتي كانت شائعة آنذاك في بيئة الرسالة رغم عدم كتابتها.

٣- أن يكون ذلك بالتعلم من ذي علم.

٤- الطريق الغيبي.

والاحتمالات كلها باطلة ما عدى الاخير منها لأسباب كثيرة:

---

(١) سر الإعجاز القرآني: ص٩٥.

أولاً: لا يوجد أي شاهد موضوعي على كون تلك الكتب قد ترجمت إلى العربية في عصر الرسالة وصارت في متناول الأيدي وإمكانية الاطلاع لذا ورد في القرآن الكريم: (كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)[1]، وهو أمر يوحي بعدم كون التوراة في متناول الأيدي لا كتاباً ولا تلاوة وإلا لما احتاج إلى الطلب منهم أن يأتوا بها ويتلوها.

وهناك نص صريح في كونه (صلى الله عليه وآله) مقطوع الصلة عن تلك الكتب وهو قوله تعالى:

(وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)[2].

لقد عرفنا سابقا: أن هذا النص القرآني دليل حاسم حتى في حق من لا يؤمن بربانية القرآن؛ لأنّه - على أي حال - نص أعلنه النبي على بني قومه، وتحدّث به إلى أعرف الناس بحياته وتأريخه، فلم يعترض أحد على ما قال، ولم يُنكر أحد ما ادعى، وقد كان بإمكانهم أن

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٩٣.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٤٨.

يكذبوه ويتهموه ويقولوا له لقد اطلعت على تلك الكتب الشائعة الذائعة في وسط بيئتنا، فلماذا تدعي عدم الاطلاع وهو اتهام جدير بالقبول والتصديق مع فرض إمكانية الاطلاع على محتوى تلك الكتب وهو أولى كثيراً من اتهاماتهم السخيفة التي سياتي الإشارة اليها، بيد أن شيئاً من ذلك لم يحدث.

ثانياً: إن افتراض استقاء النبي (صلى الله عليه وآله) تلك المعلومات من كتب الأولين يعني فيما يعنيه أننا أمام إنسان متميز بكل معنى الكلمة، لأنه بالنهاية ملم بمحتوى الأديان ومفاهيمها وأفكارها وتفاصيلها الدقيقة وهذا وغيره يجعل منه – قبل بعثته – عالما من الطراز الأول، محققاً فريداً من نوعه، مصلحا فاق عصره بمئات السنين، ولكن هل تثبت المعطيات والشواهد التاريخية ذلك؟؟

ولنعم ما قال الدكتور عبد الرحمن بدوي في تفنيد هذا الزعم " يؤكد كل هؤلاء الكتاب أن محمدا صلى الله عليه وسلم باعتباره مؤلفا للقرآن اقتبس أغلب القصص، وعددا كبيرا من الصور البيانية، وكذلك الحكم والأمثال، من الكتب المقدسة، أو شبه المقدسة لدى اليهود والنصارى.

ولكي نفترض صحة هذا الزعم، فلا بد أن محمدا كان يعرف العبرية والسريانية واليونانية، ولا بد أنه كان لديه مكتبة عظيمة اشتملت على كل نصوص التلمود والأناجيل المسيحية، ومختلف كتب الصلوات،

وقرارات المجامع الكنسية، وكذلك بعض أعمال الأدباء اليونانيين، وكتب مختلف الكنائس والمذاهب المسيحية.

هل يمكن أن يعقل هذا الكلام الشاذ لهؤلاء الكتاب، وهو كلام لا برهان عليه.

... إن حياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم قبل ظهور رسالته وبعدها معروفة للجميع، على الأقل في مظاهرها الخارجية، ولا أحد قديما أو حديثا يمكن أن يؤكد أن النبي محمدا صلى الله عليه وسلم كان يعرف غير العربية ؛ إذا كيف يمكن أن يستفيد من هذه المصادر كما يدعون!"[١]

ويناسب هنا ان نعيد كلام بعض المفكرين (قده) والذي نقلناه سابقاً وكان منه:

".... أنّ هذا الشخص الذي أعلن رسالته على العالم باسم السماء ينتسب إلى شبه الجزيرة العربية، التي كانت من أشدّ أجزاء الأرض تخلّفاً في ذلك الحين من الناحية الحضارية والفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وينتمي إلى الحجاز بالذات من أقطار تلك

---

(١) دفاع عن القرآن ضد منتقديه – د عبد الرحمن بدوي: ص٢٠.

الجزيرة، وهو قطر لم يمر حتى تاريخياً بمثل الحضارات التي نشأت قبل ذلك بمئات السنين في مواضع أُخرى محدّدة من تلك الجزيرة، ولم يعرف أي تجربة اجتماعية متكاملة.

ولم ينل هذا القطر من ثقافة عصره – على الرغم من انخفاضها عموماً – شيئاً يذكر، ولم ينعكس على أدبه وشعره شيء ملحوظ من أفكار العالم وتياراته الثقافية وقتئذ، وكان منغمساً من الناحية العقائدية في فوضى الشرك والوثنية، ومفكّكاً اجتماعياً تسيطر عليه عقلية العشيرة، وتلعب فيه الانتماءات إلى هذه العشيرة أو تلك الدور الأساسي في أكثر أوجه النشاط بكل ما يؤدي إليه ذلك من التناقضات وألوان الغزو والصراع الرخيص.

بل نلاحظ أنّ النبي لم يساهم قبل البعثة حتى في ألوان النشاط الثقافي الذي كان شائعاً في قومه من شعر وخطابة، ولم يؤثَر عنه أي تميز عن أبناء قومه، إلاّ في التزاماته الخُلقية وأمانته ونزاهته وصدقه وعفّته.

وقد عاش أربعين سنةً قبل البعثة في قومه دون أن يحس الناس من حوله بأي شيء يميزه عنهم سوى ذلك السلوك النظيف، ودون أن تبرز في حياته أي بذور عملية أو اتّجاهات جادّة نحو عملية التغيير الكبرى التي طلع بها على العالم فجأةً بعد أربعين عاماً من عمره

الشريف: (قُل لَو شَاء الله ما تلَوتَه علَيكُم ولا أَدراكُم به فقَدْ لَبِثْتُ فيكُمْ عمراً من قبْله أَفَلا تعْقلُونَ)[١].

من هنا يمكننا أن نجزم أنه لو كان هناك شخص يحمل جزء من أفكار القرآن الكريم في تلك البيئة التي تعاني الجدب الفكري والمعرفي لكان بحق أشهر من المعلم الأول والثاني.

والغريب المدهش إن معاصريه من أبناء قومه وجلدته لم يكونوا يروا له–ص– أي تميز فكري ومعرفي عليهم، فقد كانوا يحارون في تحديد منشأ القرآن ومنبعه لذا تارة يقولون:

(ولَقَدْ نعْلَمُ أَنهُمْ يقُولُونَ إِنمَا يعلّمُه بشَرٌ لّسَانُ الّذي يلْحدُونَ إِلَيْه أَعْجَميٌّ وهذَا لسانٌ عرَبِيٌّ مُّبِينٌ)[٢].

وستعرف قيمة هذا الاتهام عندما تعلم أن ذلك البشر غلام أعجمي اللسان لا يعرف العربية!!

وبالنهاية كان عبدا قنا يمتهن حدادة السيوف، ولم يعرف لا بعلم ولا بعمل!!

---

(١) الفتاوى الواضحة – مصدر سابق.

(٢) سورة النحل: الآية ١٠٣.

ولو وجد أهل مكة شخصاً أكثر اهمية منه صالحا لإلصاق تهمة تعليم محمد (صلى الله عليه وآله) به لفعلوا وأراحوا واستراحوا، فإن التعلم من متخصص يهودي أو نصراني يبقى أمراً مقبولاً اجتماعياً وأولى بكثير من نسبته إلى أعجمي حداد!

وأخرى يقولون:

(وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَولِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلا)[١].

يعنون بقوله:

(فهي تملى عليه) من قولهم: أمليت عليك الكتاب وأمللت (بكرة وأصيلا) اي: وتملى عليه غدوة وعشياً [٢].

لاحظ أنهم نفوا ضمناً أن يكون النبي (صلى الله عليه وآله) قد أتى بما أتى به من تلقاء نفسه، لأنه ليس بمستوى هذه المفاهيم والأفكار التي يطرحها، لذا احتاج أن يمليها عليه مجهول صباحاً ومساء فهو بالنهاية مجرد قناة وواسطة يحتاج إلى من يذكره بها صباحاً ومساء!!

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٥.

(٢) جامع البيان – ابن جرير الطبري: ج١٨، ص٢٤٢.

ولو كانت هناك إمكانية لاطلاعه (صلى الله عليه وآله) على أفكار الكتب السالفة لوحده على افتراض تواجدها في بيئته لما كان معنى لقولهم: (فهي تملى عليه) بل لقالوا افكار اخذها من تلك الكتب مباشرة أو ألفها من عند نفسه، فإن ذلك أولى من نسبتها إلى مجهول لا يعرف لونه ولا طعمه ولا رائحته تماما كأولوية نسبتها إلى نفس النبي (صلى الله عليه وآله) لو كان ذلك ادعاء قابلاً للتصديق بيد إنهم يقرون أن لا الاحتمال الأول ممكن ولا الثاني قابل للتصديق، فتأمل.

وهكذا قولهم:

(وقَالَ الَّذينَ كَفَروا إنْ هذَا إلاَّ إفْكٌ افتراه وأَعانَه عَلَيْه قوم آخرونَ فَقَدْ جاؤوا ظُلْما وزوراً)[1]

فهي اعتراف منهم أنه (صلى الله عليه وآله) لا يستطيع أن يأتي بما أتى به لوحده، بل لابد من مؤازرة قوم آخرين!!

أما الاحتمال الثاني وهو يقوم على أساس استيحاء النبي (صلى الله عليه وآله) لما جاء به في قرآنه الكريم مما كان شائعاً ومتداولاً في بيئته. فهو أيضاً باطل ولأسباب كثيرة تقدم بعضها ونشير لها إجمالاً:

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٤.

أولاً: تقدم أن النص القرآني يقول:

(وما كُنْت تتلُو مِنْ قبْله مِنْ كتَاب ولا تَخُطُّه بيَمينكَ إذاً لارْتَاب الْمُبْطِلُون)[١].

ويفترض بهذا النص أن يكون رداً على ادعائهم افتراء النبي (صلى الله عليه وآله) القرآن ونسبته إلى الله تعالى، وقد كان يمكن لهم أن يردوا ويقولوا نحن لا نقول إنك أخذت ذلك من الكتب المقدسة حتى تقول إني لست بقارئ ولا كاتب لها بل ندعي إنك أخذتها من بيئتنا التي يفترض انتشار تلك المعارف والأفكار والأخبار فيها ولو فعلوا ذلك لكان أمراً مقبولا بما لا يقاس بسخافاتهم وترهاتهم التي عللوا بها مجيء النبي (صلى الله عليه وآله) بالقرآن الكريم، لكنهم لم يفعلوا ولم يردوا عليه بشيء ذي بال!!

ثانيا: تقدم إنهم قالوا (وَلَقَدْ نعْلَمُ أَنَّهُمْ يقُولُونَ إنَّمَا يعَلِّمُه بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذي يلْحدُونَ إلَيْه أَعْجَميٌّ وهَذَا لسَانٌ عَرَبيٌّ مُّبينٌ)[٢].

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٤٨.

(٢) سورة النحل: الآية ١٠٣.

ولو كانت مضامين القرآن الكريم منتشرة بينهم لما احتاجوا ان يتهموا قناً أعجمياً ولا غيره بتعليم النبي (صلى الله عليه وآله)!!

ثالثا: إنهم نسبوا القرآن الكريم إلى الاسطورة (وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأولينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلا)[1].

و (أساطير الأولين أي ما سطره الأولون من الكتب)[2].

ولو كانت تلك المحتويات الدينية موجودة في بيئتهم، فما الداعي إلى نسبتها إلى الأسطورة؟؟

بل ما الداعي إلى القول: (فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً)؟؟

وهل يحتاج النبي (صلى الله عليه وآله) إلى من يملي عليه مضامين قرآنه صباحاً ومساء مع افتراض إن تلك المضامين جزء لا يتجزأ من ثقافة بيئتهم؟؟؟

الناس على بساطتهم وقلة وعييهم لم يكونوا يرون النبي (صلى الله عليه وآله) قادراً على حفظ محتويات قرآنه وسبب نصره وظفره

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٥.

(٢) تفسير غريب القرآن – فخر الدين الطريحي: ص٢٤٨.

ويحتاج إلى من يذكره بها صباحاً ومساء رغم افتراض شيوعها في بيئته، ولكن القبانجي يراه (صلى الله عليه وآله) عالماً محققاً مدققاً سبر أغوار كتب الديانات واكتسب أصول القصص القرآني من علماء أهل الكتاب، وبعد تعديلها وتهذيبها طرحها بالشكل المذكور في القرآن، أو أنّها من بنات أفكاره خاصة!

رابعاً: إن افتراض شيوع المعارف القرآنية في ذلك الزمان وفي تلك البيئات يعني فيما يعنيه إن المنطقة الجغرافية التي نشأ وسطها نبي الإسلام (صلى الله عليه وآله) كانت تخالف تماماً ما حفظه لنا التأريخ وقامت عليه ضرورته فلقد عرفنا سابقاً:

هذا الشخص الذي أعلن رسالته على العالم باسم السماء ينتسب إلى شبه الجزيرة العربية، التي كانت من أشدّ أجزاء الأرض تخلّفاً في ذلك الحين من الناحية الحضارية والفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وينتمي إلى الحجاز بالذات من أقطار تلك الجزيرة، وهو قطر لم يمر حتى تاريخياً بمثل الحضارات التي نشأت قبل ذلك بمئات السنين في مواضع أُخرى محدّدة من تلك الجزيرة، ولم يعرف أي تجربة اجتماعية متكاملة.

ولم ينل هذا القطر من ثقافة عصره - على الرغم من انخفاضها عموماً - شيئاً يذكر، ولم ينعكس على أدبه وشعره شيء ملحوظ من

أفكار العالم وتياراته الثقافية وقتئذ، ولم يحدثنا التأريخ عن أي معهد أو منتدى علمي أو فكري أنتجته تلك البيئة الساذجة وحتى القراءة والكتابة – بوصفها أبسط أشكال الثقافة – كانت حالةً نادرةً نسبياً في تلك البيئة، إذ كان المجتمع أُمياً على العموم: (هو الَّذي بعثَ في الأُمِّيِّينَ رسولا منهُمْ يتلُو عَلَيهِمْ آياتِه ويزَكِّيهِمْ ويعلِّمُهُمُ الكتَابَ والْحِكْمَةَ وإنْ كَانُوا مِنْ قبل لَفي ضَلال مُبِين)[1].

ولك أن تتصور كيف سيكون المستوى الثقافي لبيئة كانت القراءة والكتابة تشكل حالة نادرة جداً إن لم تكن معدومة!

لكن الاحتمال الثاني على تقدير تمامه يرى عكس ذلك فهي بيئة متخمة بألوان المعارف الدينية والتاريخية والطبيعية والسياسية و.... الخ!

خامسا: إن النص القرآني كثير ما يختم بـ:

(تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين)[2].

---

(١) سورة الجمعة: الآية ٢.

(٢) سورة هود: الآية ٤٩.

(ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ)[١].

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ)[٢].

ترى هل ينسجم مضمون هذه الآيات الشريفة وغيرها مع القول بأن تلك المضامين كانت معروفة ومنتشرة في بيئة الرسالة؟؟

أما الاحتمال الثالث وهو التعلم من ذي علم، ففيه: أنه قد بان وجه بطلانه مما تقدم ونضيف فنقول:

أولاً: تقدم من الآيات القرآنية ان مشركي مكة احتاروا في توجيه مصدر ما يأتي به النبي (صلى الله عليه وآله) وتحديده لذا ترى التخبط علامة فارقة في مجمل تلك التوجيهات فتارة يقولون:

(ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين)[٣]، وأخرى:

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٤٤.

(٢) سورة يوسف: الآية ٣.

(٣) سورة النحل: الآية ١٠٣.

(وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً)[١].

وثالثة:

(وقَالَ الَّذينَ كَفَروا إنْ هذَا إلاَّ إفْكٌ افتراه وأَعانَه عَلَيْه قوم آخرونَ فَقَدْ جاؤوا ظُلْما وزورا)[٢].

وبين هذا وذاك تبقى اتهامات من قبيل:

(كاهن، مجنون، ساحر، معلم، شاعر... الخ)

وهي كلها تكشف - على ما بينها من تهافت - مدى التخبط والحيرة التي انتابتهم، وبالتالي فقدان الموقف الموحد الثابت.

وهذا كله يطرح تساؤلات فحواها:

أن لو كان هناك ذو علم تلقى النبي (صلى الله عليه وآله) علمه منه فما بالهم احتاروا وتخبطوا في تحديد منبع معارفه (صلى الله عليه وآله)؟

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٥.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٤.

ولماذا طرحوا افتراضات متعددة حول شيء هو في عداد المحسوسات؟

ولماذا لم يبقوا على هذا الاتهام ويستقروا عليه؟

وهو اتهام على افتراض صحته مضمونه قابل للتصديق أكثر بكثير من الكهانة والجنون والشعر وأضرابها!

ما اسم هذا الشخص الفذ؟

ما طعمه؟ ما رائحته؟ ما لونه؟

هل عجزوا عن كشفه واظهاره للملأ كي لا يغتر الناس بدعوة محمد (صلى الله عليه وآله)؟

هل عجز جبروتهم وطغيانهم عن مواجهة هذا الشخص وارغامه على قطع علاقته بمحمد (صلى الله عليه وآله)؟

إن كانت القوة قد خانتهم فهلا عرضوا عليه شيئاً من الدنيا جزاء التخلي عن محمد (صلى الله عليه وآله) ونفض يده عن دعمه وتأييده؟

رغم إن الوقائع اثبتت انهم على أتم استعداد لتقديم الدنيا وما فيها على طبق من ذهب لكل ما من شأنه إنهاء دعوة النبي الأمي أو تضعيفها؟

ترى كيف غابت هكذا شخصية فذة ذات معارف متنوعة قادرة على صنع أمة عن مسرح التأريخ؟

أ صعدت إلى السماء أم غارت في الأرض أم تخطفتها الطير؟

كيف اختفت عن الأنظار بحيث لم يلحظها أحد في ذلك المجتمع البدائي معرفيا الساذج فكرياً؟

لقد قيل[1]: إن القرآن الكريم تعرض لمواضيع كثيرة العدد، متباعدة الأغراض من الإلهيات والمعارف، وبدء الخلق والمعاد، وما وراء الطبيعة من الروح والملك وإبليس والجن، والفلكيات، والأرض، والتاريخ، وشؤون فريق من الأنبياء الماضين، وما جرى بينهم وبين أممهم، وللأمثال والاحتجاجات والأخلاقيات، والحقوق العائلية، والسياسات المدنية، والنظم الاجتماعية والحربية، والقضاء والقدر، والكسب والاختيار، والعبادات والمعاملات، والنكاح والطلاق، والفرائض، والحدود والقصاص وغير ذلك كثيراً، ومن هنا يحق لنا أن نتساءل عن عدد السنين والأعوام التي يستغرقها عادة تعلم هذه المعارف والمضامين؟؟

---

(١) البيان في تفسير القرآن: ص٦٧.

وهل تسمح بيئة الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) وتاريخه الذي قضى نصفه مهاجراً محارباً بين تقطع قلب وتحول حال وفراق وطن وأحبة، أقول هل تسمح لإنسان أن يتعلم ويتقن ما تعلمه بحيث يأتي بما أتى به؟؟

وأين مكان التعلم ومتى زمانه؟؟ وهل كان من الممكن أن يخفى هكذا نوع من التعلم والتلقي على أهله وذويه وأصحابه ومحبيه وهم الذين يلازمونه آناء الليل وأطراف النهار؟؟

قيل: لنفرض أن محمداً (صلى الله عليه واله وسلم) لم يكن أمياً، ولنتصوره قد تلقن المعارف، وأخذ الفنون والتاريخ بالتعليم، أفليس لازم هذا أنه اكتسب معارفه وفنونه من مثقفي عصره الذين نشأ بين أظهرهم؟ ونحن نرى هؤلاء الذين نشأ محمد (صلى الله عليه واله وسلم) وسلم) بينهم، منهم وثنيون يعتقدون بالأوهام، ويؤمنون بالخرافات، وذلك ظاهر. ومنهم كتابيون يأخذون معارفهم وتأريخهم، وأحكامهم من كتب العهدين التي ينسبونها إلى الوحي، ويعزونها إلى الأنبياء. وإذ فرضنا أن محمداً (صلى الله عليه واله وسلم) أخذ تعاليمه من أهل عصره، أفليس لازم هذا أن ينعكس على أقواله ومعارفه ظلال هذه العقائد التي اكتسبها من معلميه ومرشديه ومن هذه الكتب التي كانت مصدر ثقافته وعلومه؟ ونحن نرى مخالفة القرآن لكتب العهدين في نواح عقدية كثيرة جداً، وتنزيهه لحقائق المعارف عن الموهومات

الخرافية التي ملأت كتب العهدين وغيرها من مصادر التعلم في ذلك العصر؟[١]

وقيل أيضاً: إن القصص القرآني فيه ما يبهر الملاحظ حيث أنّ القصص الحق في القرآن لا يمكن أن يكون مجرد استنساخ لما جاء في كتب العهدين، حتى لو افترضنا أن أفكار هذه الكتب كانت شائعة ومنتشرة في الوسط الذي ظهر فيه النبي؛ لأنّ الاستنساخ يمثل دوراً سلبياً فقط، دور الأخذ والعطاء، بينما دور القرآن في عرض القصة إيجابي، فإنّه يصحح ويعدّل ويفصل القصة عما الُصقت بها من ملابسات لا تتفق مع فطرة التوحيد والعقل المستنير والرؤية الدينية السليمة![٢]

وعلى وزان القصص قس ما سواها من معارف ستجد نفسك أمام إنسان غاية في التحقيق والتدقيق ومن طراز معرفي فريد جداً وهو أمر لا يمكن أن يبرر تفسيره أي عامل مادي طبيعي حتى لو قلنا إن محمداً (صلى الله عليه واله وسلم) درس في معاهد الكتابيين ومدارسهم وقضى وقضى عمره في البحث والاستقصاء، لأن النتيجة لا تكون في الظروف الطبيعية أكبر من مقدماتها كيف ونحن هنا نواجه طفرة معرفية شاملة.

---

(١) المصدر السابق: ص٤٥.

(٢) الفتاوى الواضحة: ص٧٣.

وأخيراً نَذّكر أن قول القبانجي: (وخاصة مع عدم وجود ما يؤيد صحة هذه الأخبار والقصص...)[١] يناقض قوله: (فبإمكانهم أن يقولوا أنّه اكتسب أصولها من علماء أهل الكتاب)[٢] أولاً، فضلاً عن الكثير من أصول هذه القصص موجودة فعلاً في مصادر أهل الكتاب والقرآن الكريم نفسه يصرح بهذه الحقيقة: (أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل)[٣] ثانياً.

يقول القبانجي: (ويذكر العلاّمة الآية الشريفة التي تخبر عن انتصار الروم على الفرس كنموذج للإعجاز الغيبي في القرآن الكريم، وفيه مع ما تقدم من الإشكال، أن التاريخ المستقل لم يحدثنا بحادثة من هذا القبيل وقعت في ذلك الزمان الخاص، إلاّ ما ورد في كتب المسلمين، ومعلوم أنّها لا تكون حجة لإثبات المطلوب، لأنها تخبر عن القرآن وبدافع من إيمان المسلمين بصحة جميع ما ورد في الآيات من أخبار، وهو من الدور الباطل، أي أن المفروض إثبات هذه القضية من خلال المصادر التاريخية المستقلة.)[٤]

---

(١) سر الإعجاز القرآني: ص٩٥.

(٢) سر الإعجاز القرآني: ص٩٥.

(٣) سورة الشعراء: الآية ١٩٧.

(٤) سر الإعجاز القرآني: مصدر متقدم.

أقول:

جهالة أخرى من جهالات القبانجي تكشف عن أن الرجل يهرف بما لا يعرف، وإلا فإن أي متتبع لما كتب حول الصراع البيزنطي الفارسي يكتشف بيسر وبساطة انطباق الإخبار القرآني على ذلك الواقع وبشكل مذهل!

يقول الدكتور محمد محمد مرسي الشيخ أستاذ تاريخ العصور الوسطى ورئيس قسم التاريخ والآثار المصرية والإسلامية ما يلي:

(...على أن الخطر الاكبر جاء من قبل الفرس الذين أخذوا في التهام الأقاليم الشرقية واحداً تلو الآخر منذ سنة ٦١١ م، أي بعد ولاية هرقل بسنة واحدة، إذ استولى الفرس على أنطاكية بما لها من أهمية كبرى في الأقاليم الشرقية، ثم استولوا على دمشق ونفذوا إلى قيلقيلة، فدان لهم حصن طرطوس العريق، وطردوا البيزنطيين من أرمينا غير إن استيلاء الفرس على بيت المقدس سنة ٦١٤م، جاء صدمة كبيرة للمسيحين في كافة الأنحاء بعد أن تعرضت المدينة لحصارهم ثلاث أسابيع حيث جعلوها طعمة للنيران، وأنزلوا بأهلها مذبحة بشرية رهيبة، وأتى الحريق على كنيسة القيامة (القبر المقدس) التي شيدها قسطنطين الكبير، واستولوا على الصليب الأعظم (Th Holy Cross) بعد أن روعوا العالم المسيحي بقتل أكثر من تسعين ألفاً من سكان المدينة المقدسة،

واستولوا على نفائس وتحف الكنسية واشترك اليهود مع الفرس في إحداث المذابح والسلب والنهب وحملوا معهم إلى فارس بطريق بيت المقدس)[١]

ويضيف قائلاً[٢]: (عبر هرقل البسفور في إبريل سنة ٦٢٢ م إلى اسيا الصغرى فانضوى له عدد كبير من جند الثغور... ثم ما لبث ان شق طريقه إلى آرمينا حيث التقى بالجيش الفارسي وأنزل به هزيمة ساحقة على حدود آرمينا وطرد الفرس من آسيا الصغرى... الأمر الذي دفع هرقل إلى أن يشق طريقه في أرمينا حيث استولى على عدة مراكز تابعة للفرس، وخرب بعض مدنهم ولاذ كسرى نفسه بالفرار وأشعل البيزنطيون الحرائق في بعض معابد الفرس انتقاماً لما أنزلوه من قبل ببيت المقدس، ووقع في يد هرقل عدد لا حصر له من الأسرى سنة ٦٢٣م.

وفي خريف سنة ٦٢٧ م قام الامبراطور هرقل بزحفه الكبير نحو الجنوب إلى قلب بلاد فارس فوصل إلى نينوى (قرب الموصل الحالية على نهر دجلة)، حيث نشبت المعركة الحاسمة مع الفرس والتي قررت مصير النزاع بين الدولتين، فقد أحرز البيزنطيون انتصاراً باهراً، وحلت

---

(١) تاريخ الامبراطورية البيزنطية: ص٧٥.

(٢) المصدر نفسه: ص٧٩- ٨٠.

بالجيش الفارسي هزيمة ساحقة فتحت الطريق لهرقل لالتهام مزيد من المدن والقلاع والمراكز الفارسية، وترتب على ذلك عزل كسرى وقتله وإحلال ابنه قبادشيرويه محله في الحكم، فبادر الحاكم الجديد بإبرام معاهدة مع هرقل، استردت بيزنطة بمقتضاها كل ما كان لها من ممتلكات في الشرق، فضلاً عن أرمينا، واستردت بيزنطة سوريا وفلسطين ومصر، وأجبر الفرس على إطلاق سراح الأسرى البيزنطيين، ورد الصليب الأعظم، وعاد هرقل إلى عاصمته).

ويقول الدكتور محمود سعيد عمران – أستاذ تاريخ العصور الوسطى – كلية الآداب – جامعة الاسكندرية –:

(... وقد حدث بعد ذلك ما هو أسوأ إذ ظهر الجيش الفارسي أمام أسوار بيت المقدس في عام ٦١٤م، وأرسل القائد الفارسي من مقر قيادته رسلاً إلى حاكم بيت المقدس يطالبه بتسليم المدينة، ويبدو أن حاكم المدينة لم يستطع المقاومة فسلم المدينة للقوات الفارسية.

وبعد شهور قليلة قام أهالي المدينة بثورة على الحامية الفارسية وقتلوا رجالها وأغلقوا أبواب المدينة، وترتب على ذلك قدوم جيش فارسي حاصر المدينة ثلاثة أسابيع نجح بعدها الفرس في اختراق أسوار المدينة ودخولها بحد السيف، وانزلوا في الأهالي القتل وبالمدينة السلب والنهب. وبعدما استولى الفرس على الصليب المقدس الذي تعرفوا

على مكانه بطرق التعذيب المختلفة أضرموا النار في المدينة.....وفي عام ٦٢٢م أقيم حفل ديني كبير بهذه المناسبة وغادر هرقل العاصمة ونزل بجيوشه إلى آسيا الصغرى، وقضى فصل الصيف في جمع الجنود وتدريبها والتفكير في وضع خطط جديدة للقتال. كما أعاد تشكيل قواته بأن أنشأ قوة من الفرسان الرماة، وبعد هذه الاستعدادت بدأت العمليات العسكرية في فصل الخريف وبدأ بمناورة عسكرية بارعة خلف خطوط القوات الفارسية وشق طريقه إلى أرمينا، ومن هناك هاجم القوات الفارسية المتواجدة في شمال شرق آسيا الصغرى.

ترتب على ذلك تراجع الجيش الفارسي من آسيا الصغرى ليلحقوا بالجيش البيزنطي في أرمينا حيث جرت معركة كبيرة انتهت بفوز القوات البيزنطية وتمكن هرقل من تخليص آسيا الصغرى من قبضة الفارسيين)[١].

ويقول الدكتور حسنيين محمد ربيع/ أستاذ تاريخ العصور الوسطى في كلية الآداب – جامعة القاهرة في كتابه (دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية)[٢]:

---

(١) معالم تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص٧٠

(٢) دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ص٦١-٦٢

(.... وفي سنة ٦١١م عزم الفرس على غزو الشام، وهزموا البيزنطيين سنة ٦١٣م عند انطاكية أهم مدينة في الولايات البيزنطية الشرقية، ثم استولى الفرس على دمشق ومنها اتجهوا إلى فلسطين، واستولوا في السنة التالية ٦١٤م على بيت المقدس بعد حصاره عشرين يوماً، وكان استيلاء الفرس على بيت المقدس لطمة قاسية للدولة البيزنطية إذ استولوا على ما به من دور وكنائس ونقلوا الصليب المقدس إلى عاصمتهم المدائن.....وفي إبريل سنة ٦٢٢م غادر هرقل القسطنطينية لقتال الفرس، واستطاع أن يحرر آسيا الصغرى... (إلى أن يقول) وانتهى النزاع البيزنطي الفارسي في سنة ٦٢٧م عندما حقق هرقل هزيمة ضد قوات الفرس على مقربة من أطلال نينوى).

وواضح من هذا السرد عن أساتيذ الفن الذين اعتمدوا فيه على عشرات المصادر العربية والأجنبية أن الفترة الزمنية بين هزيمة الروم وأول انتصار ساحق لهم على الفرس تنطبق على الوعد القرآني (في بضع سنين) تمام الانطباق، ولك بعد هذا أن تحكم على معلومات القبانجي التاريخية بما حكمته سابقاً على معلوماته الادبية!

يقول القبانجي[1]: (أما الآية التي تتحدث عن عودة النبي (صلى الله عليه وآله) إلى مسقط رأسه فغير واضحة المفهوم وغير صريحة في بيان المراد، ولو أن النبي لم يوفق للعودة إلى مكة لرأينا أن المفسرين احتالوا لتأويلها طرقاً متنوعة مما تحتمله الآية، كأن يقولوا أن المقصود بالمعاد هو لقاء الله وما إلى ذلك.

وأضعف ما في هذا الباب من الشواهد هو ما أورده من قصة يأجوج ومأجوج بعنوان إنها ملاحم غيبية، ولا ندري ما ربطها بالإعجاز القرآني؟ وهل يمكن عقلاً قبول هذه الأخبار والملاحم التي ينفرد القرآن بها بعنوان معجزة؟

وأضعف منه ما ذكر من وعد الله تعالى للذين آمنوا انه سيستخلفهم في الأرض، لعدم تقييد هذا الوعد بمدة معينة من الزمان، فيبقى الوعد مفتوحاً إلى آخر الزمان، وفي أي عصر تحققت دولة صغيرة للمؤمنين يقال إن الوعد القرآني قد تحقق.

ونفس الإشكال يرد على ما ذكره من الآية الكريمة التي تعد المؤمنين أن الله سيأتي بقوم يحبهم ويحبونه، بل في هذه الآية نجد أن الوعد الوعد الإلهي مشروط بـ (من يرتد منكم عن دينه) فإذا لم يتحقق

---

(١) سر الإعجاز القرآني: ص٩٦.

الشرط لم يتحقق المشروط وينتفي موضوع الوعد من الأساس، بل يمكن لأحد أن يقول أنّه قد ثبت ارتداد أكثر المسلمين بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله)، وخاصة أبان حروب الردة، ولكن هذا الوعد الإلهي لم يتحقق!!

طبعاً هذه الآية محل نقاش كثير بين الشيعة والسنة، فالشيعة توردها في حق علي (عليه السلام) وأصحابه، وأهل السنة يوردونها في أبي بكر حيث قاتل أهل الردة.

أنّه لا يعقل أن يتحدى القرآن الكريم الناس في ذلك الزمان بما سوف يثبت صحته بعد عشرات السنين. فظاهر التحدي القرآني الفعلية في مسألة الإعجاز، ودعوة الناس إلى الإتيان بسورة من مثله تكاد تكون صريحة في أن التحدي واقع في زمن نزول آيات التحدي، وهذا يدل دلالة أكيدة على أن منظور القرآن من كونه معجزة شيئاً آخر غير الأخبار بالغيب.

إن التحدي وقع بجميع سور القرآن لا على التعيين، فقد طُلب من العرب الإتيان بسورة واحدة من مثله، ومعلوم أن الكثير من سور القرآن خالية من الأخبار بالغيب، يقول السيد المرتضى:

«والذي يبطل هذا أن كثيراً من القرآن خال من خبر بغيب، والتحدي وقع في سورة غير معينة) انتهى.

أقول:

١- كان البحث الموضوعي يحتم على أحمد القبانجي أن يستحضر جميع أو أغلب الآيات القرآنية التي يرى أنصار الإعجاز الغيبي دلالتها على مدعاهم لا أن يمارس انتقائية واضحة في التعاطي مع الآيات موضوع البحث فإن ذلك ليس من الموضوعية في شيء!

وكيف كان فالآيات التي يمكن الاستدلال بها على المعجزة الغيبية كثيرة:

فمن الآيات[١] التي أنبأت عن الغيب قوله تعالى:

(وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ)[٢]، وهذه الآية وعد الله فيها المؤمنين بالنصر على عدوهم وبقطع دابر الكافرين، على ما كان عليه المؤمنون من قلة العدد والعدة.

ومنها قوله تعالى:

---

(١) لاحظ التفاصيل في البيان ص٦٧.

(٢) سورة الانفال: الآية ٧.

(فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)[١]:

فإن هذه الآية الكريمة نزلت بمكة في بدء الدعوة الإسلامية، وأخبرت عن ظهور دعوة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ونصرة الله له، وخذلانه للمشركين الذين ناوؤه واستهزأوا بنبوته، واستخفوا بأمره. وكان هذا الإخبار في زمان لم يخطر فيه على بال أحد من الناس انحطاط شوكة قريش، وانكسار سلطانهم، وظهور النبي (صلى الله عليه وآله) عليهم.

ونظير هذه الآية قوله تعالى:

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)[٢].

ومن هذه الأنباء قوله تعالى:

(غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ)[٣].

---

(١) سورة الحجر: الآيات ٩٤-٩٦.

(٢) سورة التوبة: الآية ٣٣.

(٣) سورة الروم: الآية ٣.

وقد وقع مما أخبرت به الآية بشكل مدهش كما تقدم ذكره.

ومنها قوله تعالى:

(أم يقولون نحن جميع منتصر. سيهزم الجمع ويولون الدبر)[١]. فأخبر عن انهزام جمع الكفار وتفرقهم وقمع شوكتهم، وقد وقع هذا بضرورة التاريخ.

ومنها قوله تعالى:

(تبت يدا أبي لهب وتب.. سيصلى ناراً ذات لهب. وامرأته حمالة الحطب)[٢].

وقد تضمنت هذه السورة نبأ دخول أبي لهب، و زوجته النار، ومعنى ذلك هو الإخبار عن عدم دخولهما الإسلام إلى آخر حياتهما، وقد وقع ذلك بالضرورة.

---

(١) سورة القمر: الآيات ٤٤-٤٥.

(٢) سورة المسد: الآيات ١-٤.

ولا يتقول متقول بان الآية ليس فيها اشعار بحكاية أمر مستقبل إذ لعلها قد نزلت بعد وفاة أبي لهب كما ربما ينقل عن القبانجي في بعض تسجيلاته.

وفيه: ان هذا خلاف المعطيات التاريخية التي تثبت نزول هذه الآية وأبو لهب وامرأته على قيد الحياة فضلاً عن أن لسان الآية لسان استقبال كما هو واضح من قولها: (سيصلى..) ولو كانت حديثاً عن أبي لهب بعد موته فلا معنى لهذا الاستقبال لفرض أن دخوله النار قد تحقق فعلاً بعد موته، سيما وأنها خلاف تعابير القرآن الكريم في آيات مشابهة:

(النَّار يعرضونَ عليها غُدَوًّا وَعَشيًّا ويوم تقوم السَّاعةَ أَدْخلُوا آلَ فرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَاب)[1].

ومنها قوله تعالى:

(ذَرْني ومن خلَقْت وَحيداً * وجعلْت لَه مالاً ممْدوداً * وبَنين شهوداً * ومهدت لَه تَمْهيداً * ثُمَّ يطْمع أَنْ أَزيدَ * كَلاَّ إنَّه كَان لآياتنَا عَنيداً * سأُرْهقُهُ صعوداً * إنَّه فَكّر وقَدّر * فَقُتل كَيف قَدّر * ثُمَّ قُتل

---

(١) سورة غافر: الآية ٤٦.

كَيفَ قَدّر * ثُمّ نَظَر * ثُمّ عبس وبسر * ثُمّ أَدبر واستَكْبر * فقَالَ إِنْ هذَآ إِلاّ سحْرٌ يؤثر * إِنْ هذَآ إِلاّ قولُ الْبشَر * سأُصْليه سقَر * ومَآ أَدراكَ مَا سقَر * لاَ تبْقي ولاَ تَذَر * لَواحةٌ لّلْبشَرِ * عَليها تسْعَةَ عشَر)[1].

وقد نص المفسرون على أن الوليد بن المغيرة المخزومي هو المعني بهذه الآية الكريمة وهو أمر لسنا حريصين على إثباته أو نفيه ويكفينا أن الظاهر من الآية الشريفة كون المعني بها رجلاً عظيم الشأن كبير القدر اجتماعياً، وقد توعده القرآن الكريم أنه سيصلى سقر ولازمه أن يموت كافراً بالإسلام وهذا ما نقطع بحدوثه، لأنه لو لم يكن قد حدث لاتخذ أعداء الإسلام ذلك مدخلاً عظيماً للطعن في الإسلام ونبيه والتشكيك في ربانية رسالته ولو كان لبان واشتهر.

ويبقى قول القبانجي السابق (وأضعف منه ما ذكر من وعد الله تعالى للذين آمنوا انه سيستخلفهم في الأرض، لعدم تقييد هذا الوعد بمدة معينة من الزمان، فيبقى الوعد مفتوحاً إلى آخر الزمان، وفي أي عصر تحققت دولة صغيرة للمؤمنين يقال أن الوعد القرآني قد تحقق)[2] ٥٧ عجيباً، فإن الاستدلال بهذه الآية الكريمة باق على قوته حتى ولو كانت

---

(١) سورة المدثر: الآيات ١١-٣٠.

(٢) سر الإعجاز القرآني: ص٩٦.

خالية من ذكر الزمان والمكان، فإن كونها عنصر غيبياً ناظراً إلى جهة الاستخلاف فقط، وبالتالي من الممكن للمؤمن بربانية القرآن الكريم أن يقول إن هذه الآية تحكي عن استخلاف المؤمنين في الأرض وهو أمر قد تحقق بضرورة التأريخ. ومن هنا يصدق أن هذه الآية أخبرت عن شيء قبل وقوعه فتكون معجزاً غيبياً.

٢- إن الظاهر من إيرادات القبانجي التعامل مع الإعجاز الغيبي على أساس أنه وجه واحد أو (بشرط لا عن غيره) وبالتالي فمادام انصار الإعجاز الغيبي يعتقدون أن الوجه الإعجازي الوحيد في القرآن الكريم هو الوجه الغيبي فإن أبسط رد عليهم سيكون ما نقله عن علم الهدى (قده) من فعلية الإعجاز وخلو اكثر الآيات القرآنية منه مع أن القرآن معجز بحق الجميع وبجميع آياته ولا يحتمل إنه معجز لجماعة في زمن معين دون أخرى في زمان آخر ولا إنه معجز في بعض آياته دون بعض، لأن التحدي قد وقع بسورة واحدة من مثله ولا ينبغي الإشكال في عدم توافر الإخبار الغيبي في جميع الآيات القرآنية.

إن هذا شيء واضح ومتفهم بيد أن الإشكال عليه هو: عدم التسليم بانحصار الإعجاز القرآني في وجه واحد وبعد فارد حتى يتم للقبانجي ما أراده بل يمكن الإيمان بأن الوجه الغيبي هو أحد وجوه الإعجاز القرآني كما عليه سائر المحققين وبالتالي لا يرد عليه ضرورة فعلية التحدي ولا ضرورة توافره في كل سورة سورة لعدم الايمان بأن

تحدي القرآن الكريم لقوم دون قوم ولا لزمان دون آخر ومن هنا يكون من المنطقي جداً أن يحتوي أبعاداً إعجازية اخرى قد لا تطالها أفهام السابقين.

٣- إن القبانجي يركز على مرتبة واحدة من مراتب التحدي القرآني وهي طلب الإتيان بسورة واحدة من مثله، مع أن هذا التحدي لم يكن هو الوحيد بل وقع أولاً بجميع القرآن الكريم ثم بعشر سور ثم بسورة واحدة من مثله، وعلى الاحتمال الأول يكون الإعجاز الغيبي أحد وجوه الإعجاز لمن شملهم التحدي لوضوح عدم ورود الإشكال القائل بأن كثيراً من السور القرآني تخلو من المعجز الغيبي، لأن الكثير من السور القرآنية تتضمن إنباءات غيبية كما تقدم.

٤- صحيح أن التحدي القرآني قد وقع بالإتيان بسورة واحدة من مثله إلا أن هذا لا يسقط قيمة المعجزة الغيبية بدعوى خلو أكثر السور القرآنية من الإخبارات الغيبية، لأن التحدي بسورة معناه إعطاء المتصدي لرد التحدي الحرية الكاملة في انتقاء أي سورة قرآنية ومحاولة معارضتها ومعلوم أنه لو اختار السورة التي وردت فيها نبوءة غيبية فسيكون والحال هذه مطالب بتضمين معارضته نبوءة غيبية كي تكتمل شروط المعارضة الصحيحة، وبالتالي حافظ الإعجاز الغيبي على قيمته حتى على القول بأن التحدي وقع بسورة واحدة.

٥- يقول السيد العلّامة(قده) في الميزان[١]: (وهل يجتري عاقل على أن يأتي بكتاب يدعيه هدى للعالمين ثم يودعه أخباراً في الغيب مما مضى ويستقبل وفيمن خلت من الأمم وفيمن سيقدم منهم لا بالواحد والاثنين في أبواب مختلفة من القصص والملاحم والمغيبات المستقبلة ثم لا يتخلف شيء منها عن صراط الصدق؟).

والظاهر من كلام العلّامة (قده) ليس ما فهمه القبانجي من الاستدلال بهذه الأخبار كلها على المعجزة الغيبية بعنوان أنها إخبارات غيبية قد تحققت، حتى يقول القبانجي (وهل يمكن عقلاً قبول هذه الأخبار والملاحم التي ينفرد القرآن بها بعنوان معجزة؟) بل المقصود أن تلك الإخبارات على تعددها وتنوعها لم يظهر إلى اليوم كذب اخبار واحد منها، وهذا ما أسماه السيد المحقق الخوئي (قده) في البيان باسم (القرآن والاتقان في المعاني)[٢] قائلاً:

(تعرض القرآن الكريم لمواضيع كثيرة العدد، متباعدة الأغراض من الإلهيات والمعارف، وبدء الخلق والمعاد، وما وراء الطبيعة من الروح والملك وإبليس والجن، والفلكيات، والأرض، والتاريخ، وشؤون فريق من الأنبياء الماضين، وما جرى بينهم وبين أممهم، وللأمثال

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج١، ص٦١.

(٢) البيان في تفسير القرآن: ص٦٧.

والاحتجاجات والأخلاقيات، والحقوق العائلية، والسياسات المدنية، والنظم الاجتماعية والحربية، والقضاء والقدر، والكسب والاختيار، والعبادات والمعاملات، والنكاح والطلاق، والفرائض، والحدود والقصاص وغير ذلك. وقد أتى في جميع ذلك بالحقائق الراهنة، التي لا يتطرق إليها الفساد والنقد في أية جهة من جهاتها، ولا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وهذا شيء يمتنع وقوعه عادة من البشر – ولاسيما ممن نشأ بين أمة جاهلة لا نصيب لها من المعارف، ولا غيرها من العلوم – ولذلك نجد كل من ألّف في عالم من العلوم النظرية لا تمضي على مؤلّفه مدة حتى يتضح بطلان كثير من آرائه. فإن العلوم النظرية كلما ازداد البحث فيها وكثر، ازدادت الحقائق فيها وضوحاً، وظهر للمتأخر خلاف ما أثبته المتقدم، والحقيقة –كما يقولون – بنت البحث، وكم ترك الأول للآخر. ولهذا نرى كتب الفلاسفة الأقدمين، ومن تأخر عنهم من أهل التحقيق والنظر قد صارت عرضة لسهام النقد ممن تأخر، حتى أن بعض ما اعتقده السابقون برهاناً يقينياً، أصبح بعد نقده وهما من الأوهام، وخيالاً من الأخيلة .والقرآن مع تطاول الزمان عليه، وكثرة أغراضه، وسمو معانيه، لم يوجد فيه ما يكون معرضاً للنقد والاعتراض. اللهم إلا أوهام من بعض المكابرين، حسبوها حسبوها من النقد. وسنتعرض لها، ونوضح بطلانها إن شاء الله تعالى).

الفصل الرابع

الإعجاز القرآني بعدم الاختلاف فيه

قال أحمد القبانجي في الفصل الثاني[١]: (من سر الإعجاز القرآني):

يقول العلاّمة:

«وقد تحدى أيضاً بعدم وجود الاختلاف فيه، قال تعالى:

(أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً). فإن من الضروري أن النشأة نشأة المادة، والقانون الحاكم فيها قانون التحول والتكامل، فما من واحد منّا إلاّ وهو يرى نفسه كل يوم أفضل من أمس، ولا يزال يعثر في الحين الثاني على سقطات في أفعاله وعثرات في أقواله الصادرة منه في الحين الأول.

وهذا الكتاب جاء به النبي (صلى الله عليه وآله) نجوماً وقرأه على الناس قطعاً قطعاً في مدة ثلاث وعشرين سنة في أحوال مختلفة وشرائط متفاوتة في مكة والمدينة في الليل والنهار، والحضر والسفر، والحرب والسلم، ولم يقع في المعارف التي ألقاها والأصول التي أعطاها اختلاف بتناقض بعضها مع بعض وتنافي شيء منها مع آخر، ولو كان من عند

---

(١) سر الإعجاز القرآني: ص٩٩.

غير الله لاختلف النظم في الحسن والبهاء والقول في الشداقة والبلاغة والمعنى من حيث الفساد والصحة ومن حيث الإتقان والمتانة».

وقال في «المنار»:

«الوجه الرابع: سلامته على طوله من التعارض والتناقض والاختلاف، خلافاً لجميع كلام البشر وهو المراد بقوله تعالى: (ولوكان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)، وإننا نجد كبار العلماء في كل عصر يصنفون الكتاب فيسودون، ثم يصححون ويبيضون، ثم يطبعون وينشرون، ثم يظهر لهم ولغيرهم كثير من التعارض والاختلاف والأغلاط اللفظية والمعنوية ولاسيما إذا طال الزمان، وهذا أمر مشهور في جميع الأمم.

(فإن قيل): إن غير المؤمنين بالقرآن قد استخرجوا منه بعض الاختلاف والتعارض، فاضطر علماء المسلمين إلى الجواب عنها بما يزعمون أنّه دفع الإيراد، وأظهر بطلان الانتقاد، وإن المسلم يقبل ذلك منهم تقليداً. وإن لم يكن في نفسه سديداً (قلت) إذا كانت عين الرضى متهمة فعين السخط أولى بالتهمة، وإننا إذا لم نلتفت إلى كلام أعداء القرآن الذين يخترعون التهم أو يزينونها بخلابة القول . ولا إلى المقلدين من المسلمين وعرضنا ما ذكر من ظواهر الاختلاف على فريق

المستدلين المستقلين من الفريقين نرى أنّه ليس في القرآن تعارض حقيقي معنوي يعد مطعناً صحيحاً فيه».

وبعد ان اكمل هذه النقولات قال:

ونلاحظ عليه:

١ ـ إن الاستدلال بالآية القرآنية على إثبات إعجاز القرآن من غريب الاستدلال، لأنه يستلزم الدور الباطل، ولابد في إثبات مثل هذه المعارف من التوسل بدليل خارج دائرة القرآن كما هو واضح، لأنه قبل إثبات المدعى كيف يصح الاستناد على موضوع البحث في إثبات نفسه، فإذا قيل أن الاستشهاد بالآية ليس من قبيل الاستدلال بها، بل من قبل المؤيد لحكم العقل قبل ذلك بعد وجود الاختلاف فيه، فحينئذ يقال بأن كل منصف إذا وضع مسبقاته العقائدية جانباً وحكم عقله في هذه المسألة بحياد تام وجد الكثير من الموارد المتباينة والمتناقضة في ظاهر القرآن الكريم..... (ذكر مجموعة موارد زعم انها متناقضة) ثم قال:

فإذا أخذنا بظاهر هذه الآيات لم يكن هناك بدّ من قبول حقيقة وجود الاختلاف فيه، وإن سعينا إلى التوفيق بين هذه المتناقضات بتأويل الآيات، فكل كتاب من تأليف البشر يخلو من التناقض حينئذ، ولا يقتصر الأمر على القرآن حتى يعدّ معجزة له، وحتى الكتب التي ألفها فيلسوف أو متكلم أو عالم نفس طيلة حياته ورأينا فيها بعض التبدل في

الأفكار والنظريات بالإمكان التوفيق بينها بسلاح التأويل بحيث لا تعد اختلافاً أصلاً.

وبكلمة واحدة، أن القرآن بدون تأويل مليء بالتناقضات والاختلافات، ومع التأويل لا ميزة له على سائر الكتب فإنها تخلو أيضاً من الاختلاف والتهافت. انتهى[1].

وفيه:

إن أحداً لم يستدل بالآية الكريمة حتى يقال إنه استدلال دوري بل الآية في صدد الإشارة إلى أن القرآن قد تحدى بذلك، وفرق بين التدليل على كونه معجزاً بالآية الشريفة بحيث تكون الدعوى عين الدليل وبين إشارة الآية إلى قضية وجدانية معاشة يمكن التأكد منها عبر التجربة وهي خلو القرآن الكريم من التناقض، وبالتالي تجري هذه الآية مجرى الوجوه الإعجازية الأخرى التي استدل لها قرآنياً فإن آية (غلبت الروم) وغيرها من آيات الإعجاز الغيبي في صدد تأسيس نوع إعجاز يمكن الحكم عليه من خلال الوقائع الموضوعية الخارجية، ولم يحتمل أحد أن تكون تلك الآيات في صدد إثبات هذا الإعجاز اكتفاء منها بنفس دعواها.

---

(١) المصدر نفسه: ص١٠١ - ١٠٢.

الظاهر أن (أحمد القبانجي) كان ملتفتا إلى هذا الرد، لذا لوى عنق الكلام تجاه ما حسبه (متناقضات القرآن الكريم) مع إن الحديث لم يكن عن هذه المتناقضات المزعومة، بل عن كون عدم التناقض مؤسساً على ادعاء قرآني أو على أمور وجدانية معاشة سماها القبانجي (الاستشهاد بالآية ليس من قبيل الاستدلال بها، بل من قبل المؤيد لحكم العقل قبل ذلك بعد وجود الاختلاف فيه)![1]

إن الممعن في كلمات القبانجي السابقة يجد الرجل يحاول التأصيل (للتناقض القرآني المزعوم) واستجلاء الواقع النصي بمعزل عن قوانين اللغة وانظمتها ومعرفة نظام استعمال الألفاظ والدلالات وهكذا قانون التخاطب فضلاً عن الأصول الموضوعية التي عول القرآن الكريم في بيان مراداته عليها باعتبارها من (المحكمات) التي يجب في ضوئها أن تفهم (المتشابهات) أو من خلال قواعد التأويل القرآني.

وبكلمة أخرى:

إن التناقض الذي ندعي عدم وجوده يختلف عن التناقض الذي يدعيه القبانجي على أساس اعتقادنا أن التناقض الذي نعنيه هو الذي يكون على خلاف قوانين اللغة وأنظمتها ومنطق المحاورات العرفية

---

(١) سر الإعجاز القرآني: ص١٠١.

والقواعد القرآنية الخاصة وبالتالي يكون (تناقض مستقر)، أما ما يدعيه القبانجي فهو تناقض قبل إعمال تلك القوانين والقواعد العرفية والقرآنية التي على أساسها سيتم تحديد مرادات المتكلم فهو (تناقض بدوي) يمكن حله بالاعتماد على الأدوات اللغوية والعرفية في تحديد مرادات المتكلم.

ومن هنا يظهر الجواب عن قوله: (فإذا أخذنا بظاهر هذه الآيات لم يكن هناك بدّ من قبول حقيقة وجود الاختلاف فيه، وإن سعينا إلى التوفيق بين هذه المتناقضات بتأويل الآيات، فكل كتاب من تأليف البشر يخلو من التناقض حينئذ، ولا يقتصر الأمر على القرآن حتى يعدّ معجزة له، وحتى الكتب التي ألفها فيلسوف أو متكلم أو عالم نفس طيلة حياته ورأينا فيها بعض التبدل في الأفكار والنظريات بالإمكان التوفيق بينها بسلاح التأويل بحيث لا تعد اختلافاً أصلاً)[1].

فإن الحكم والفيصل في التناقض من عدمه هو ارتفاعه أو بقاؤه بعد إعمال القوانين اللغوية والقواعد العرفية والأسس التي جعلها المتكلم بمثابة الأدوات أو القرائن لفهم مراداته ودلالات كلماته فإن ارتفع التناقض بعد هذا الإعمال فهو ليس تناقضاً في روحه وحقيقته وإنما هو

---

(١) المصدر نفسه: ص١٠٢.

كذلك بحسب النظرة الأولية التي تخلو عادة من الالتفات إلى مقتضيات الأصول اللغوية والعرفية.

وإن بقي التناقض مستحكماً حتى بعد ذلك الإعمال فهو تناقض حقيقي، وإلا فان أي كلام لا يخلو من التناقض البدوي الأولي وعلى ذلك وجدت القوانين اللغوية المتبعة في تحديد المرادات من قبيل (العام والخاص والمطلق والمقيد والناسخ والمنسوخ وغيرها).

ومن هنا يتضح أن التأويل الذي يمكن الاعتماد عليه إنما هو ذلك التأويل المعتمد على تلك الأصول والقواعد اللغوية والعرفية والأدوات التي اعتمد عليها المتكلم في تبيان مراداته الواقعية لا كل تأويل يمكن أن ينشأ من الاستحسان وتحميل كلام المتكلم ما لا يحتمله.

وأخيراً فإن أحمد القبانجي يعترف في كتابه هذا بربانية القرآن الكريم ويزعم إعجازه من جهة الوجدان وبالتالي فهو معني بالإجابة عن التناقض القرآني المزعوم، إذ كيف يجتمع التهافت مع نسبته إلى الساحة الإلهية؟

إلا إذا كان القبانجي لا يرى ضيراً في التهافت السالف فذاك كلام آخر!

قال القبانجي:

٢ ـ لا يختلف اثنان من المفسرين أو العلماء على وجود اختلاف بين في الشكل والمحتوي وأسلوب الخطاب بين السور المكية والمدنية، وحتى نفس صاحب الميزان يؤيد هذه الحقيقة في بحث المكي والمدني، ومع ذلك نراه الآن ولتبرير عدم وجود الاختلاف يدعي عدم وجود الاختلاف في هذه الجهة أيضاً[١].

أقول: ليت القبانجي أوقفنا على كلام السيد العلامة وغيره من المفسرين لننظر فيه أولاً وليته بين لنا ماهي علاقة الاختلاف المزعوم في الشكل والمحتوى بالتناقض المدعى؟ وكيف يكون التفاوت في الشكل والمحتوى تناقضاً بالمعنى المبحوث عنه؟ مع إننا لو سلمنا وجود التفاوت الأسلوبي فإن هذا لا يعد تناقضاً أصلاً كيف والبلغاء تتفاوت منتجاتهم البلاغية من موضوع إلى آخر ومن قطعة أدبية إلى أخرى ولم يزعم أحد إن هذا التفاوت يندرج ضمن دائرة التناقض.

وحتى المحتوى الذي ذكره القبانجي والذي يمكن تقديم مسألة السلم والحرب والتي ذكرها سابقاً مثالاً عليه فإن أحداً من العقلاء لم يزعم إن هذا من التناقض فإنها مواقف مبنية على معطيات واقعية قد تختلف من فترة إلى أخرى ومعلوم أن الأحكام تتبع الموضوعات، فإذا تغيرت الموضوعات تغيرت الأحكام ولا يعد هذا تناقضاً في ذهن أحد، لأن

---

(١) سر الإعجاز القرآني: ص١٠٣.

التناقض إنما يكون بشرطه وشروطه ومن شروطه الاتحاد في الموضوع والمحمول، والاتحاد في الزمان والمكان وغير ذلك.

ويقول القبانجي[1]:

٣ . ويقول السيد المرتضى في رد هذا الوجه من الإعجاز:

«وأما من ذهب في إعجازه إلى زوال الاختلاف عنه والتناقض مع طوله، وادعى أن ذلك مما لم تجربه العادة في كلام طويل بمثله. والذي يبطل قوله: إنه لا شبهة في أن ذلك من فضائل القرآن ومن آياته الظاهرة، لكنه لا ينتهي إلى أن يدّعى أنّه وجه إعجازه وأن العادة انخرقت به، لأن الناس يتفاوتون في زوال الاختلاف والتناقض عن كلامهم، وليس يمتنع أن يزول عن الكلام ذلك كله مع التيقظ الشديد والتحفظ التام. فمن أين لمدعي ذلك أن العادة لم تجر بمثله؟

فأما قوله تعالى: (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)، فإنما هو جهة لعلمنا بالقرآن لو كان من عند غيره لكان فيه اختلاف، وإنما رددنا على من قال إني أعلم بذلك قبل العلم بصحة القرآن وجعله وجه إعجازه»

---

(١) المصدر نفسه.

ومع قليل من التأمل في هذا الكلام يتضح أنه لا يقوم على وجه وجيه من الرد المقبول، فيبقى ما ذكرنا من الوجهين المتقدمين في إبطال هذا الوجه، أما الكلام في الآية الشريفة والمقصود من عدم وجود الاختلاف في القرآن فسيأتي بيانه في الفصل الثالث. انتهى

أقول:

قد كفانا القبانجي مؤونة الرد على هذا الوجه رغم إنه يمكن رده بالالتفات إلى:

إن القرآن الكريم كتاب نزل خلال ثلاثة وعشرين عاماً من حياة النبي (صلى الله عليه وآله) وهي فترة شهدت مرحلة مضطربة مليئة بالحوادث الملتهبة، وزخرت بالكثير من التحديات والمحن والحوادث المرة والسعيدة، ولكن هذه المتغيرات لم يكن لها أي تأثير في تناسق محتويات القرآن وأسلوب إعجازه. ومثل هذا التناسق وعدم الاختلاف في شكله ومضمونه جهة أخرى من جهات إعجازه. وقد اشير إليها كما أشير للعلامتين السابقتين في القرآن الكريم: (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً).

وتوضيحه: إن كل إنسان يواجه – على الأقل – نوعين من المتغيرات، الأول: إن معلوماته وخبراته تأخذ بالتزايد والنمو، وهذا النمو والزيادة في ثقافته ومعلوماته وخبراته وقدراته تنعكس وتؤثر في

أحاديثه وكلامه، وبطبيعة الحال، سوف يبرز الاختلاف الواضح بين أحاديثه خلال عشرين عاماً.

والثاني: إن حوادث الحياة المختلفة تؤدي إلى ظهور حالات نفسية ومشاعر وأحاسيس مختلفة، أمثال: اليأس والأمل، والفرح والحزن، والقلق والهدوء، ولمثل هذا الاختلاف في الحالات تأثير كبير في تفكير المرء وفي أقواله وافعاله، وبطبيعة الحال، مع اشتداد هذه التغيرات واتساعها فإن أحاديثه سوف يطرأ عليها اختلاف كبير. وفي الواقع إن تغيرات الكلام خاضعة لتغيرات الحالات النفسية، وهي بدورها خاضعة لتغير الظروف الطبيعية والاجتماعية. فإذا افترضنا أن القرآن الكريم من صنع النبي (صلى الله عليه وآله) نفسه كإنسان خاضع لكل المتغيرات المذكورة، فمع ملاحظة الظروف المتغيرة الحادة التي شهدتها حياته فلابد أن تظهر في كلامه اختلافات كبيرة في شكله ومحتواه، مع أنه لم يشاهد أي أثر لمثل هذه الاختلافات.

إذن، فهذا الانسجام وعدم الاختلاف في مضامين القرآن، وفي مستوى بلاغته المعجزة، يعد علامة أخرى على صدور هذا الكتاب

الشريف من مصدر العلم الثابت واللامتناهي لله تعالى، الحاكم على الطبيعة وغير المحكوم لكل الظواهر المختلفة والمتغيرات[١].

(١) دروس في العقيدة الاسلامية – الشيخ مصباح يزدي: ص٢٩٨.

الفصل الخامس

القرآن وتحديه بالعلم

قال القبانجي[١]:

يقول العلاّمة: «وقد تحدّى بالعلم والمعرفة خاصة بقوله تعالى: (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء)، (ولا رطب ولا يابس إلاّ في كتاب مبين). إلى غير ذلك من الآيات، فإن الإسلام كما يعلمه ويعرفه كل من سار في متن تعليماته من كلياته التي أعطاها القرآن وجزئياته التي أرجعها إلى النبي، متعرض للجليل والدقيق من المعارف الإلهية الفلسفية والأخلاق الفاضلة والقوانين الدينية الفرعية من عبادات ومعاملات وسياسات واجتماعيات وكل ما يمسه فعل الإنسان وعمله، وقد بين بقاءها جميعاً وانطباقها على صلاح الإنسان بمرور الدهور وكرورها».

وقال صاحب «المنار» في تقرير هذا المضمون الإعجازي:

«الوجه الخامس: اشتماله على العلوم الإلهية، وأصول العقائد الدينية، وأحكام العبادات وقوانين الفضائل والآداب وقواعد التشريح

---

(١) سر الإعجاز القرآني: ص ١٠٥.

السياسي والمدني والاجتماعي الموافقة لكل زمان ومكان؛ وبذلك يفضل كل ما سبقه من الكتب السماوية، ومن الشرايع الوضعية، ومن الآداب الفلسفية، كما يشهد بذلك أهل العلم المنصفون من جميع الأمم الشرقية والغربية، من آمن منهم بكونه من عند الله تعالى أنزله على على رسوله الأمي، ومن لم يؤمن بذلك..

ولا شك أن هذا الوجه من أهم وجوه الإعجاز، فإن علوم العقائد الإلهية والغيبية والآداب والتشريع الديني والمدني والسياسي هي أعلى العلوم، وما ينبغ فيها من الذين ينقطعون لدراستها السنين الطوال إلا الأفراد القليلون، فكيف يستطيع رجل أمي لم يقرأ ولم يكتب ولا نشأ في بلد علم وتشريع أن يأتي بمثل ما في القرآن منها تحقيقاً وكمالاً، ويؤيده بالحجج والبراهين بعد أن قضى ثلثي عمره لا يعرف شيئاً منها، ولم ينطق بقاعدة ولا أصل من أصولها، ولا حكم بفرع من فروعها إلا أن يكون ذلك وحياً من الله تعالى؟».

ثم قال القبانجي:

ونلاحظ عليه:

١ ـ ليس في الآية المذكورة إشارة إلى التحدي والتنوية بالإعجاز من هذه الجهة، فالآية تقول: (فيه تبيان لكل شيء)، وهي إخبار عن حقيقة قرآنية لا أكثر.

أقول:

إن هذا الوجه في الإعجاز مبنائي وهو يستند على ما اختاره السيد العلاّمة (قده) من عموم إعجاز القرآن الكريم بالاستناد على عموم آيات القرآن الكريم التي يستدل بها لإثبات التحدي مثل قوله تعالى: {قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً}[1]. {وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} * {فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}[2].

لذا يقول (قده) في تفسيره آية ٢٣من سورة البقرة: (فالقرآن آية للبليغ في بلاغته وفصاحته، وللحكيم في حكمته، وللعالم في علمه، وللاجتماعي في اجتماعه، وللمقننين في تقنينهم، وللسياسيين في سياستهم، وللحكام في حكومتهم، ولجميع العالمين فيما لا ينالونه جميعاً كالغيب والاختلاف في الحكم والعلم والبيان....الخ)[3]. فمن المنطقي أن يتم الاستناد إلى هذه الآية الشريفة في التدليل على هذا المبنى.

---

(١) سورة الإسراء: آية ٨٨.

(٢) سورة البقرة: الآيات ٢٣-٢٤.

(٣) الميزان في تفسير القرآن: ج١ص٣١.

وبما ان أحمد القبانجي يرفض هذه الفكرة سلفاً فمن الطبيعي جداً أن يرفض هذا المبنى جملة وتفصيلاً، وأن يزعم إن هذه الآية ليس فيها إشارة للتحدي دون بذل أي وسع للجمع بين هذه الآية والآيات التي يستشف منها عموم التحدي.

٢ - يقول أحمد القبانجي: (إن العلوم والمعارف القرآنية لا تتناول جميع العلوم والمعارف البشرية حتى تكون ظاهرة إعجازية، لأن من الواضح أن العلوم الطبيعية من قبيل الفيزياء والكيمياء والفلك والأحياء وأمثال ذلك أكبر من أن يسع كلياتها كتاب واحد، والآية الكريمة تصرح بأن كل ما يحتاجه البشر في طريق الكمال الإلهي والسلوك إلى الله الذي هو الهدف والغاية من القرآن موجود في هذا الكتاب السماوي، والعموم المذكور في الآية لابد وأن يتطابق مع الهدف من إنزال هذا الكتاب، ومن الواضح أن الهدف ليس هو تعليم البشر أنواع الصناعات والمهارات الدنيوية والعلوم الطبيعية، لأن الإنسان يكفيه عقله ودوافعه الدنيوية للسير به في هذا الطريق)[1].

أقول:

---

(١) سر الإعجاز القرآني: ص١٠٦-١٠٧.

إن هذا الوجه من عنداياته ولا يستشف من كلمات العلمين، فالعلاّمة (قده) يقول: (فإن الإسلام كما يعلمه ويعرفه كل من سار في متن تعليماته من كلياته التي أعطاها القرآن وجزئياته التي أرجعها إلى النبي، متعرض للجليل والدقيق من المعارف الإلهية الفلسفية والأخلاق الفاضلة والقوانين الدينية الفرعية من عبادات ومعاملات وسياسات واجتماعيات وكل ما يمسه فعل الإنسان وعمله، وقد بين بقاءها جميعاً وانطباقها على صلاح الإنسان بمرور الدهور وكرورها)[1].

وهو ظاهر في كون تعاليم القرآن الكريم تتصل بكل ما يمسه فعل الإنسان وعمله لا مطلقاً، وهو واضح من نفس اختياره (قده) في تفسيره الآية الكريمة: {ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين}[2]، حيث يقول:

(وقوله: { ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين } ذكروا أنه استئناف يصف القرآن بكرائم صفاته فصفته العامة أنه تبيان لكل شيء والتبيان والبيان واحد - كما قيل - ، وإذ كان كتاب هداية لعامة الناس وذلك شأنه كان الظاهر أن المراد بكل شيء كل ما يرجع إلى أمر الهداية مما يحتاج إليه الناس في اهتدائهم

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج١، ص٩٨.

(٢) سورة النحل: الآية ٨٩.

من المعارف الحقيقية المتعلقة بالمبدأ والمعاد والأخلاق الفاضلة والشرائع الإلهية والقصص والمواعظ فهو تبيان لذلك كله.... هذا ما ذكروه وهو مبني على ما هو ظاهر التبيان من البيان المعهود من الكلام وهو إظهار المقاصد من طريق الدلالة اللفظية فإنا لا نهتدي من دلالة لفظ القرآن الكريم إلا على كليات ما تقدم، لكن في الروايات ما يدل على أن القرآن فيه علم ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة، ولو صحت الروايات لكان من اللازم أن يكون المراد بالتبيان الأعم مما يكون من طريق الدلالة اللفظية فلعل هناك إشارات من غير طريق الدلالة اللفظية تكشف عن أسرار وخبايا لا سبيل للفهم المتعارف إليها....الخ)[1].

أما كلام صاحب المنار فهو بين في ارادة (العلوم الإلهية، وأصول العقائد الدينية، وأحكام العبادات وقوانين الفضائل والآداب وقواعد التشريح السياسي والمدني والاجتماعي الموافقة لكل زمان ومكان...الخ) وليست هي كل العلوم بطبيعة الحال.

٣ – يقول القنابجي: (من عجيب استشهادات العلامة هو أنّه استشهد بالآية: "وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ" لإثبات المطلوب، في حين أن الآية تقرر حقيقةَ غيبيةَ وأن كَل حادثَة تقَع في عالم

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج١٢، ص١٦٨.

الخلق غير خافية عن علم الله، ومذكورة في عالم اللوح المحفوظ، أو لدى لدى الملائكة وما إلى ذلك، وأين هذا من ذكرها في القرآن الكريم؟!

وهل يسع القرآن لإيراد كل هذه الأحداث اللامتناهية؟!

وهذا هو ما نقصده من العقل الديني الذي يغطي على العقل السليم ويمنعه من إدراك الحقائق، ويؤمن بالعلوم الدينية الموروثة قبل غربلتها وتهذيبها)[1].

أقول:

ليس العلاّمة في وارد الاستشهاد بهذه الآية الشريفة على مراده بل في صدد القول إن ما من شيء مما مر ذكره في النقطة الأولى مما يمس الإنسان إلا وهو موجود في هذا الكتاب الشريف وليس من الضروري الاعتقاد أنه (قده) يعني المعنى الحرفي لهذه الآية، وهو أمر كثير الوقوع في محاوراتنا وأحاديثنا اليومية، كما في قول القائل: (لا يعزب عني علم أي شيء)، أو (عندي تبيان كل شيء) وغير ذلك وهي تعابير تدلل على سعة العلم والمعرفة من دون أن يكون قائلها في صدد الاستشهاد

---

(١) سر الإعجاز القرآني: ص١٠٧.

بمعانيها من الآيات الشريفة التي ليس بينها وبين مراد المتكلم إلا الاتحاد في اللفظ والصورة.

ويبدو هذا الأمر واضحا إذا وقفنا على تفسير السيد العلاّمة (قده) للآية المبحوث عنها، فقد قال في الميزان عند حديثه عن الآية ٥٩ من سورة الانعام: (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يعلَمها إلّا هو ويعلَم ما في الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وما تَسقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلّا يعلَمها ولا حَبَّةٍ في ظُلُمَاتِ الأَرضِ ولا رطْبٍ ولا يابسٍ إلّا في كِتَابٍ مبينٍ):

(فقد بان بما مر من البحث أولاً: أن المراد بمفاتح الغيب الخزائن الإلهية التي تشتمل على الأشياء قبل تفريغها في قالب الأقدار، وهي تشتمل على غيب كل شيء على حد ما يدل عليه قوله تعالى:

{وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم}.

وثانياً: أن المراد بالكتاب المبين أمر نسبته إلى الأشياء جميعاً نسبة الكتاب المشتمل على برنامج العمل إلى نفس العمل ففيه نوع تعيين وتقدير للأشياء إلا أنه موجود قبل الأشياء ومعها وبعدها، وهو المشتمل على علمه تعالى بالأشياء علماً لا سبيل للضلال والنسيان إليه، إليه، ولذلك ربما يحدس أن المراد به مرتبة واقعية الأشياء وتحققها الخارجي الذي لا سبيل للتغيير إليه فإن شيئاً ما لا يمتنع من عروض

التغير عليه إلا بعد الوقوع وهو الذي يقال: إن الشيء لا يتغير عما وقع عليه....الخ)[1].

٤ – يقول أحمد القبانجي: (إن ادعاء أن الإسلام فيه جميع المعارف السياسية والاجتماعية والحقوق والقوانين والأخلاق وما إلى ذلك هو ادعاء لا يقوم عليه برهان لا من خارج دائرة الدين ولا من داخلها. وقد أثبتت التجربة الإسلامية في إيران خواء هذا التصور الشمولي عن الدين الإسلامي وأنّها محتاجة في جميع أنساقها الاجتماعية والاقتصادية ومنظومتها الحقوقية والقضائية إلى المعارف البشرية والتجارب الحضارية والثقافية للشعوب المتقدمة، فبعد أكثر من عشرين عاماً على شروع هذه التجربة الإسلامية نجد أن القوانين الحاكمة والمناهج السائدة في النظام الاقتصادي والسياسة الخارجية والعلاقات التجارية وغير ذلك هي نفسها التي تحكم الروابط البشرية المعاصرة ونتاج عقل بشري خالص.

وعلى سبيل المثال سعى الخبراء في النظام الاقتصادي في الحكومة الإسلامية بكل جهدهم لحذف الربا من البنوك وممارسة تجربة البنك

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج٧، ص٦٨.

اللاربوي، فلم يوفقوا في ذلك وما زالت البنوك في إيران تتعامل بالربا والفائدة)[1].

أقول:

أولاً: المدعى هو اشتمال الإسلام على العلوم الإلهية، وأصول العقائد الدينية، وأحكام العبادات وقوانين الفضائل والآداب وقواعد التشريع السياسي والمدني والاجتماعي وكل ما يمسه فعل الإنسان وعمله.

وهذا الاشتمال على نحوين:

١- وجود نفس الأصول والاحكام والقوانين بتفاصيلها وجزئياتها في مصادر التشريع الإسلامي.

٢- إعطاء الضوابط الكلية والقواعد العامة وإيكال مسألة الجزئيات والتفاصيل المتغيرة وغير المنضبطة والتي قد لا توجد بشكل وصفة جاهزة إلى عملية الاجتهاد والاستنباط، وهي بدورها يمكنها الاستعانة بالكثير من المنتجات البشرية على مستوى القواعد العقلية والسير والمرتكزات العقلائية والفهوم العرفية وكذلك امضاء النكتة

---

(١) سر الإعجاز القرآني: ص١٠٧-١٠٨.

العقلائية في أبواب المعاملات والسياسات وغير ذلك بعد أن كانت هذه الأمور حجة في نفسها أو بلحاظ إقرار الشارع الاعتماد عليها.

وربما تستحسن الإشارة إلى نظرية الشهيد الصدر(قده) في مسألة الثابت والمتغير في الشريعة لرد بعض فقرات كلام القبانجي المتعلق بالاستعانة بالمخرجات البشرية، فإن لها نوع ارتباط بما نحن فيه، وهذه النظرية تقوم على دعامتين أساسيتين:

الأولى: ترك الإسلام، في نظامه التشريعي، منطقةً خالية من أي حكم إلزامي من وجوب أو حرمة، تسمى منطقة الفراغ وهذه المنطقة تعبر عن قدرة الشريعة على مواكبة العصور المختلفة.

الثانية: وضع الإسلام منطقة الفراغ الخالية من الحكم تحت تصرف ولي الأمر ليملأها على أساس متطلّبات الزمان ومصالحه، وفي ضوء أهداف الشريعة ومقاصدها.

وبكلمة أخرى:

إنّ في الفقه الإسلامي قسماً ثابتاً، وهناك قسم غير ثابت، بل متغير حسب الظروف والحاجات وهذا القسم متأطّر بعناوين القسم الأول. وهو ما يسمى بمنطقة الفراغ.

وعلى هذا، فإنّ ملء هذا القسم الثاني المتغير لا يكون لكل أحد، بل للعارف بأحكام القسم الأول وللخبير باستنباط أحكام القسم الثاني بما لا يتعارض مع أحكام القسم الأول ولا يكون هذا متأتّياً إلاّ للفقهاء[١].

ثانيا: قوله (وقد اثبتت التجربة الإسلامية في إيران خواء هذا التصور الشمولي عن الدين الإسلامي وأنّها محتاجة في جميع أنساقها الاجتماعية والاقتصادية ومنظومتها الحقوقية والقضائية إلى المعارف البشرية والتجارب الحضارية والثقافية للشعوب المتقدمة، فبعد أكثر من عشرين عاماً على شروع هذه التجربة الإسلامية نجد أن القوانين الحاكمة والمناهج السائدة في النظام الاقتصادي والسياسة الخارجية والعلاقات التجارية وغير ذلك هي نفسها التي تحكم الروابط البشرية المعاصرة ونتاج عقل بشري خالص) [٢].

فيه توهم إن جميع الأحكام الشرعية يجب أن توجد بعنوان الوصفة الجاهزة وحتمية عدم الاستعانة بالمخرجات البشرية وهو فهم خاطئ، فإن الشريعة قد استعانت كثيراً بالمعطيات البشرية بعد تقنينها وإمضائها

---

(١) منطقة الفراغ التشريعي.

(٢) سر الإعجاز القرآني: مصدر متقدم.

حتى قيل ما مؤداه: (أن الشريعة ليست مؤسسة في باب المعاملات بل ممضية).

أما الحديث عن التعامل الربوي فهو ان صح ففيه بعد تجاوز ما تتبناه بعض الاتجاهات الفقهية من التفريق بين الربا الاستهلاكي، وبين الربا الاستثماري وحصر الحرمة بالنوع الأول دون الثاني تعويلاً على كونه المتعارف في عصر النص، إن هذا الاعتماد المدعى إنما يصلح أن يكون مؤاخذة لو كان خالياً من تخريجه الفقهي، أما وإنه قد أقر فقهياً فلا مناص من القول بأن الشريعة قد اعتمدت عليه ولو من باب إمضائه وتجويز الأخذ به حتى لو لم يكن عنصراً أساسياً فيها، وإنما أملته الظروف الموضوعية.

اخيراً: تقدم قول العلامة الطباطبائي – قد –: (لكن في الروايات ما يدل على أن القرآن فيه علم ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة....الخ) وبالتالي تعرف محل كلام القبانجي: (لا يقوم عليه برهان لا من خارج دائرة الدين ولا من داخلها....) من الموضوعية.

قال القبانجي: (تصوير آخر للتحدّي بالعلم:

ويذكر العلماء وجهاً آخر للتحدّي بالعلم أو ما يسمى بالإعجاز العلمي، يقول الإمام الخوئي في تقرير هذا الوجه:

«.. القرآن وأسرار الخليقة: أخبر القرآن الكريم في غير واحد عما يتعلق بسنن الكون ونواميس الطبيعة وغيرها مما لا سبيل إلى العلم به في بدء الإسلام إلاّ من ناحية الوحي الالهي، وبعض هذه القوانين وإن علم بها اليونانيون في تلك العصور، أو ممن لهم سابق معرفة بالعلوم، إلاّ أن الجزيرة العربية كانت بعيدة عن العلم بذلك، وإن فريقاً مما أخبر به القرآن لم يتضح إلاّ بعد توفّر العلوم وكثرة الاكتشافات، وهذه الأنباء في القرآن كثيرة..».

ثم يورد عدة آيات كشاهد على هذا المدعى، منها قوله تعالى:

(وأنبتنا فيها من كل شيء موزون) للدلالة على أن لكل نبات وزن خالص.

(وأرسلنا الرياح لواقح) للدلالة على تأثير الرياح في تلقيح النباتات.

(ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين) للدلالة على قانون الزوجية.

(رب المشرقين ورب المغربين) للدلالة على كروية الارض.

ويـذكر الشـيخ مكـارم الشـيرازي في تفسـيره الموضـوعي «نفحـات القرآن» آيات أخرى في هذا الصدد منها:

(الله الـذي رفـع السـموات بغـير عمـد ترونهـا)، للدلالـة علـى قـانون الجاذبية.

(ثم استوى إلى السماء وهي دخان) إشارة إلى بداية خلق العالم.

(وترى الجبـال تحسبها جامـدة وهـي تمـر مـر السـحاب)، للإشـارة إلى حركة الأرض ودورانها.

(والشـمس تجـري لمسـتقر لهـا ذلـك تقـدير العزيـز العلـيم)، وفيهـا تصريح بحركة المنظومة الشمسية.

(والسـماء بنيناهـا بأيـد وإنـا لموسـعون)، وفيهـا دلالـة علـى توسـع السماء.

(ومـن آياتـه خلـق السـموات والأرض ومـا بـثّ فيهمـا مـن دابـة وهـو علـى جمعهـم إذا يشـاء قـدير)، للإشـارة إلى وجـود الحيـاة في الكـرات السماوية الأخرى.

(أيحسـب الإنسـان ألّـن نجمـع عظامـه بلـى قـادرين علـى أن نسـوي بنانه).

ونكتفي بهذا القدر من الآيات التي استشهدوا بها لإثبات هذا المطلب حرصاً على الاختصار وإيراد ما هو واضح البطلان من الاستشهادات الأخرى.

ويضيف القبانجي قائلاً:

المناقشة: يمكننا مناقشة هذا الادعاء بطريقين:

١ . الجواب بالحل:

وهو أن نقوم بتحليل المراد من الآيات المذكورة لنرى مدى صلاحيتها لإثبات المدعى المذكور، وهو الإعجاز العلمي، فنقول:

أما «الآية الأولى» في اثبات أن لكل شيء في عالم النبات وزن خاص ونسبة معينة على مستوى العناصر والمواد الأولية الدخيلة في تركيب النبات، فلا يفهم مقصود هذا العالم الجليل في كون هذا الكشف المكشوف لدى جميع الناس معجزة علمية، لذا نورد نص كلامه لعل القارئ الكريم يكتشف ما عسر علينا إدراك المعجزة فيه، قال (رحمه الله) بعد ذكر الآية الشريفة:

«فقد دلّت هذه على أن ما ينبت في الأرض له وزن خاص، وقد ثبت أخيراً أن كل نوع من أنواع النبات مركّب من أجزاء خاصة على وزن مخصوص، بحيث لو زيد في بعض أجزائه أو نقص لكان ذلك

مركباً آخر (ثم ماذا؟)، وأن نسبة بعض الأجزاء إلى البعض من الدقة بحيث لا يمكن ضبطها تحقيقاً بأدق الموازين المعروفة للبشر» وهو كما ترى[1]!!

أقول:

بعد تجاوز مسألة الانتقائية التي اتبعها القبانجي في تناول آيات الإعجاز في هذا الفصل أقول إنه من الغريب حقاً أن يزعم القبانجي أن مسألة تكون النبات من عناصر ومواد دخيلة في تركبه وبأوزان غاية في الدقة من الأمور المكشوفة لدى جميع الناس بعد كونه ادعاء عارياً من الإثبات ومخالفاً للوجدان فضلاً عن توقف معرفة نظام الأوزان في النباتات على التجربة وهي متأخرة كثيراً عن عصر النص.

ومن هنا (فإذا ما أضفنا إلى هذه الحقيقة المذهلة، أنّها عرضت على يد رجل أُمي لا يكتب ولا يقرأ عن كتاب ولا درس عند أُستاذ، من أُمّة عربية جاهلة، وفي بيئة بدوية متوغّلة في البداوة، في صحراء جرداء قاحلة، بعيدة عن حضارات الأمم وثقافات العالَم بمسافات شاسعة، فنحن إذاً أمام معجزة خارقة للعادة، لا شكّ فيها ولا ريب، وإنّما

(١) سر الإعجاز القرآني: ص١٠٩-١١٢.

يكابر فيها من استغلق على نفسه مشارع البصيرة، وعاقب نفسه؛ إذ حجب عنها إشعاع تلك الرحمة التي يشعها هذا الكتاب الكريم.

(إنّا هديناه السبيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً). (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور). (وما يلقّاها إلاّ الّذين صبروا وما يلقّاها إلاّ ذو حظّ عظيم)[1].

يقول أحمد القبانجي: (أما «الآية الثانية» فان المفسرين الأقدمين كما يقول السيد صاحب البيان حملوا اللقاح في الآية على معنى الحمل، وفسروا الآية المباركة بحمل الرياح للسحاب أو المطر، ولكن مكتشفات علماء النبات في العصر الحديث يقررون مهمة الرياح في تلقيح النبات، إلاّ أن هذا المعنى المذكور للآية لا أظنه قد خفي على المزارعين في قديم الأيام فضلاً عن المحققين، وعلى أية حال فإن أحد المعنيين للآية كان واضحاً لدى القدماء (سواء كان تلقيح السحاب أو النباتات) وبذلك يسقط الاستشهاد بالآية على المطلوب)[2].

أقول:

---

(١) التمهيد في علوم القرآن ج٦، ص١٨.

(٢) سر الإعجاز القرآني: ص١١٢.

١- قوله تعالى: (وأَرسلْنَا الرياحَ لَواقحَ فأَنزلْنا من السَّماءِ ماء فأَسقيناكُموه وما أَنتم لَه بخازنين).

ظاهر في كون عملية التلقيح سابقة على نزول المطر لمكان وجود فاء السببية ممّا يثبت أن تلقيح الرياح يعقبه نزول المطر أولاً، ولكون الأليق بالآية الكريمة لو كانت في صدد الحديث عن دور الرياح في حمل السحاب وبالتالي نزول المطر أن تتحدث عن نتائج نزول المطر وما يترتب عليه كما حصل في آيات كثيرة:

(اللَّهُ الَّذي خلَقَ السَّماوات والأَرضَ وأَنزلَ من السَّماء ماء فأَخْرجَ به من الثَّمرات رزْقًا لَّكُم وسخَّرَ لَكُم الْفُلْكَ لتجري في الْبَحرِ بأَمْرِه وَسخَّرَ لَكُم الأَنْهَارَ) (١).

(إنّ في خلْق السّماوات والْأَرضِ واخْتلاَف اللّيلِ والنهارِ والْفُلْك الّتي تَجْرى في الْبَحرِ بما ينفَع النّاس وما أَنزلَ الله من السّماء من ماء فَأَحيا فَأَحيا به الْأَرض بعد موتها وبث فيها من كُل دابّة وتَصْريف الرياحِ والسحابِ الْمسخّرِ بين السّماء والْأَرضِ لَآيات لقَوم يعقلُونَ)(٢).

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣٢.

(٢) سورة البقرة: الآية ٦٤.

{الَّذي جعل لَكُم الْأَرض فراشًا والسَّماء بناءً وأَنزلَ من السَّماء ماء فَأَخرج به من الثَّمرات رِزْقًا لَكُم فَلَا تَجْعلُوا للَّه أَندادا وأَنتم تعلَمونَ}[١].

تعلَمونَ}[١].

{وهو الَّذي أَنزلَ من السَّماء ماء فَأَخرجنا به نبات كُل شَيْء فَأَخرجنا منْه خَضرا نُخْرِج منْه حبًّا متراكبا ومن النَّخْل من طَلْعها قنوانٌ قنوانٌ دانيةٌ وجنَّات من أَعْناب والزَّيتونَ والرُّمَّانَ مشْتبها وغَيرَ متشابه انْظُروا إلَى ثَمَره إذَا أَثْمَرَ وينْعه إنَّ في ذَلكُمْ لَآيَات لقَوْم يؤْمنُونَ}[٢].

{هو الَّذي أَنزلَ من السَّماء ماء لَكُم منْه شَراب ومنْه شَجر فيه تُسيمُونَ}[٣].

{أَلَم تر أَنَّ اللَّه أَنزلَ من السَّماء ماء فَسلَكَه ينَابيعَ في الْأَرض ثُمَّ يخْرِج به زرعا مُخْتَلفًا أَلْوانُه ثُمَّ يهيج فتراه مصفَرًّا ثُمَّ يجعلُه حطَاما إنَّ في ذَلكَ لَذكْرى لأُولي الْأَلْبَاب}[٤].

وغير ذلك كثير.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٢.

(٢) سورة الانعام: الآية ٩٩

(٣) سورة النحل: الآية ١٠.

(٤) سورة الزمر: الآية ٢١.

٢- ومن هنا فان الآية الكريمة تشير إلى معجزة علمية لم تكتشف إلا في وقت متأخر كثيراً عن عصر النص وهي: المعروف أن هناك عوامل ثلاث لنزول المطر إذا توفّرت لابدّ من نزوله، وإذا نقص عامل منها فلا إمكان لحصوله، واحد هذه العوامل هي الإشباع؛ وهو (استمرار التبخر حتى يبلغ حدّاً معيناً، ويسمى بدرجة التشبع، وتختلف حسب اختلاف المناخ)، ومن ناحية أُخرى أنّ درجة التشبع تتوقّف على ظاهرتين طبيعيتين أُخريين، لابدّ منهما في وصول الهواء إلى حالة الإشباع الكافي:

الظاهرة الأولى: هي التساوي في الضغط، فلبخار الماء المتصاعد ضغط كما لبخار الهواء المتشبع ضغط، فإذا تساوى الضغطان فالتبخر والتكاثف يتعادلان، وفي هذه الحالة يقال: إنّ الهواء مشبع بالبخار الكافي، والمطر نتيجة لازمة لهذا التعادل.

والظاهرة الثانية: هي اتّحاد الكهربائيتين، فإنّ السحب ذوات تكهرب، وكل سحاب يحمل نوعاً من نوعي الكهرباء السالبة والموجبة، فإذا ما تقارنت السحب واختلف نوع الكهرباء فيها تجاذبت، وإلاّ تنافرت، شأن الكهرباء عموماً يتجاذب نوعان منه ويتنافران من النوع الواحد.

واجتماع السحب وتأليف بعضها مع بعض إنّما هو بفعل الرياح، تثير السحب من مكان إلى مكان، فإذا جمعت الرياح بين نوعين من الكهربائية ذوات الموجبة وذوات السالبة فعند ذلك تتجاذب بعضها إلى بعض وتتقارب وتتآلف، وبذلك يحصل اللقاح الناتج للإمطار، (وأَرسلْنَا الرياح لَواقِحَ فَأَنزلْنَا من السّماءِ ماء فَأَسقَيناكُموه وما أَنتم لَه بخَازنِينَ).

يا ترى من ذا كان يعرف هذه الظاهرة الطبيعية يومذاك؟! أن تقوم الرياح الباردة فتثير سحاباً، وهي تدفع السحب المكهربة إلى لقاء بعضها مع بعض، وتلقى بالسحابة السالبة التكهرب بين أذرع سحابة أُخرى موجبة التكهرب، وبذلك يحدث عملية اللقاح، الناتجة للبرق والرعد ونزول المطر الغزير، فيخصب الأرض ويمهدها للإنبات، وهي عملية أُخرى للّقاح في التربة الصالحة، بين الماء والأرض[1].

يقول القبانجي:

«الآية الثالثة» تقرر قانون الزوجية في النبات، وهناك آيات أخرى تذكر هذا القانون بصفة شمولية لجميع المخلوقات، كقوله تعالى: (ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون).

---

(١) التمهيد: ج٦، ص١٤٨.

ولكن ليس في هذا المعنى شيء من الإعجاز العلمي، ففي عالم النبات وبما أنّها تتمتع بروح الحياة فمن السهل قياس النباتات على الحيوانات والإنسان حيث يشتركون جميعاً في روح الحياة. وبما أن الزوجية مشهودة في كل من الإنسان والحيوان، فكذلك للنبات وخاصة بعد وجود قانون الزوجية في النخل الذي هو من أفراد النبات.

ثم إنه لم يثبت هذا القانون علمياً في جميع الكائنات، أي لم يستطع العلم اكتشاف أن هذا القانون سار في جميع الكائنات على مستوى الاستقراء التام، بل اكتشف البعض منها مما لا يحقق صفة الشمولية لهذا القانون بصورة جازمة، بل أن موارد كثيرة ثبت عدم صحة هذا القانون فيها، من قبيل أنواع البكتريا الاحادية الخلية التي تتكاثر بوسيلة بوسيلة الانشطار وبعض الديدان التي تعيش في أمعاء الإنسان والحيوان (الدودة الشريطية) أو عالم النجوم والكواكب والمجرات السابحة في الفضاء اللامتناهي، فأين الذكر منها وأين الانثى، وكذلك الكلام على مستوى الملائكة التي ورد أنّها من جنس واحد، فلا هي مذكر ولا مؤنث، وغير ذلك[1].

أقول:

---

(١) سر الإعجاز القرآني: ص١١٣.

يريد أحمد القبانجي أن يقنعنا بدعوة تخالف الوجدان وتجانف الذوق السليم وهي أن البشرية بعلمائها ومفكريها قد عجزت عبر أجيال متواصلة وإلى وقت قريب نسبياً من اكتشاف قانون الزوجية في النباتات رغم إمكاناتها المعرفية الهائلة قياساً إلى بيئة الجزيرة العربية البعيدة عن كل ما يمت للعلم والفكر بصلة، إلا إن رجلاً أمياً مقطوع الصلة بحركة العلم والمعرفة على نسبيتها وانخفاضها في عصره ينتمي إلى ذلك الصقع المقفر فكرياً قد تمكن من ذلك الاكتشاف الخطير!

رجل كان تقييم قومه له على مستوى قدراته المعرفية الذاتية.

(وَلَقَدْ نعْلَمُ أَنهُمْ يقُولُونَ إِنَّمَا يعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذي يلْحدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ)[1].

(وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَولِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً) [2].

يعنون بقوله.

---

(١) سورة النحل: الآية ١٠٣.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٥.

(وقَالَ الَّذين كَفَروا إنْ هذَا إلاَّ إفْكٌ افتراه وأَعانَه عَلَيْه قوم آخرونَ فقَدْ جاؤوا ظُلْما وزورا)[١].

ومن قبلهم يأمره قرآنه أن يقيم (صلى الله عليه وآله) نفسه بمعزل عن الوحي والمدد الإلهي:

{وَمَا كُنتَ تَتْلُو من قَبْله من كتَاب وَلا تَخُطُّهُ بيَمينكَ إذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطلُونَ}[٢].

(قُل لَّوْ شَاء اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ ولاَ أَدْرَاكُم به فَقَدْ لَبثْتُ فيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْله أَفَلاَ تَعْقلُونَ)[٣].

واللافت أن القبانجي قد أثار إشكالاً حول الإعجاز الوجداني فحواه: (إن العقل لا يمانع في أن يفترض الشخص نفسه إلها ويتحدث مع الآخرين من موقع الألوهية كما يجري مثله في المسرحيات والأفلام السينمائية)، ثم حاول الإجابة عنه بالقول:

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٤.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٤٨.

(٣) سورة يونس: الآية ١٦.

(ولكن هذا قياس مع الفارق، فهل وجد إنسان على وجه الأرض أو سيوجد في المستقبل يستطيع أن يتلبس بهذا الدور لمدة ٢٣ سنة من دون أن يظهر للناس ولأقرب المقربين إليه أن هذا المدعي إنما يصطنع الكلمات في دائرة التمثيل والتخيل؟)[١].

فترى إنه جعل جوابه مبتنياً على التعذر العملي رغم إن المسألة ممكنة على المستوى النظري إلا أنه هنا يكتفي في رد الإعجاز بالإمكان النظري دون أخذ التعذر العملي الذي اعتمد عليه في إعجازه الوجداني بنظر الاعتبار!

ويبقى قول القبانجي:

(ثم إنه لم يثبت هذا القانون علمياً في جميع الكائنات، أي لم يستطع العلم اكتشاف أن هذا القانون سار في جميع الكائنات على مستوى الاستقراء التام... الخ)[٢].

يحمل من الغفلة الشيء الكثير فإن نفس ثبوت سريان قانون الزوجية في أشياء خارج حدود المألوف والمنظور مما لا يصل إليه التأمل

---

(١) سر الإعجاز القرآني: ص٢١١.

(٢) سر الإعجاز القرآني: مصدر سابق.

البشري العادي كاشف عن عظم إعجاز القرآن الكريم من دون أن يتوقف ذلك على إثبات ذلك السريان في جميع الوجودات والكائنات، هذا أولاً.

وثانيا: أنّ كلمة «الزوج» تطلق عادةً على جنسي الذكر والأُنثى، سواء في عالم الحيوانات أو النباتات، وإذا ما توسعنا في استعمال هذه الكلمة فإنّها ستشمل جميع الطاقات الموجبة والسالبة (- و+) ومع ملاحظة ما جاء في القرآن (ومن كل شيء) فهو يشمل جميع الموجودات لا الموجودات الحية فحسب. فيمكنها أن تشير إلى هذه الحقيقة وهي أنّ جميع أشياء العالم مخلوقة من ذرات موجبة وسالبة، ومن المسلّم به هذا اليوم من الناحية العلمية أنّ الذرات مؤلّفة من أجزاء مختلفة، منها ما يحمل طاقة سالبة تدعى بالألكترون، ومنها ما يحمل طاقة طاقة موجبة وتدعى بالبروتون[1].

ويقول أحمد القبانجي:

«الآية الرابعة» التي استدل بها على كروية الأرض باعتبار أن لكل جانب منها مشرقاً ومغرباً، ولو كانت مسطحة لكانت ذات مشرق واحد ومغرب واحد كذلك. ولكن هذا المعنى أيضاً لا يصلح لكونه

---

(١) تفسير الأمثل: ج١٧، ص١٢٤.

معجزة علمية، فالعلماء وخاصة علماء الإغريق قبل ميلاد المسيح بعدة قرون أثبتوا كروية الأرض بالعديد من الأدلة، كما نقرأ ذلك في كتب «أرسطو» وغيره من فلاسفة اليونان، وهذا المفهوم انتشر حتماً بين الناس بتطاول الزمان وتمادي الأعوام وتلاقح الحضارات، فلا يعتبر كشفاً علمياً للقرآن الكريم.

ثم إنه قد يكون المراد بالمشرقين والمغربين معان أخرى ذكرها المفسرون في أسفارهم ومسطوراتهم، منها: أن المراد مشرق الشمس والقمر ومغربهما، أو مشرق الشمس في الشتاء والصيف ومغربها كذلك حيث تشرق الشمس في الشتاء من مكان غير مكان شروقها في الصيف، وكذلك الغروب.

والآية لا تعين المراد منها وأنّه الأول من هذه المعاني حتماً [1].

أقول:

يظهر جوابه من نفس كلام السيد الخوئي (قده) الذي نقله القبانجي نفسه إلا إنه لم يتأمله عمداً أو سهواً!

---

(١) البيان في تفسير القرآن: ص٧٠.

يقول السيد الخوئي (قده): (أخبر القرآن الكريم في غير واحدة من آياته عما يتعلق بسنن الكون، ونواميس الطبيعة، والأفلاك، وغيرها مما لا سبيل إلى العلم به في بدء الإسلام إلا من ناحية الوحي الإلهي.

وبعض هذه القوانين وإن علم بها اليونانيون في تلك العصور أو غيرهم ممن لهم سابق معرفة بالعلوم، إلا أن الجزيرة العربية كانت بعيدة عن العلم بذلك.

وإن فريقا مما أخبر به القرآن لم يتضح إلا بعد توفر العلوم، وكثرة الاكتشافات)[1].

وفي صدد دلالة آية: {رب المشرقين ورب المغربين} على كروية الأرض كان البحث العلمي يحتم عليه أن يورد كلام المحقق الخوئي (قده) الذي يستدل به على كروية الأرض وينقده نقداً علمياً لو استطاع إلى ذلك سبيلاً لا أن يورد الدعوة مجردة عن دليلها!

يقول السيد الخوئي (قده): (وهذه الآية الكريمة قد شغلت أذهان المفسرين قروناً عديدة، وذهبوا في تفسيرها مذاهب شتى. فقال بعضهم: المراد مشرق الشمس ومشرق القمر ومغرباهما، وحمله بعضهم على مشرقي الصيف والشتاء ومغربيهما. ولكن الظاهر أن المراد بها الإشارة إلى وجود قارة أخرى تكون على السطح الآخر للأرض يلازم شروق الشمس عليها غروبها عنا. وذلك بدليل قوله تعالى: {يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين}.

فإن الظاهر من هذه الآية أن البعد بين المشرقين هو أطول مسافة محسوسة فلا يمكن حملها على مشرقي الشمس والقمر ولا على مشرقي الصيف والشتاء، لأن المسافة بين ذلك ليست أطول مسافة محسوسة

---

(١) البيان في تفسير القرآن ص٧١.

فلا بد من أن يراد بها المسافة التي ما بين المشرق والمغرب. ومعنى ذلك أن يكون المغرب مشرقاً لجزء آخر من الكرة الأرضية ليصح هذا التعبير، فالآية تدل على وجود هذا الجزء الذي لم يكتشف إلا بعد مئات من السنين من نزول القرآن.

فالآيات التي ذكرت المشرق والمغرب بلفظ المفرد يراد منها النوع كقوله تعالى:

{ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله}.

والآيات التي ذكرت ذلك بلفظ التثنية يراد منها الإشارة إلى القارة الموجودة على السطح الآخر من الأرض.

والآيات التي ذكرت ذلك بلفظ الجمع يراد منها المشارق والمغارب باعتبار أجزاء الكرة الأرضية كما نشير إليه)[1].

ويمضي القبانجي قائلاً:

«الآية الخامسة» يستدل بها المدّعي للإعجاز العلمي على أساس كشفها عن قانون الجاذبية بتقريب أن العمد الذي لا يرى في رفع

---

(١) المصدر السابق.

السماء هو عمد الجاذبية بعد أن أثبت العلم الحديث أن الأجرام السماوية خاضعة في حركتها ودورانها لتأثير الجاذبية، ولكن هذا الادعاء بعيد عن مفهوم الآية، بل تحميل صريح على معناها، فالآية بقولها: (الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها) تلفت ذهن الإنسان إلى القدرة الإلهية في خلق السموات وتوحي إليه بعظمتها وأنّه كيف يعجز الإنسان عن رفع سقف بيته أو خيمته بدون عمد رغم تفاهة هذا الشيء وخفته بينما ترتفع السماء مع كل ما فيها من أجرام عظيمة وشموس منيرة من دون عمد!! ألا يكون ذلك دليل القدرة الإلهية العظيمة التي تقف وراء هذه الظاهرة؟!

فالغاية المقصودة من هذه الآية كما في سائر الآيات المماثلة هي تبيين عظمة القدرة الإلهية المدبرة لهذا العالم لا أكثر، ولذلك تصرح الآية «الله الذي رفع..»، فلو كان المقصود الإشارة لقانون الجاذبية لكانت الآية (أفلا يرون إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلاّ الرحمن) إشارة إلى قانون ضغط الهواء الذي يستفاد منه في تحليق الطائرات، وقوله: (وترى الفلك فيه مواخر) إشارة إلى قانون ضغط الماء.. وهكذا. والحال أن هذه التحميلات غير مقصودة من الآيات قطعاً.

والآخر أن تشبيه الجاذبية بالعمد لا يخلو من غرابة، فمتى كانت الجاذبية على شكل العمود؟ ولو كان التشبيه بالسلسلة كان أقرب

حتماً، فالعمود يشكل لما يحمله قوة دافعة تمنعه من السقوط، والجاذبية قوة جاذبة للشيء تمنعه من الابتعاد والفرار[١].

أقول:

قيل إن جملة (بغير عمد ترونها) لها تفسيران:

١- فكما ترون أنّ السماء مرفوعة بدون عمد (أي انّها في الأصل بلا عمد كما ترونها فعلاً).

٢- والثانية إن (ترونها) صفة للعمد فيكون المعنى: إنّ السماء مرفوعة بعمد ولكن لا ترونها لأنّها غير مرئية![٢]

يقول العلامة الطباطبائي (قده):

(ويظهر أيضاً: أن قوله: {بغير عمد} متعلق برفع و{ترونها} وصف للعمد والمراد رفعها بغير عمد محسوسة مرئية، وأما قول من يجعل: {ترونها} جملة مستأنفة تفيد دفع الدخل كأن السامع لما سمع قوله: {رفع السماوات بغير عمد} قال: ما الدليل على ذلك؟ فأجيب وقيل:

---

(١) سر الإعجاز القرآني: ص١١٤-١١٥.

(٢) البيان في تفسير القرآن: ص٧٣.

{ترونها} أي الدليل على ذلك أنها مرئية لكم، فبعيد. إلا على تقدير أن يكون المراد بالسماوات مجموع جهة العلو على ما فيها من أجرام النجوم والكواكب والهواء المتراكم فوق الأرض والسحب والغمام فإنها جميعاً مرفوعة من غير عمد ومرئية للإنسان)[1].

والذي يرجح التفسير الثاني امران:

الأول: إنّ الضمير في قوله: (ترونَها)، يرجع إلى (عمد) لا إلى (السَّموات)، لقرب الأول وبعد الثاني، والمعنى «الله الّذي رفع السموات بعمد غير مرئية الخ». بمعنى: إنّ للسموات عمداً، ولكن لا ترونها.

الثاني: بعض الأخبار الواردة في بيان معنى العمد:

فمن ذلك ما رواه الصدوق، عن أبيه، عن الحسين بن خالد، عن أبي الحسن الرضا (عليه السَّلام)، قال: قلت له: «أخبرني عن قول الله تعالى: (... رفَع السَّموات بغَيْر عمد ترونَها).» فقال: «سبحانه الله، أليس يقول: (بغَيْرِ عمد ترَونَها)؟» فقلت:

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج١١، ص٢٨٩.

«بلى». فقال: «ثمَّ عمد، ولكن لا ترى...الخ) [١].

وهكذا ما روي عن الإمام أمير المؤمنين (عليه السَّلام) أنّه قال: «هذه النجوم الّتي في السماء مدائن، مثل المدائن الّتي في الأرض، مربوطة كل مدينة إلى عمود من نور». وفي بعض النسخ: "عمودين من نور"[٢].

فما هذه الأعمدة الّتي يثبتها القرآن للسموات، ولا نراها؟ فإذا كانت الجاذبية العامة، والقوة المركزية الطاردة، عمد تمسك السموات، فتكون الآية ناظرة إلى تلكما القوتين المتعاندتين، وإنّما جاء القرآن بتعبير بتعبير عام حتى يفهمه الإنسان في القرون الغابرة والحاضرة، ولو أتى بما اكتشفه العلم الحديث، لَرُمِيَ القرآن قبل الاكتشاف، بالخطأ والزلل[٣].

ويقول القبانجي:

«الآية السادسة» التي تتحدث عن بداية خلق السموات والأرض وأنّها كانت على شكل دخان كما هو المقبول في الأوساط العلمية

---

(١) ميزان الحكمة: ج٣، ص٥٦.

(٢) بحار الانوار: ج٥٥، ص٩١.

(٣) الإلهيات: ج٣، ص٤٣٠.

الفلكية في العصر الحديث، فهي بدورها لا تشكل كشفاً علمياً خارقاً، لأن علماء الفلك في هذا المجال لا يتحدثون عن قضية علمية مسلّمة لا لا تقبل النقاش، بل هي إحدى الفرضيات المقبولة إلى جانب فرضيات أخرى، أي إن أدوات العلم الحديث قاصرة عن تناول مثل هذه المواضيع المتوغلة في الزمن بالتجربة المنتجة لليقين والجزم، فتبقى المسألة مجرد فرضية علمية مظنونة كما في نظرية زحزحة القارات، وتكامل الأنواع لداروين، وانفجار الشمس وتولّد الكواكب السيارة وأمثال ذلك[1].

أقول:

إن نفس تطابق القرآن الكريم مع المقبول في الأوساط العلمية الفلكية (كما يقول القبانجي) هو بحد ذاته إعجاز حتى ولو كانت القضية لا تعدو كونها فرضية علمية لم تصل بعد إلى حد التسليم، لأنه من الغريب حقا أن يتحدث إنسان أمي نشأ في بيئة متخلفة معرفية عن (أفكار) تطابق الفروضات العلمية من دون أن يكون لهذا التطابق أي تفسير منطقي اللهم إلا الاتصال بساحة الغيب والاستمداد من الوحي الإلهي!

---

(١) سر الإعجاز القرآني: ص١١٥.

وكذلك يقول:

«الآية السابعة» التي استدل بها على إخبار القرآن الكريم بحركة الأرض ودورانها من خلال التصريح بحركة الجبال:

(ترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب).

ولكن هذه الآية كمثيلاتها لا تعدّ فتحاً علمياً وكشفاً إعجازياً للقرآن الكريم، لأن أدنى تصور لحركات الأجرام السماوية الدائبة ودورانها في الفضاء يمتد هذا التصور إلى الأرض كأحد هذه الكرات السابحة في الفضاء، أي انه لا يحتاج إلاّ إلى التفاتة صغيرة من كل إنسان متدبر في أمر السماء ونجومها، وأما القول بسكون الأرض فلم يكن في ذلك الزمان كحقيقة مسلّمة إلاّ ما كان من نظرية بطليموس في محورية الأرض لجميع الكواكب والأجرام السماوية، وسكونها ودوران الأفلاك حولها. فليس القول بحركة الأرض دورانها بالشيء الجديد الذي أفرزته النهضة العلمية في أوربا، وما كان من «كوبرنيك» البولندي ونظريته في دوران الأرض حول الشمس وإبطاله لنظرية بطليموس السابقة هو أنّه طرح هذه المسألة بصورة مستدلّة وأثبت ذلك بالبراهين العلمية، لا أنّه مبتكر هذه الفكرة.

على أنّه لو كانت الأرض ساكنة واقعاً لرأيت هؤلاء العلماء والمفسرين المحدثين يتحركون في تفسيرهم لهذه الآية بما يوافق سكونها

أيضاً، فصدر المتأهين مثلاً يستدل بهذه الآية على نظريته في الحركة الجوهرية، وآخرون فسروها في حركة الجبال يوم القيامة والآية لا تأبى الحمل على كلٍ من هذه التفاسير المذكورة.

ثم إن لقائل أن يقول إن الجبال لا تتحرك واقعاً، فما نسب إلى الجبال من الحركة والسير في الآية لابد أن يحمل على المجاز على أساس الحركة التبعية للأرض، فالأرض هي التي تسير واقعاً لا الجبال، وحينئذ وبارتكاب المجاز في المعنى لا تكون الآية صريحة على حركة الأرض وإن وإن كان هذا التفسير هو الأقرب والأفضل[1].

أقول:

مرة أخرى يريد منا أحمد القبانجي أن نخالف الوجدان ونجانف الذوق فندعي أن رجلاً أمياً لم يستجمع أبسط المقومات المعرفية الذاتية قد توصل إلى كشف علمي عجز عنه أساطين الفكر وأرباب المعرفة وأساتذة العلوم رغم أن هذا الكشف (لا يحتاج إلاّ إلى التفاتة صغيرة من كل إنسان متدبر في أمر السماء ونجومها) على تعبير أحمد القبانجي!

---

(١) المصدر نفسه.

مع إن النظرية السائدة في ذلك العصر تؤكد على سكون الأرض – على الأقل لا نجد دليلاً يتنافى مع هذا الادعاء – وهو المتناسب مع المحسوس بحيث يصعب جداً من العقل العادي أن يخالف الاعتقاد بسكونها المحسوس لديه فيدعي إن الجبال بما فيها من الوزن والثقل والارتفاع تسير كما هي السحاب وهو أمر يفسر في بعض أسبابه الرفض الشديد من الكثيرين لفكرة دوران الأرض وحركتها حتى لاقى الكثير من العلماء الإهانة تلو الاهانة لا لشيء إلا لأنهم رفضوا فكرة سكون الأرض.

أما قوله: (وحينئذ وبارتكاب المجاز في المعنى لا تكون الآية صريحة على حركة الأرض وإن كان هذا التفسير هو الأقرب والأفضل) فلا ندري ما مقصوده منه تحديداً بعد أن كان المجاز كثير الاستعمال وبمعونة القرائن عقلية كانت أم غيرها في التدليل على المراد والإيصال إلى المطلوب.

يقول القبانجي:

«الآية الثامنة» استدل بها على حركة الشمس مع منظومتها في ضمن حركة المجرة «مجرة درب التبانة» مما يحقق نصراً علمياً للقرآن لم يكن قد اكتشف في السابق.

وأنت ترى ما في هذا الكلام من تحميل للآية، فحركة الشمس محسوسة من الشرق إلى الغرب، ولم يقل أحد بأن الشمس ثابتة إطلاقاً، أما أنّها كيف تجري وتتحرك؟ هل حول الأرض، أو حركة مركزية حول نفسها، أو مع منظومتها حول مدار معين في المجرة العظمى؟ فهذا لم تتحدث عنه الآية، ومن التعسف أن نحمل الآية ما ليس فيها[1].

أقول:

تدل الآيات الشريفة (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي يَسْبَحُونَ)[2].

في بعض مفاصلها على حركة للشمس تخالف المعروف والمحسوس وما سجله القبانجي بحمله الآية الكريمة على الحركة المحسوسة بعيد عن ظاهرها جداً وذلك:

---

(١) سر الإعجاز القرآني: ص١١٧.

(٢) سورة يس: الآيات ٣٨- ٤٠.

أولاً: لأنّ الجري غير الدوران، فالجري يحكي عن الحركة المستقيمة أو الطولية، والدوران يحكي عن الحركة الدائرية، والآية تشير إلى الحركة الدائرية للشمس بقوله: ﴿لاَ الشَّمس ينبَغي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمر ولاَ الليل سَابِقُ النهَار وكُلٌّ في فلَك يسبَحون﴾ ولكن قوله: ﴿والشَّمس تَجْرِي لمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ إنّما يحكي عن الحركة الطولية وهي التي ندعي كشف القرآن الكريم عنها.

وثانياً: أنّ كلمة ﴿مستقر﴾ في الآية ظاهرة بمقتضى السياق في أنّها اسم مكان وليست اسم زمان، فإنّ الجريان في قوله: ﴿والشَّمس تَجْرِي﴾ كان ظاهراً في التحرك المكاني لا في البعد الرابع الذي يعني الحركة الزمانية أو الجري الزماني، فمعنى الآية والله العالم هو أنّ الشمس الشمس تسير سيراً طولياً في الفضاء إلى نقطة معينة تستقر فيها، وينتهي وينتهي السير إليها، وهذا يطابق تماماً ما اكتشفوه أخيراً من سير الشمس بمنظومتها إلى نجمة (وكا) أو (إلى الجاثي على ركبتيه)، فمن أين جاء القرآن بهذه المعلومة قبل أربعة عشر قرناً لولا كونه من قبل الله الله سبحانه وتعالى الخالق لهذا العالم وما فيه والعالم بكل شيء؟ (١)

ويقول:

---

(١) أصول الدين – السيد كاظم الحائري: ص١٨٨.

«الآية التاسعة» تصرح بأن الله تعالى خلق السموات بقدرته، وهو مستمر في توسعتها، أو أنّه سوف يقوم بتوسعتها في اللاحق كما هو مقتضى الفعل المضارع «وإنا لموسعون»، وهذا المعنى كما يدعي صاحب النفحات والتفسير الأمثل وغيره من العلماء أنّه موافق لآخر الكشوفات العلمية في عالم الفلك، حيث يؤكد بعض علماء الفلك بأن العالم في حالة توسعة مستمرة.

وهذا الادعاء كما ترى غير مفهوم من الآية حتماً، أي أن الآية لا تصرح بأن عملية التوسعة هي عملية فعلية، بل جاءت بصيغة اسم الفاعل، فيحتمل أن التوسعة تتحقق فيما بعد، كأن تقع يوم القيامة.

مضافاً إلى أننا قلنا أن هذه الكشوفات العلمية لا تتعدى مستوى النظرية وتفتقد إلى أدوات الاثبات العلمي. والعلماء لا يطرحونها كأمر مسلّم لا يمكن الخدشة فيه، وحتى لو ثبت قول بعض علماء الفلك كجورج كاموف وغيره بأن المجرات السماوية تبتعد عن مركز العالم باستمرار، فان زيادة الفواصل بين الكواكب والمجرات العظيمة لا يعني اتساع السماء لو أخذنا بالنظرية المشهورة في لا محدودية العالم، فاللامحدود واللامتناهي لا يعقل في حقّه الاتساع إلاّ على سبيل المجاز

بأن يكون المراد من التوسعة المذكورة سعة الفاصلة بين الأجرام السماوية لا سعة نفس السماء[١].

أقول:

بخصوص الآية الكريمة: (والسماء بنيناها بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ).

يقال: آد يأيد أيداً، وزان: باع يبيع بيعاً، بمعنى اشتدّ وقوى وصلُب. أي بنينا السماء بقوة وإحكام. والإيساع: الإكثار من الذهاب بالشيء في الجهات.

والآية نصت على فعلية هذا الاتّساع ولا يزال، وليس مجرد القدرة عليه فحسب لظهور الوصف (المشتق) في فعلية النسبة، لا شأنيتها[٢].

ومن هنا تعرف قيمة كلامه (أن الآية لا تصرح بأن عملية التوسعة هي عملية فعلية، بل جاءت بصيغة اسم الفاعل، فيحتمل أن التوسعة تتحقق فيما بعد، كأن تقع يوم القيامة).

---

(١) سر الإعجاز القرآني: مصدر سابق.

(٢) التمهيد في علوم القرآن: ج٦، ص١١٤.

وقد تقدم ما يعرف منه ان عدم كون التوسعة في عالم النجوم من المسلّمات وأنه لا يعدو كونه في طور النظرية لا يخدش في إعجاز القرآن الكريم ولو من جهة هذا التطابق المثير إلا إذا آمن أحمد القبانجي بأن الأمر يندرج في إطار الصدفة المحضة وليس هو عنه ببعيد!

ويقول القبانجي:

«الآية العاشرة» وفيها يدعي أنّها تحكي عن وجود عنصر الحياة في الكرات السماوية كما يظهر من قوله تعالى: (ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة) على أساس أن «فيهما» يعود إلى السماوات والأرض، ولكن متى أثبت العلم الحديث وجود الحياة والكائنات الحية في الكواكب السماوية حتى يدّعي هذا المفسر المحترم بأن هذه الآية تعتبر كشفاً علمياً إعجازياً للقرآن الكريم؟[1].

أقول:

إن وجود الحياة على الكواكب السماوية ليس أمراً قطعياً ومازالت القضية في طور ارهاصات الكشف بعد أن نعرف أن أغلب الدراسات المختصة في هذا الشأن تميل إلى افتراض وجودها عبر مجموعة من

---

(١) سر الإعجاز القرآني: ص١١٨.

الشواهد والمعطيات يتعلق بعضها بوجود ظروف بيئية تساعد على حفظ الآثار الدالة على وجود الحياة في بعض هذه الكواكب ومنها المريخ، ومعلوم أن هناك دراسات مكثفة تتمحور حول تحاليل التربة والصخور والغازات ومعلومات عن البيئة التي قد تكون وفرت الحياة على هذا الكوكب.

وفي نفس الاتجاه تؤكد بعض الأبحاث على أن الصخور الموجودة على الأرض والتي تحتوي على دلالات للحياة تشبه تلك الموجودة على المريخ، وأن ظاهرة الورنيش الصخري المعروفة في علم الجيولوجيا والتي تدل على وجود الحياة يوجد ما يشبهها على صخور المريخ.

إن نفس هذا الميل العلمي تجاه وجود الحياة في كواكب أخرى غير الأرض وتوافق القرآن الكريم مع آخر المعطيات العلمية في هذا الصدد يكشف بما لا يدع مجالاً للشك عظمة هذا الكتاب المقدس إلى الحد الذي يمكن معه عد ذلك التوافق إعجازاً بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى.

وفي صدد الآية الأخيرة يقول:

«الآية الحادية عشر» ادعي أنّها تشير إلى بصمات الأصابع حيث ثبت أن لكل فرد من أفراد البشر بصمات خاصة لا يشاركه فيها أحد، وهذا الكشف العلمي لم يكن في سالف الزمان وقديم الأيام، بل هو من

إنجازات التطور العلمي الحديث وخاصة العلم الجنائي، والقرآن سبق العلم الحديث بعدّة قرون في هذا الكشف.

ولا أعلم ما إذا كان هؤلاء المدّعون جادين في دعواهم هذه، أم يخاطبون أنفسهم والآخرين بلغة الأحاسيس المذهبية؟ فلو خلينا مع الآية ومن دون تصور لهذا الكشف الحديث فإن المعنى سيكون بقرينة السياق للآية أن الله تعالى سوف يجمع عظام الإنسان يوم القيامة ولا يترك منها شيئاً حتى عظام الأنامل التي هي أصغر العظام في بدن الإنسان، فهي تؤكد للمنكرين والنافين للبعث بأن الله سيعيد الإنسان بكامل أجزاء بدنه، صغيرها وكبيرها:

(أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَلَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ·بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَه).

وأين هذا من الكشف المذكور في أن بصمات كل فرد تختلف عن الأفراد الآخرين؟! أي أن هذا المعنى المذكور آنفاً يجتمع مع تشابه البصمات لأفراد البشر كما يجتمع مع اختلافها، لأنه أساساً غير ناظر إلى اختلاف البصمات وتماثلها كما هو واضح، ولا نطيل أكثر في ردّ هذه المزاعم والتصورات الموهومة التي لا يتحرك أصحابها من موقع الأمانة العلمية والحياد العقلي لدراسة القضايا الدينية، بل ينطلقون من موقع الحساسية المذهبية والعقل الديني لإثبات ودعم ما آمنوا به سابقاً،

فتكـون النتيجـة تشـويه حقـائق الـدين وإدخـال مـا لـيس في الـدين في الدين[١].

أقول:

إن الواضـح مـن الآيـة الكريمـة: أَيَحْسَـبُ الإِنسَـانُ أَلَّـن نَجْمَـعَ عِظَامَـهُ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسوِّيَ بَنَانَهُ).

كونها في مقام التحدّي واثبات قدرة الله تعالى، فضلاً عن الإشارة إلى إلى إن البنـان وبعثـه علـى صـورته الأولى يكـون أكـبر وأعظـم مـن إحيـاء العظام الكبيرة التي تتقوم بها البنية الأصلية من الجسد فكأن معنى الآية الكريمـة (لا تسـتغرب مـن إرجـاع العظـام إلى مـا كانـت عليـه في الخلـق الأول فهنـا مـا يكـون أعظـم وأغـرب في التسـوية والترتيـب، والله تعـالى يرجعها ويرجع العظام وباقي الأعضاء كما كانت ألا وهي البنان)[٢].

هـذا هـو السـر الـذي لا نعـرف غـيره (إلى الآن علـى أقـل التقـادير) وراء التركيـز علـى إعـادة البنـان دون غـيره مـن مكونـات الإنسـان مـع إن البنـان لـيس أصـغر جزء مرئي في جسـم الإنسـان بـل يوجـد مـا هـو أصـغر

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) أصول الدين: ص٢٠٥.

منه وأدق بحسب الظاهر كان من المناسب ذكره لو كانت الآية في صدد الحديث عن إعادة كامل أجزاء البدن صغيرها وكبيرها فضلاً عن إن النظرة الساذجة تقتضي أن تكون العظام الكبيرة أدق وأعقد في إرجاعها إلى حالها الأول من غيرها.

ولكن لماذا خصص الله البنان دون سائر أجزاء البدن؟ وهل البنان أشدّ تعقيداً من العظام؟

لقد توصل العلم إلى سر البصمة في القرن التاسع عشر، وبين أنّ البصمة تتكون من خطوط بارزة في بشرة الجلد تجاورها منخفضات وتعلو الخطوط البارزة فتحات المسام العرقية، تتمادى هذه الخطوط وتتلوى، وتتفرع عنها تغصنات وفروع، لتأخذ في النهاية وفي كل شخص شكلاً مميزاً، وقد ثبت أنّه لا يمكن للبصمة أن تتطابق وتتماثل في شخصين في العالم، حتى في التوائم المتماثلة التي أصلها من بويضة واحدة.

يتم تكون البنان في الجنين في الشهر الرابع، وتظل ثابتة ومميزة له طول حياته، ويمكن أن تتقارب بصمتان في الشكل تقارباً، ولكنّهما لا تتطابقان البتة؛ ولذلك فإنّ البصمة تعدّ قاطعاً ومميزاً لشخصية الإنسان،

معمولاً به في كل بلاد العالم، ويعتمد عليه القائمون على تحقيق القضايا الجنائية لكشف المجرمين واللصوص[١].

أما كلام القبانجي الأخير عن الحساسية المذهبية والعقل الديني وغيره فنضرب عن نقده صفحاً بعد كونه كلاماً خطابياً لا ينبغي أن نطيل الوقوف عنده.

قال القبانجي:

أساساً لا يعقل أن يتحدى القرآن العرب في صدر الإسلام بأن يأتوا بمثله من حيث الإعجاز العلمي الذي سوف يثبت صحته بعد أكثر من ألف سنة، فمثل هذه الدعاوي لو فرض صحتها لم تكن مورد نظر القرآن الكريم في دائرة التحدي قطعاً[٢].

أقول:

إن هذا الكلام إنما ينسجم مع افتراض محدودية التحدي القرآني على مستوى مادة التحدي وعلى أساس المخاطب بالتحدي فإذا بنينا على أن التحدي إنما يتمحور حول العرب الأوائل المعاصرين لنزول

---

(١) التمهيد: ج٦، ص١٧١.

(٢) سر الإعجاز القرآني: ص١١٩-١٢٠.

القرآن الكريم وفقا لما كانوا يحسنونه ويتقنونه دون الخارج عن محل اهتمامهم، فإن التحدي ولا ريب سيكون مقصوراً عليهم.

غير أنّ تحدّي القرآن لم يقتصر على فترة من الزمان ولا على أُمة من الناس دون من سواهم، فنراه وجه نداءه الصارخ إلى البشرية جمعاء في طول الزمان وعرضه، ولكل الأجيال ومختلف الأقوام، وما شأنه ذلك لا يعقل اقتصاره على جانب الفصاحة والبيان؛ إذ ليس كل الناس عرباً ولا كل العرب فصحاء... فلابدّ أنّ في القرآن شيئاً هو الذي تُحُدّيَ به تحدّياً على وجه العموم، ومن ثَمَ كان بمجموع الكتاب، لا بَسورة واحدة أو آية أو آيات بالذات.

قال تعالى: (قُل لّئنِ اجْتَمَعَت الإنس وَالْجِنّ علَى أَن يأْتُوا بمثْلِ هذَا الْقرآن لاَ يأْتُونَ بمثْله ولَو كَانَ بعَضهم لبعضٍ ظَهيراً)[1].

فهذا تحدّ عام وقع موجهاً إلى كافّة الأنام، سواء من عاصر نزول القرآن أو سائر الأيام [2].

---

(١) سورة الإسراء: الآية ١٧.

(٢) التمهيد في علوم القران: ج٦، ص٣٤.

الفصل السادس

الإعجاز الوجداني

يقول أحمد القبانجي في سر الإعجاز القرآني[١]:

المعجزة الوجدانية ونظرية الانتساب

بعد أن رأينا أنّ الادعاءات المبتنية على الإعجاز البلاغي والعلمي والغيبي وغير ذلك للقرآن الكريم لا تقوم على قراءة علمية دقيقة لظاهرة الإعجاز القرآني، نتطرق إلى استعراض ما نراه معجزة القرآن الحقيقية والتي تحدى بها الله تعالى الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، وهذا يعني أن البشر على اختلاف لغاتهم لا يستطيعون الإتيان بمثل هذا القرآن ولا سورة من مثله حتى لو ترجم إلى لغات أخرى.

النظرية باختصار

وتقرير هذه النظرية أن المعجزة: إما أن تكون «منصوبة» من الله تعالى، أو «منسوبة» إليه، فما كانت «منصوبة» من الله تعالى فهي الخارقة الخارقة لناموس الطبيعة، وجميع افراد البشر لا يستطيعون الإتيان بمثلها

---

(١) سر الإعجاز القرآني: ص١٩٥ إلى آخر الكتاب.

من هذه الجهة، أي جهة كونها لا تتوافق مع القوانين الطبيعية، ولكن «المنسوبة» إلى الله تعالى لا يفترض كونها خارقة لقانون طبيعي، وعجز البشر عن الإتيان بمثلها إنما هو لكونها منسوبة إلى الله تعالى. وللاختصار وللاختصار نطلق على النوع الأول «المعجزة من» أي المنصوبة من الله، الله، وعلى الثاني «المعجزة إلى» أي المنسوبة إلى الله، ومعجزات سائر الأنبياء من قبيل النوع الأول، فلا شك أن «ناقة صالح» معجزة قد نصبهالله تعالى دليلاً على نبوة صالح (عليه السلام)، بمعنى أنالله قد خلق خلق هذه المعجزة وجعلها بنفسها معجزة، وهكذا «عصى موسى» بنفسها معجزة، أما القرآن الكريم فهو معجزة من النوع الثاني، أي أنّه في حدّ ذاته وبقطع النظر عن انتساب هذا الكلام لله تعالى ليس بمعجزة. ولكنه من حيث نسبته إلى الله تعالى فهو معجزة، أي أنّه لا أحد أحد من البشر بإمكانه أن يأتي بكتاب مثله ويدّعي نسبته إلى الله تعالى وأنّه كلام الله وتكون هذه النسبة صحيحة ومقبولة، فما من أحد يقرأ صفحة أو صفحتين منه إلاّ ويعلم قطعاً بأن هذا الكلام كلام البشر وليس كلام الله، ولكن كل شخص يقرأ القرآن حتى القرآن المترجم إلى إلى لغة أخرى يدرك جيداً أن الله هو الذي يتحدث معه بـ «نغمة الالوهية»، وأن البشر لا يمكنه الإتيان بمثله من هذه الجهة، أي من جهة النسبة إلى الله تعالى.

نأتي إلى ما نحن فيه، فبعد أن قلنا بإمكان الإتيان بكتاب يضاهي القرآن في البلاغة والفصاحة، بل ندعي وقوع ذلك كما تقدم في بعض خطب أمير المؤمنين، أو بعض أدعية المعصومين (عليهم السلام)، وبعد أن رأينا عقم دعوى الإعجاز العلمي أو الإخبار بالمغيبات، فما علينا إلاّ قراءة صفحة أو صفحات من الكتاب الكريم. والتطلع نحو المتكلم من خلال سياق الخطاب القرآني للناس لنعثر بكل سهولة ويسر وبدون أية تعقيدات بلاغية أو تأويلات باطنية على شخصية المتكلم الحقيقية، وذلك من خلال «نغمة الالوهية» التي تتجلى بصماتها على كل فقرة من فقرات هذا الكتاب وكل آية من آياته، فهذا النموذج من الخطاب الذي ينفرد به القرآن الكريم هو الذي يتولى إزاحة الأوهام والوساوس عن شخصية المتكلم ويعرض على الإنسان الإذعان والانبهار لواقع القداسة المطلقة في مواجهة الذات المقدسة حيث يخاطبه بالطريقة التي تثير في أعماقه حالة معنوية عالية ظنها القوم أنّها ناتجة عن بلاغة القرآن وفصاحته الإعجازية، بينما هي نتيجة سقوط «الأنا» والعناوين الزائفة أمام الحقيقة الشاخصة، واهتزاز صحراء القلب للغيث المعنوي المتولّد من مواجهة العدم المطلق للوجود المطلق.

عندما يفتح الإنسان القرآن الكريم «حتى المترجم إلى لغات أخرى» ويقرأ صفحة واحدة لا على التعيين فسوف يشعر في أعماق وجدانه بأن المتكلم معه في هذا الكتاب هو خالقه وبارئه لا غير، فلا يحس بأدنى

شائبة بشرية في أخاديد الخطاب القرآني، وكأن دور النبي الكريم الذي جاءه بهذا الكتاب دور المرآة الصافية التي تعكس للناظر كل ما يقف أمامها بدون تصرف، وهذا هو مرادنا من كلمة «نغمة الألوهية».

إلى هنا لا زلنا في موقع الادعاء وبيان أصل النظرية، أما الإثباتات العلمية والتطبيقية لهذا الادعاء، وأن الإعجاز القرآني هو من نوع «المعجزة المنسوبة» لا المنصوبة، فيتبين من خلال استعراض بعض الآيات الكريمة التي تقرر في بنية الخطاب القرآني أن المتكلم هوالله تعالى:

الطائفة الأولى: . المتكلم والفوقية الاستعلائية مع حامل الرسالة:

لاحظ هذه الآيات:

١ - (يا أيُّها الرسولُ بلِّغْ ما أُنزلَ اليكَ من ربِّكَ وإنْ لَم تَفعل فما بلَّغتَ رِسالَته والله يَعصِمكَ من النَّاسِ إنّ الله لا يهدي القَوم الكافرين).

٢ - (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا).

٣ - (ولَو تَقَوَّلَ عَلَينَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ).

وهكذا تتوالى الآيات الكريمة مفعمة بهذا اللون من الخطاب الإلهي، بحيث يدرك الإنسان بوجدانه أن هذا الكلام يستحيل أن يكون من محمد (صلى الله عليه وآله)، فهناك متكلّم يخاطب محمداً (صلى الله عليه وآله) ويأمره وينهاه وقد يلومه، فمن هذا المتكلم الذي يتكلّم مع محمد (صلى الله عليه وآله) بهذه الصورة الاستعلائية؟

وإذا كان هذا القرآن من محمد (صلى الله عليه وآله)، فهل يحسن به أن يجعل نفسه في موضع التهديد كما في الآية الأولى، حيث نجد خطاباً عجيباً للنبي فيه تهديد ضمني بأنه لو لم يؤدّ الرسالة الخاصة فسيحبط عمله وكأنّه لم يصنع شيئاً خلال السنين المتَمادية من النبوة سواء في مكة أو المدينة، وفيها وعد كذلك بالحفظ من المكائد التي يمكن أن يقوم بها بعض المنافقين تجاه النبي ودعوته، فيا ترى لو كان هذا الكلام من النبي، فهل يعقل أن يتحدث الرسول مع نفسه بمثل هذا، ويهدّد نفسه تارة ويعدها بالحفظ أخرى، ويقول لنفسه بأنه بقي شيء من الرسالة لم تبلّغه، ويصرح بهذا المعنى للناس، وكان بإمكانه أن يؤدّ الرسالة الخاصة من دون كل هذا اللّف والدوران والتهديد والوعيد؟!

في «الآيـة الثانيـة» نجـد أمـراً ونهيـاً شـديداً للنـبي، حيـث يـأمره أولاً بتقـوى الله، وينهـاه ثانيـاً عـن إطاعـة الكـافرين والمنـافقين، ويـأمره مـرة ثالثـة بـأن يتبـع مـا يـوحى إليـه مـن ربـه، وفي كـل الحـالات نجـد آمـراً يتحـدث بلغـة الحـاكم والمـولى مـع أحـد رعايـاه وعبيـده، والطريـف أنّـه مـع ذلـك يخاطبـه بصفـة «النبي» الـذي هـو أسمى مقـام دنيـوي يناله الإنسـان في الحيـاة، فمـع وجـود هـذا العنـوان والصـفة لصـاحب هـذا الكتـاب السـماوي نجـد أن المتكلم في هـذا الكتـاب يخاطبـه بلغـة الآمـر والمـولى لعبـده!! فهـل سـبق أو لحـق مـن الفلاسـفة أو الشـعراء أو المـؤلفين أن يكتبـوا كتابـاً أو ينشـدوا قصـيدة تحمـل في طياتهـا مثـل هـذا الخطـاب لصـاحب الكتـاب ومؤلفـة أو لمنشد القصيدة وقائلها؟!

الآيـة الثالثـة: تتجلـى فيهـا الفوقيـة الاسـتعلائية للمـتكلم بوضـوح صـارخ مـن خـلال تهديـد مخيـف لحامـل الرسـالة وأن عليـه أداء الرسـالة إلى النـاس بـدون زيـادة أو نقصـان، وإلاّ فـان المرسـل سـينزل في حقّـه أشـد أنـواع العقـاب وسـوف لـن يجـد لـه ناصـراً ومعينـاً (فَمَـا منكُم مّنْ أَحَد عَنْهُ حَـاجزِينَ)، فسـياق هـذه الآيـة يشـهد بجـلاء أن للمتكلَم سلطَة عليـاً على الرسَـول، وأن هـذا الرسـول لا يتجـرأ أن يضـيف شـيئاً مـن عنـده علـى الرسالة الموحاة له.

الطائفة الثانية: المتكلم والفوقية الرحمانية مع الإنسان:

أما الخطاب القرآني للإنسان بعامة فأقرأ معي هذه النصوص البديعة:

١ - (نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَه أَم نَحْن الْخَالقُونَ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ) (أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذي تَشْرَبُونَ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوه مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ).

٢ - (وَمِنْ آيَاتِه أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَاب ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ وَمِنْ آيَاتِه أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَات لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَمِنْ آيَاتِه خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَات لِّلْعَالِمِينَ وَمِنْ آيَاتِه مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِه إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَات لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ).

فالمتكلّم في الآيات الأولى يفترض نفسه أنّه خالق الإنسان، ثم يقول له مستدلاً: إنك لو لم تصدّقني فانظر إلى أصلك وهو المني، فهل أنت الذي خلقته أم أنا؟ ومع الدقة في هذا التعبير يتجلى لنا أروع استدلال وجداني (لا عقلي) يثير وجدان الإنسان ويحرك فطرته نحو خالقه حيث يحصر الخالق في اثنين: الإنسان أو الله، ومع وضوح بطلان الأول لابدّ أن أن يكون الثاني صحيحاً، ولكن الخطاب لا يقول للإنسان: «أنت

الخالق أم الله بل يقول: ءأنت الخالق أم أنا، فلا يسع الإنسان إلاّ أن يجيب: بل أنت يا إلهي.

هذه هي «نغمة الألوهية»، وهذا هو مقصودنا من أن الإنسان يشهد بوجدانه بأن الله هو صاحب هذا الكلام العجيب لا النبي.

وهكذا تتوالى الأسئلة الوجدانية في هذه السورة وتتوالى الأجوبة من الإنسان بالاعتراف بالفضل لهذا المتكلّم معه والإقرار بالعجز والعدمية أمام القدرة الإلهية المطلقة، فمرة يثيره بحادثة الموت الذي ينتظر كل إنسان ويصرح له بأن موته وحياته بيده (نَحْن قَدَّرنَا بيْنَكُم الْموت وَمَا نَحْنُ بمسبوقين)·

وأخرى يوجه نظره إلى الماء العذب الذي ينزل من السماء ليشربه هذا الإنسان ويبعث على الحياة ويتساءل عن المنزل له من طبقات الجو والسحاب، هل أنت أيها الإنسان أم أنا: (أَفَرَأَيْتُم الْمَاء الَّذي تَشْرَبُونَ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ منَ الْمُزْن أَمْ نَحْنُ الْمنزلُونَ). وثالثة إلى النَار التي يوقدها الإنسان ويستفيد منهاَ فوائد جمة، فهل أنّه هو الذي خلق الوقود والخشب، أم الله تعالى؟ (أَفَرَأَيْتُم النَّار الَّتي تُورونَ أَنتُم أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمنشؤُونَ) ورابعة إلى الزرع والنبات و... الخ.

أما آيات «الطائفة الثانية» فالمتحدث ينطلق في حديثه مع الناس من موقع المنعم وصاحب الفضل والمنّة، وبعد أن يذكر مفردات مهمة من

نعمه ومواهبه على أفراد البشر، يطالبهم في نهاية كل آية بالتفكر والتدبر في هذه المواهب ومصدرها وغاياتها، ففي الآية الأولى يدعي أنّه خلق الناس جميعاً من تراب، ولم يكتف بنعمة الخلق فحسب، بل ثنّاها بنعمة الزوجية وما يترتب على الزواج من تفعيل عناصر المودة والرحمة في دائرة العواطف الإنسانية، ثم ذكر أنّه خلق السموات والأرض وما ينتج من ذلك من مواهب عظيمة للإنسان في حركة الحياة من ليل ونهار، ونوم ويقظه وسعي وحركة لنيل الفضل وتحصيل الرزق وما إلى ذلك...

فهل يا ترى أن إنساناً مثل «محمد» (صلى الله عليه وآله) أو غير محمد (صلى الله عليه وآله) قد كتب في السابق، أو يخطر على ذهنه أن يكتب في اللاحق مثل هذه الادعاءات العظيمة وبهذا الأسلوب الرقيق الخالي من التكلف والتمحل ومن دون أي شائبة من اللف والدوران والقفز فوق العبارات من موقع المكابرة والادعاء؟

ولقائل أن يقول: إن العقل لا يمانع في أن يفترض الشخص نفسه إلهاً ويتحدث مع الآخرين من موقع الألوهية كما يجري مثله في المسرحيات والأفلام السينمائية.

ولكن هذا قياس مع الفارق، فهل وجد إنسان على وجه الأرض أو سيوجد في المستقبل يستطيع أن يتلبس بهذا الدور لمدة ٢٣ سنة من

دون أن يظهر للناس ولأقرب المقربين اليه أن هذا المدّعي انما يصطنع الكلمات في دائرة التمثيل والتخيل؟

عندما نقرأ القرآن من أوله إلى آخره نجد هذه «النغمة الإلهية» واضحة وجلية في سياق كل آية من آياته وعلى وتيرة واحدة، ولو كان من صياغة إنسان لتعثر السياق في ضوء متطلبات النفس وتحديات الواقع الممتد لفترة زمنية طويلة، ولنسي هذا الإنسان أنّه يلعب دوراً تمثيلياً ويتعامل مع الناس من موقع المخادعة والمراوغة وخاصة بعد أن تستتب له الأمور ويملك سدّة الحكم...

الطائفة الثالثة: المتكلم والفوقية القاهرة:

لنقرأ هذه الآيات من سورة القمر:

١ ـ «كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنقَعِرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ».

«كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ».

«وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ».

وهنا تلاحظ أن «نغمة الالوهية» ساطعة من سياق هذه الآيات الكريمة ولكنها هذه المرة بشكل آخر، وهو أن لحن الكلام يتخذ طابع الانتقام والبطش، والمتكلم هنا يظهر بمظهر القاهر المطلق الذي تتصاغر أمام قدرته قدرات البشر الموهومة، فإذا بعاد وفرعون والأقوام السالفة مع كل مدعياتهم وجبروتهم يصبحون كقشة في مهب الريح، وتضحى قدراتهم المزعومة وهماً متراكماً أمام القدرة الإلهية القهارة.

ولا نطيل، فالقرآن الكريم مليء بمثل هذه الخطابات العجيبة للنبي تارة، وللإنسان أُخرى، وللمؤمنين بالخصوص ثالثة، وللكفار والمعاندين رابعة، وفي كل هذه الخطابات نجد أن المتكلم لا يمكن أن يكون النبي نفسه، لأن مثل هذا الكلام كأنه صادر من قلب الإنسان ووجدانه، وليس المتكلم شيئاً آخر غريب عن الإنسان وخارج ذاته، والحال أن أي متكلم من البشر لا يمكن أن يخاطب الآخرين إلاّ من خارج ذواتهم، وهذا هو السر في ما يقال من حلاوة القرآن وتأثيره العجيب في النفوس، لأن المتكلم البشري مهما كان كلامه بليغاً ومؤثراً، فإن المخاطبين له محجوبون بحجاب الأنا والذات، ولا يمكن لذلك الخطاب أن يمر إلاّ من قناة الأنا للمستمع، وحينئذ يفقد حلاوته وخاصة إذا كان مشحوناً بالأمر والنهي وإصدار التعليمات بلغة السلطنة والعلو،

ولكن إذا كان صادراً من اعماق ذات الإنسان ولم يشعر الإنسان معه بأن صاحب هذا الكلام غريب عليه وأجنبي عنه بل هو وجدانه وروحه وذاته الحقيقية التي لا تريد له إلاّ الخير والصلاح، فحينئذ يقبل عليه بقلبه وبكل وجوده ومشاعره، فتكون لهذا الكلام حلاوة خاصة لا يمكن أن يوجد لها مثيل في الكتب والخطابات الأخرى.

هذا ما أردنا بيانه من هذا الوجه للمعجزة القرآنية، أي المعجزة المنسوبة إلى الله تعالى «المعجزة - إلى» لا إنه معجزة منصوبة من الله «المعجزة - من».

أما مدرك النظرية فبالإمكان الاستشهاد بالآيات والروايات لهذا الوجه الوجداني لمعجزة القرآن، فمن الآيات قوله تعالى:

(أَم يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ).

ومحل الشاهد في قوله تعالى «مفتريات» أي فأتوا بعشر سور مثله وانسبوها إلى الله تعالى حيث تدّعون أنّه جاء بهذا الكتاب وافتراه على الله الله تعالى، فعليكم أن تأتوا بمثله وتفتروه على الله حتى يتبين كتابكم المفترى المفترى هل يمكن أن يكون كهذا الكتاب؟ ولولا هذا المعنى المستفاد من من الآية لكانت هذه الكلمة زائدة تماماً حيث يكفي أن يقول: «فاتوا بعشر سور مثله» في مقام التحدّي والتعجيز، ولكنه أضاف إليها

«مفتريات»، وهذا يعني أنّه قد يكون بإمكانهم الإتيان بمثله أو أحسن منه من حيث البلاغة والفصاحة والقضايا العلمية وأخبار الماضين وما إلى ذلك، ولكن من المحال أن يأتوا بمثله وينسبونه أو يفترونه على الله وتكون هذه النسبة صحيحة ومقبولة لدى كل إنسان عاقل منصف.

وملاحظة اخيرة، أن هذا الوجه الجديد في الإعجاز القرآني يختلف عن سائر الوجوه المذكورة بأنه يرد القضية من رأسها لا من ذَنَبها، أي أننا بعد أن آمنا بأن هذا الكلام هو كلام الله تعالى آمنا بأنه معجزة، لأن لأن كل مخلوقات الله معجزة بحد ذاته فكيف بكلامه؟! والحال أن تلك الوجوه المذكورة للمعجزة القرآنية تثبت أولاً أن هذا الكلام معجزة بحد ذاته ولا يستطيع أي إنسان أن يأتي بمثله، وحينئذ يثبت أنّه من الله تعالى لا من محمد (صلى الله عليه وآله)، وبالاصطلاح الفلسفي: من طريق «الإن» أما على الوجه المختار فهو من طريق «اللّم». وتتمثل الفائدة في هذا الفرق أن طريق الإن لا يمكنه اثبات أن هذا الكلام من الله حتماً، فغاية ما يثبته على فرض صحة الوجوه الإعجازية المذكورة أنّه أنّه ليس كلام بشر وإنه ليس من محمد (صلى الله عليه وآله)، بل هو من من قوة غيبية فوق مستوى البشر، أما هل هذه القوة الغيبية هي الملائكة أو الجن أو الله تعالى أو غير ذلك؟ فهذه الوجوه عاجزة عن تحديد المتكلم بالله تعالى، أما على الوجه المختار فنحن لا نواجه مشكلة

من هذا القبيل، فبعد أن ثبت بالوجدان أنّه كلام الله من خلال «نغمة الالوهية» نقول بأنه معجزة لا العكس.

انتهى كلامه بطوله وعليه جملة ملاحظات:

الملاحظة الأولى: إن معنى الوجدان الذي يروج له أحمد القبانجي ويستند إليه في إثبات الإعجاز القرآني أمر يكتنفه الغموض كثيراً، إذ ما المقصود منه تحديداً؟

الذي نعرفه (وبحسب الأبحاث الفلسفية والأخلاقية) أن الوجدان هو (القوة المدركة الباطنية التي تميز الخير من الشر)[١].

عن طريق هذه القوة الباطنية يستطيع الإنسان تشخيص الأمور الحسنة من الأمور القبيحة، وتسمى تلك المدركات بـ: (الوجدانيات) وقد اعتبرها الفلاسفة المسلمون قسما من العقل العملي.

ويوجد نوع آخر من (الوجدانيات) وهي تلك القضايا المتيقنة بواسطة الحس الباطن كالعلم بأن لنا فكرة وخوفا وألما ولذة وجوعاً وعطشاً... ونحو ذلك[٢].

---

(١) الطفل بين الوراثة والتربية – الشيخ محمد تقي فلسفي: ق١، ص٢٧٨.

(٢) المنطق – الشيخ محمد رضا المظفر: ص٣٣٠.

وليس للوجدان إطلاق واحد بل له أكثر من إطلاق فتارة يطلق ويراد به الوجدان الفطري، ومن خصائصه وميزاته أنه لا يمكن أن يكون وليد التعليم والتربية الاجتماعية أو الملابسات الاقتصادية وغيرها من العوامل والمؤثرات.

وهذا القسم هو الذي قصده جملة من الفلاسفة عندما قالوا بأصالة الوجدان لا العقل، وسموا تبعا لذلك بـ: (الوجدانيين)، وبمؤيدي: (الحسن والقبح العقلي)، وقصدهم من ذلك العقل العملي لا النّظري، فالأخلاق عندهم عبارةٌ عن سلسلة من الأُمور الوجدانية غير البرهانية، أي أنّها تَدرك بدون حاجة إلى منطق واستدلال، فمثلاً الإنسان يدرك أنّ العدل حسن، والظّلم قبيح، ويشخص أنّ الإيثار والشّجاعة أمران جيدان، الأنانية والظّلم والبخل أُمور قبيحةٌ، ولا يحتاج في إدراك هذا المعنى، إلى استدلال عقلي من خلال دراسة تأثير هذه الأفعال والسلوكيات في واقع الفرد والمجتمع [1].

وتارة أخرى يطلق الوجدان ويقصد به (الوجدان الأخلاقي) وهو يخالف الوجدان الفطري المتقدم في أن قبح العمل لا ينبع من حالة فطرية في داخل الإنسان بل يرجع سببه إلى العوامل والمؤثرات التربوية

---

(١) الأخلاق في القران – الشيخ مكارم الشيرازي: ج١، ص٥٠.

والاجتماعية وغيرها بحيث لولا هذه العوامل لما اعتبرت كثير من الأمور التي نتحسس منها قبيحة.

وهناك نقطة جديرة بالتذكير وهي أن الوجدان قد يطلق ويراد منه نفس ما يراد من الفطرة، أما ماهي الفطرة وبماذا تمتاز عن الوجدان؟ فنقول اختصاراً:

تطلق الفطرة ويراد منها (نوعية الخلقة) والأمور التي يمكن أن تسمى فطرية (أي منسوبة للفطرة) هي الأمور التي تقتضيها خلقة الموجود بحيث إن خلقة الموجود وطبيعة خلقه فحسب هي السبب في وجودها. ومن هنا يمكن أن نلاحظ ثلاث مميزات للأمور الفطرية:

١) إن الأمور الفطرية لكل نوع من الموجودات مشتركة في أفراد ذلك النوع كلها وإن اختلفت كيفية وجودها في الأفراد: ضعفاً وشدةً.
٢) الأمور الفطرية ثابتة دائماً على امتداد التاريخ ولا يمكن لفطرة موجود أن يكون لها اقتضاء معين في مرحلة زمنية بينما لها اقتضاء آخر في مرحلة زمنية أخرى.
٣) الأمور الفطرية بما انها فطرية وتقتضيها خلقة الموجود، لذلك لا تحتاج في أصل وجودها إلى التعليم والتعلم وإن احتاجت إلى التربية والتعليم في تقويتها وتنميتها أو في توجيهها وهدايتها.

ويمكن تقسيم الأمور الفطرية في الإنسان إلى مجموعتين:

أ) المدركات الفطرية التي يمتلكها كل إنسان من دون حاجة إلى تعلم.

ب) الميول والرغبات الفطرية التي تقتضيها خلقة كل فرد[1].

الملاحظة التي لا ينبغي إغفالها هي أن الفطرة بحسب ما مر اعم من الوجدان فإنها تشمل البعد النظري والعملي للإنسان بخلاف الوجدان فإنه وبمعنييه المتقدمين يقتصر على خصوص البعد العملي، لذا قلنا إن قسماً من الفلاسفة قالوا بأصالة الوجدان وسموا بـ: (الوجدانيين)، وبمؤيدي: (الحسن والقبح العقلي)، وقصدهم من ذلك العقل العملي لا النّظري.

ومن هنا يظهر الغموض في ما يسميه أحمد القبانجي بالوجدان، فإن الوجدان بكلا معنييه إنما يتعامل مع القضايا العملية التي تكون من مفردات العقل العملي، كما إن الوجدانيات المدركة من قبل الحس الباطن لا يمكن أن تكون مقصودة من وجدان القبانجي لوضوح أن إدراكنا لربانية القرآن الكريم لا يمكن أن يكون من سنخ ادراكنا أن

---

(١) المنهج الجديد في تعليم الفلسفة: ج٢ ص؟؟.

لنا فكرة وخوفاً وألماً ولذة وجوعاً وعطشاً، لأن هذه القضايا وامثالها يكون واقع المحسوس فيها أمراً وجدانياً.... والإدراك في هذا النوع يتصل بالمدرك بصورة مباشرة حيث يكون المُدرك بنفسه ثابتاً في النّفس لا أنه أمر موضوعي خارجي له انعكاس على النّفس ليراد الكشف عن مدى مطابقة ذلك الانعكاس مع واقعه[1].

وهذ كله غير موجود في القضية الوجدانية التي ادعاها القبانجي.

وبكلمة أخرى:

إن القضايا الوجدانية التي هي من مدركات الحس الباطن تنتمي إلى فضاء العلم الحضوري بينما قضية ربانية القرآن الكريم وإعجازه تنتمي إلى فضاء العلم الحصولي وأحدهما غير الآخر.

نعم أحد معنيي الفطرة هو تلك المدركات الفطرية التي يمتلكها كل إنسان من دون حاجة إلى تعلم وتسمى تلك المدركات بالفطريات، أما ما هي الفطريات؟

فهي القضايا التي قياساتها معها، أي: أن العقل لا يصدق بها بمجرد تصور طرفيها... بل لابد لها من وسط، إلا أن هذا الوسط ليس مما

---

(١) بحوث في علم الأصول – السيد محمود الهاشمي: ج٤، ص١٣١.

يذهب عن الذهن حتى يحتاج إلى طلب وفكر، فكلما أحضر المطلوب في الذهن حضر التصديق به لحضور الوسط معه.مثل حكمنا بأن الاثنين خمس العشرة، فإن هذا حكم بديهي، إلا أنه معلوم بوسط، لأن: الاثنين عدد قد انقسمت العشرة إليه وإلى أربعة أقسام أخرى كل منها يساويه.

وكل ما ينقسم عدد إليه وإلى أربعة أقسام أخرى كل منها يساويه فهو خمس ذلك العدد. فالاثنان خمس العشرة[1].

وليس من المحتمل أن يكون الوجدان المأخوذ في الإعجاز القرآني من سنخ الفطريات التي عرفنا أنها قضايا يمكن التصديق بها بمجرد تصور طرفيها بمعية وسطها الذي لا يذهب عن الذهن، إذ من الواضح أن هذا المعنى غير منطبق على الإعجاز القرآني بحيث يكون تصديقنا بنسبة القرآن الكريم إلى الحق تبارك وتعالى على وزان تصديقنا بأن (الاثنان خمس العشرة)!.

الملاحظة الثانية: إن التحدي القرآني قد وقع بعشر سور بل بسورة واحدة ومن المعلوم أن السورة الواحدة قد تخلو من خصائص الخطاب الثلاث التي ذكرها القبانجي فلا فوقية استعلائية ولا رحمانية ولا فوقية

---

(١) المنطق: ص٢٣٧.

قاهرة، لأن هذه السورة قد تكون في التشريع أو التأريخ أو الغيب أو أي موضوع آخر لا يلازم وبالضرورة وجود تلك الخصائص فيه، ومعلوم أن إعجاز القبانجي الوجداني يدور مدار هذه الخصائص وجوداً وعدماً.

الملاحظة الثالثة: أثار القبانجي إشكالاً حول الإعجاز الوجداني فحواه: (أن العقل لا يمانع في أن يفترض الشخص نفسه إلها ويتحدث مع الآخرين من موقع الألوهية كما يجري مثله في المسرحيات والأفلام السينمائية) ثم حاول الإجابة عنه بالقول:

(ولكن هذا قياس مع الفارق، فهل وجد إنسان على وجه الأرض أو سيوجد في المستقبل يستطيع ان يتلبس بهذا الدور لمدة ٢٣ سنة من دون أن يظهر للناس ولأقرب المقربين إليه ان هذا المدعي إنما يصطنع الكلمات في دائرة التمثيل والتخيل؟)[1].

إلا إن هذا الجواب واضح البطلان، لأنه يأتي بعد اكتمال الشريعة وإتمام الدين إذ هو يفترض مرور فترة زمنية طويلة على صاحب الادعاء حتى يتضح بالأخير أنه لم يكن في مقام التمثيل والتصنع لدور الألوهية مع إن هذا مخالف للسير التاريخي للدعوة الإسلامية وطبائع

---

(١) سر الإعجاز القرآني: ص٢١٧.

الأشياء التي تثبت تقديم المعجز شاهداً على ارتباطه بالسماء في بدايات ادعائه مقام السفارة الإلهية – قد تقدم قول القبانجي بأن أول آيات التحدي قد نزلت في مكة قبل الهجرة بسنة أو سنتين – وبالتالي يبقى احتمال التمثيل قائماً فضلاً عن إن هذا الجواب مبتن على مجرد الاستبعاد وبالتالي لا يلغي احتمال التصنع.

ثم إن هذا الاستبعاد على تقدير تمامه إنما ينفي التصنع والتمثيل عمن هو في الدائرة الإنسانية، لكن كيف يستطيع أحمد القبانجي نفي احتمال تصنع موجود من موجودات العوالم الأخرى الفوقية الاستعلائية أو الرحمانية وهكذا الفوقية القاهرة ونحن لم نعايشه ولم نلامسه؟

يمكن ان نضيف: ان أحمد القبانجي حاول في فصل سابق التشكيك وبما أوتي من قوة في صحة نسبة القرآن الكريم إلى الحق تبارك وتعالى بناء على الوجوه الإعجازية التقليدية حتى إنه قال: (.. لو سلمنا كل ذلك، وقبلنا أن القرآن معجزة شاملة وخالدة وفوق طاقة البشر، إلاّ أنّه يبقى شيء واحد، وهو أنّه كيف يمكن إثبات أن هذه المعجزة وهذا الكلام إنما هو من الله تعالى؟ فالعقل غاية ما يمكن أن يقوله في هذا الصدد الصدد أن هذا الكلام بهذا السبك البلاغي المعجز لا يمكن أن يكون من محمد (صلى الله عليه وآله) ولا أحد من البشر، بل هو صادر حتماً من قوة غيبية فوق طاقة البشر، ولكن هل أن هذه القوة الغيبية هي الله تعالى، أو الملائكة، أو الجن، أو مخلوقات من عالم آخر؟).

ونحن هنا يمكننا ان نحاكمه إلى نفس دعواه هذه ونقول: إنك نفيت احتمال تصنع دور الألوهية عن النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله) باستبعاد حصوله من أي إنسان واستمراره طيلة الفترة التي استغرقها عمر الرسالة، وغاية ما يثبته هذا الاستبعاد أن هذا القرآن بهذه الخصائص التي ذكرها القبانجي لا يمكن أن يكون من محمد (صلى الله عليه وآله) ولا أحد من البشر بل هو صادر حتماً من قوة غيبية فوق طاقة البشر ولكن هل هذه القوة الغيبية هي الله تعالى أو الملائكة أو الجن أو مخلوقات من عالم آخر؟

إن دليل الوجدان لا يعطي جواباً حاسماً في هذا الصدد، لأنه لا يستطيع أن يجزم بنفي تصنع دور الألوهية بخصائص خطابها التي ذكرها القبانجي عن موجود من عالم آخر خارج الدائرة الإنسانية، لأننا غير ملّمين بطبيعة ذلك الموجود ولا قوانين عالمه حتى نحكم باستحالة التصنع والتمثيل، ومن هنا تعرف قيمة كلامه القائل:

(وتتمثل الفائدة في هذا الفرق أن طريق الإن لا يمكنه إثبات أن هذا الكلام من الله حتماً، فغاية ما يثبته على فرض صحة الوجوه الإعجازية المذكورة أنّه ليس كلام بشر وأنه ليس من محمد (صلى الله عليه وآله)، بل هو من قوة غيبية فوق مستوى البشر، أما هل هذه القوة الغيبية هي الملائكة أو الجن أو الله تعالى أو غير ذلك؟ فهذه الوجوه عاجزة عن تحديد المتكلم بالله تعالى، أما على الوجه المختار فنحن لا نواجه مشكلة

من هذا القبيل، فبعد أن ثبت بالوجدان أنّه كلام الله من خلال «نغمة الألوهية» نقول بأنه معجزة لا العكس)[١].

الملاحظة الرابعة: إن القرآن الكريم نفسه يقيم شواهد على ربانيته تخالف الوجدان الذي يراه القبانجي وجهاً فريداً وإعجازاً وحيداً له، فمثلاً قوله تعالى: (أَولَم يكُن لَّهُم آيةً أَن يعلَمه علَماء بنِي إِسرَائيل)[٢] استدلال على صحة انتساب القرآن الكريم إلى الوحي الإلهي بمعرفة هذه النسبة من علماء بني إسرائيل.

الملاحظة الخامسة: لو سلّم أن الإعجاز القرآني قائم على أساس كونه إعجازاً وجدانياً فهو من الدلائل الخفية التي لم يعهد مثلها ولا مر العرب بتجربة مشابهة له وهذا بنفسه يفرض كثرة الأخذ والرد حول حقيقته وكنهه من الموالفين والمخالفين، ولو حدث ذلك فعلاً لانعكس في الآيات والروايات والأقوال ولوصل الينا بعد كثرة دواعي نقله، إلا إن شيئاً من ذلك لم يحدث فتعجب.

الملاحظة السادسة: إن هذا اللون من الإعجاز يمكن إنكاره ومعارضته بسهولة ويسر، لأنه مادام يتعلق بالوجدان فهو يفتقر

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) سورة الشعراء: الآية ١٩٧.

للإثباتات الحسية، لأنه حينئذ لا يعدو أن يكون إحساساً روحياً وشعوراً نفسياً، وبالتالي فمن المكن لأعداء القرآن الكريم أن يعارضوه بسورة أو أكثر منتحلين فيها خصائص الخطاب الإلهي التي ذكرها القبانجي والادعاء أنها توافق الوجدان، خصوصاً وأن الوجدان ليس متحققاً بدرجة واحدة في جميع الناس، بل هو متفاوت من شخص إلى آخر تبعا لنوع المؤثرات التي يعيشها كل شخص. ومن هنا يتضح أن هذا الإعجاز المفترض مما يسهل المكابرة فيه وإنكاره بالكلية كما إنه لا يسد الباب بوجه من يريد التقليد والمحاكاة خصوصاً وأن المطلوب هو سورة واحدة مضاهية للقرآن فيكون من السذاجة بمكان اتخاذه دليلاً وحيداً وأساسياً على ربانية القرآن الكريم.

الملاحظة السابعة: إن هذا النوع من الإعجاز المفترض لا يستطيع إبطال نظرية الوحي النفسي سواء أكان الوحي نتيجة تجلّي الأحوال الروحية أو نتيجة ظهور الشخصية الباطنة للإنسان[1]، لأن غاية ما يدعيه إن خطابا بالخصائص القبانجية السالفة لا يمكن أن يكون من عنديات الإنسان العادي بشخصيته الظاهرة المحسوسة، أما إنه هل يستطيع أن يدفع احتمال كون مرجع الخطاب تجلّي أحواله الروحية أو ظهور شخصيتة الباطنية؟

---

(١) للتفصيل والمناقشة لاحظ: الإلهيات ج٣، ص١٣٥.

فليس له طريق إلى ذلك لافتراض أن الاستبعاد الذي ذكرناه سابقاً عن القبانجي إنما يتمحور حول الشخصية الظاهرية للإنسان ونفي التصنع والتمثيل عنها ظاهراً ولا يطال شخصيته الباطنية أو عقله الباطن الذين قد يقع الإنسان تحت تأثيرهما ويخضع لإيحائتهما من غير قصد ولا تمثيل ولا تصنع منه بل عن قناعة تامة بحقانية تلك الإيحاءات والإملاءات كما هو مؤدى نظرية الوحي النفسي.

الملاحظة الثامنة: يسجل أحمد القبانجي فرقا يحسبه هاماً جداً بين وجهه الإعجازي والوجوه الإعجازية التقليدية بقوله:

(وملاحظة أخيرة، أن هذا الوجه الجديد في الإعجاز القرآني يختلف عن سائر الوجوه المذكورة بأنه يرد القضية من رأسها لا من ذَنَبها، أي أننا بعد أن آمنا بأن هذا الكلام هو كلام الله تعالى آمنا بأنه معجزة، لأن لأن كل مخلوقات الله معجزة بحد ذاته فكيف بكلامه؟! والحال أن تلك الوجوه المذكورة للمعجزة القرآنية تثبت أولاً أن هذا الكلام معجزة بحد ذاته ولا يستطيع أي إنسان أن يأتي بمثله، وحينئذ يثبت أنّه من الله تعالى لا من محمد (صلى الله عليه وآله)، وبالاصطلاح الفلسفي: من طريق «الإن» أما على الوجه المختار فهو من طريق «اللّم». وتتمثل الفائدة في هذا الفرق أن طريق الإن لا يمكنه إثبات أن هذا الكلام من الله حتماً. فغاية ما يثبته على فرض صحة الوجوه الإعجازية المذكورة أنّه أنّه ليس كلام بشر وانه ليس من محمد (صلى الله عليه وآله)، بل هو من

من قوة غيبية فوق مستوى البشر، أما هل هذه القوة الغيبية هي الملائكة أو الجن أو الله تعالى أو غير ذلك؟ فهذه الوجوه عاجزة عن تحديد المتكلم بالله تعالى، أما على الوجه المختار فنحن لا نواجه مشكلة من هذا القبيل، فبعد أن ثبت بالوجدان أنّه كلام الله من خلال «نغمة الالوهية» نقول بأنه معجزة لا العكس)[1].

أقول يوجد أكثر من تهافت في كلامه:

١- إنه يعتقد ان وصم كلام الله تعالى بالإعجاز متفرع على كونه كلام الله تعالى، أي إننا في الرتبة الأولى أثبتنا أنه كلام الله ثم بعد ذلك حكمنا بإعجازه مع أن الرجل ينّظر للإعجاز الوجداني ويتخذه طريقاً وحيداً لإثبات صحة نسبة القرآن الكريم إلى الحق تبارك وتعالى، وهو يعني فيما يعنيه أنه أثبت الإعجاز أولاً، ثم صحح نسبته ثانياً ،تماماً كما يفعل من يشكل عليهم!

ولابد من التنبيه على المغالطة في كلامه: (أي أننا بعد أن آمنا بأن هذا الكلام هو كلام الله تعالى آمنا بأنه معجزة) فان الايمان بانه كلام الله الله تعالى متوقفٌ على اثبات اعجازه أي ان الاعجاز متقدم على الايمان

---

(١) سر الإعجاز القرآني: مصدر متقدم.

بربانيته ،بينما الايمان باعجاز القرآن متوقف على ربانيته أي ان الايمان بانه كلام الله متقدم على اعجازه ،وهو دور واضح!

٢- إن ادراج إعجازه الوجداني تحت (برهان اللّم) بخلاف الوجوه التقليدية التي يرى إنها تندرج تحت برهان (الإن) كلام من لاعهد له بالابحاث المنطقية ،وتوضيحه:

إن الثابت في المنطق الأرسطي أنّ القياس البرهاني لكي يفيد نتيجة يقينية، لابدّ من أن يتألّف من مقدّمات يقينية، والمقدّمة لكي تكون يقينية لابد لها من شروط متعددة أحدها:

أن تكون كلّية، أي في الصدق بحسب الأحوال، وإلاّ كذب في بعضها، فلم يمتنع الطرف المخالف، فلم يحصل يقين.

ونحن ندعي ان هذه المقدمة غير متوفرة في القياس البرهاني الذي يدعيه القبانجي فان المدار على كون البرهان لمياً هو أن يكون الحد الأوسط علّة للنتيجة، ومثاله: «الإنسان متعجب، وكل متعجب فهو ضاحك» فإنّ التعجب علّة لثبوت الضحك للإنسان، أو "هذه الحديدة ارتفعت حرارتها، وكل حديدة ارتفعت حرارتها فهي متمدّدة"، فينتج:

هذه الحديدة متمدّدة، فالحد الأوسط وهو ارتفاع الحرارة، علّة للنتيجة وهي تمدّد الحديدة.(١)

من هنا فاننا لا نجد الحد الأوسط عند صياغة مدعى القبانجي في قياسٍ برهاني علةً للنتجية فلا يكون البرهان لمياً كما يدعي فان روح كلامه ترجع الى:

القرآن كلام الله وكل كلام الله معجز فالقرآن معجز فإن كون القران كلام الله علة لاعجازه فهو برهان لمي كما يتوهم.

إن هذا القياس مفتقدٌ لشرط كلية المقدمة فان: (كل كلام الله معجز) لا تعدو ان تكون دعوة ليس عليها دليل بل الدليل على خلافها ادل فان من كلامه تعالى ماليس بمعجز واوضحه: (الاحاديث القدسية، كلام الحق مع العديد من المرسلين والذي حكاه القرآن الكريم في موارد متعددة، كلامه تعالى في التوراة والانجيل وسائر الكتب المنزلة، وغير ذلك).

٣- البرهان الإنيّ هو الدليل الذي يكون السير فيه من المعلول إلى العلة او من احد المتلازمين إلى الآخر، بخلاف البرهان اللمي الذي

---

(١) شرح نهاية الحكمة الإلهيات بالمعنى الأخص- السيد الاستاذ كمال الحيدري: ج ١، ص ٣٩.

يكـون السـير فيـه مـن العلـة إلى المعلـول، ومـن خـلال هـذا التعريـف المقتضب نعرف أن الإعجاز الوجداني الذي يدعيه القبانجي يدخل تحت برهـان الإن تمامـاً كمـا تـدخل الوجـوه الإعجازيـة الأخـرى، فـإن إثبـات كـون القـرآن الكـريم معجـزاً متقـدماً علـى صـحة نسـبته إلى الحـق تبـارك وتعـالى وهـو أمـر موجـود في كـلا نـوعي الإعجـاز غايـة الأمـر إنـه علـى الاتجـاه المعـروف يكـون معجـزاً للوجـوه المعروفـة وعلـى مـا ادعـاه أحمـد القبـانجي يكـون معجـزاً لاشـتماله علـى مجموعـة خصـائص يـزعم إن ملاحظتها يقود وجداناً إلى التصديق بأنه كلام الله تعالى.

وبكلمـة أخـرى: ان الوجـدان الـذي يدعيـه القبـانجيويعتبره طريقـاً وحيداً للايمـان بربانيـة القـرآن الكـريم مهمـا كانـت حقيقتـه وماهيتـه فهـو لا يعـدو في الأخـير إلا أن يكـون أثـراً قلبيـاً أو عقليـاً لكـلام الله تعـالى ومعلولاً لـه وبالتالي ومن خلال هذا الأثر يتم الإيمان بكلام الله المعجز، وهذا عين (الإن) الذي فر منه صاحبنا!

أما بقية كلامه فقد توفرنا على نقده سابقاً فراجع.

الملاحظة التاسعة على قوله:

(إن المعجزة: إمـا أن تكـون «منصـوبة» مـن الله تعـالى، أو «منسـوبة» إليـه، فمـا كانـت «منصـوبة» مـن الله تعـالى فهـي الخارقـة لنـاموس الطبيعـة، وجميـع أفـراد البشـر لا يسـتطيعون الإتيـان بمثلهـا مـن هـذه الجهـة، أي جهـة

كونها لا تتوافق مع القوانين الطبيعية، ولكن «المنسوبة» إلى الله تعالى لا يفترض كونها خارقة لقانون طبيعي، وعجز البشر عن الإتيان بمثلها، إنما هو لكونها منسوبة إلى الله تعالى. وللاختصار نطلق على النوع الأول «المعجزة من» أي المنصوبة من الله، وعلى الثاني «المعجزة إلى» أي المنسوبة إلى الله، ومعجزات سائر الأنبياء من قبيل النوع الأول، فلا شك شك أن «ناقة صالح» معجزة قد نصبها الله تعالى دليلاً على نبوة صالح (عليه السلام)، بمعنى أن الله قد خلق هذه المعجزة وجعلها بنفسها معجزة، وهكذا «عصى موسى» بنفسها معجزة، أما القرآن الكريم فهو معجزة من النوع الثاني، أي أنّه في حدّ ذاته وبقطع النظر عن انتساب هذا الكلام لله تعالى ليس بمعجزة. ولكنه من حيث نسبته إلى الله تعالى فهو معجزة، أي أنّه لا أحد من البشر بإمكانه أن يأتي بكتاب مثله ويدّعي نسبته إلى الله تعالى وأنّه كلام الله وتكون هذه النسبة صحيحة ومقبولة)[1].

١- إن التفريق بين نوعين من المعجزة لا شاهد عليه لا عقلاً ولا نقلاً، وبالتالي لا يعدو أن يكون مجرد حدس من القبانجي وليس شيئاً آخر.

---

(١) سر الإعجاز القرآني: ص١٩٥-١٩٦.

٢- إن المعجزة لا تكون معجزة ما لم تخرق العادة وتستطيل على القوانين المألوفة، فإنها وفي هذا الفرض فحسب تكون غير مقدورة لأحد على المستوى العملي، ومجرد نسبتها إلى الله تعالى مع عدم صيرورتها أمراً خارقاً للقوانين الطبيعية لا تكون معه معجزة يتحدى بها لإمكان معارضتها عملياً، والإتيان بما ماثلها لفرض أنها لم تخرق العادة ولم تخرج عن إطار القوانين الطبيعية.

٣- إن دعوى عدم كون القرآن الكريم معجزة خارقة للعادة يخالف الانطباع الذي سجله المعاصرون لنزوله وهم أعرف الناس به، وقد نقل القرآن الكريم هذا الانطباع قائلاً: (فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ)[1] في إشارة منهم لمخالفته مخرجات بلاغتهم وفصاحتهم التي عهدوها وعرفوها حتى صار في مصاف الخوارق عندهم.

٤- عدم الإتيان بما ماثل المعجزة المنسوبة لا يخرج سببه عن احد احتمالين:

الأول: منع الله تعالى الناس من ذلك وصرفه تعالى لهم عن المعارضة والمماثلة.

---

(١) سورة المدثر: الآيات ٢٤-٢٥.

إن هذا الاحتمال هو عين القول بالصرفة الذي تمت مناقشته سابقاً،والذي لا يقبله القبانجي نفسه.

الثاني: كون القرآن الكريم خارقاً للعادة ومستطيلاً على القوانين الطبيعية. إن هذا الاحتمال عين ما نقوله وبه يثبت المطلوب!

والحمد لله أولاً وآخراً.

الفهرست

تقديم..... ٣

المقدمة ٢٠

الفصل الأول الإعجاز البلاغي..... ٢٢

الفصل الثاني الصرفة ١١٩

الفصل الثالث الإعجاز الغيبي..... ١٥٣

الفصل الرابع الإعجاز القرآني بعدم الاختلاف فيه..... ٢٠٤

ونلاحظ عليه:..... ٢٠٦

وبكلمة أخرى:..... ٢٠٨

الفصل الخامس ٢١٦

القرآن وتحديه بالعلم ٢١٦

ونلاحظ عليه:..... ٢١٧

وبكلمة أخرى:..... ٢٢٦

الفصل السادس الإعجاز الوجداني ٢٦٦

النظرية باختصار..... ٢٦٦

الطائفة الثالثة: المتكلم والفوقية القاهرة: ٢٧٥

انتهى كلامه بطوله وعليه جملة ملاحظات: ٢٧٩

الفهرست ٢٩٨